www.ibtesama.com/vb

ذهب طروادة

تأليف : روبرت باين
ترجمة : رشدي السيسي
مراجعة ترجمة : مصطفى حبيب

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الألف كتاب

(٥٥٠)

ذهب طروادة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

www.ibtesama.com/vb

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

www.ibtesama.com/vb

الألف كتاب (٥٥٠)

ذهب طروادة

تأليف
روبرت پين

ترجمة
رشدي السيسي

راجعه
مصطفى حبيب

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
١٩٦٥

www.ibtesama.com/vb

هذه ترجمة كتاب :

THE GOLD OF TROY

تأليف Robert Payne

www.ibtesama.com/vb

من الأساطير اليونانية

إن الذهب الذى تستخرجه مسوخ الغرافين من باطن الأرض مكون من صخر مغلف بحبيبات ذهبية تشبه الشرر النارى ؛ وتنتزع هذه المسوخ الذهب بقوة مناقيرها الصلبة .

وتوجد هذه المخلوقات فى الهند ، وهى مقدسة عند إله الشمس؛ ولها حجم الأسود وعنفوانها ، بيد أنها تتفوق على هذه الأسود بفضل أجنحتها ، وفى استطاعتها قهر الأفيال والأفاعى الهائلة ، إلا أنها لا تستطيع قهر النمر إذ هو يبزها بسرعته وخفة حركاته .

فلافيوس فيلوستراتوس **Flavius Philastratus**
عن مؤلفه «أبولونيس التيانى» **Appolonius of Tyana**

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

طفولة أخاذة

اعتاد الناس ، خلال سنوات العقدين السابع والثامن من القرن المنصرم ، رؤية عالم أشيب طاعن فى السن ، تطوق رقبته بنيقة عالية ، وتغطى رأسه مغفرة لوقايته من الشمس ، وهو يتجول بين أطلال ربوة مقيمة فى آسيا الصغرى ؛ وكان ضئيلاً نحيلا ، له عينان عسليتان داكنتان ، وعظمتا وجنتين مرتفعتان ، وأنف غليظة ، وفم شهوى ؛ وكانت به بعض صفات الفلاحين تخالطها بعض سمات تجار لوبيك (Lübeck) الذين انحدر عنهم ، وكان يتكلم بصوت متهدج مرتفع النبرات ، ويرتدى ثياباً رثة حائلة ، ويسير فى خطا منزلقة غريبة ، ويحمل دائماً فى جيب سترته كتاب الالياذة والأوديسا وقد تثنت جوانب صفحاته ، وكان يقرر ، لأى صديق يسأله ، أنه كشف النقاب عن مدينة طروادة (Troy) القديمة ، وعثر تحت أسوارها على كنز خفى من الذهب ، يحتفظ به فى أمان بمنزله فى أثينا ، وكان يعتقد أن فى حيازته رفات أوديسيوس (Odysseus) وجواهر تاج امبراطورية طروادة ، وأقنعة الموت الذهبية التى كانت لأجا ممنون (Agamemnon) وكثيرين من أبطال اليونان الآخرين ؛ ولعله على حق فيما كان يدعيه ؛ ولم يكن قد مس مجرفة إلى ما بعد منتصف عمره بفترة طويلة ، ولكنه خلال السبعة عشر عاماً الأخيرة من حياته كان لا يفتر عن القيام بالحفر والتنقيب ، ومن عجب أن أبعد المشتغلين بالعاديات عن العلم ، هو الذى أسس علم العاديات الحديث .

وحالفه الحظ — الحظ وشهوة عارمة لحيازة الذهب — فكوّن ، فى فترات مختلفة من حياته ، أربع ثروات طائلة ، إحداها حصل عليها عن طريق الانتهازية خلال حرب القرم ، بينما حصل على أضخمها من حقول الذهب بكاليفورنيا ، وقد وقع عليها عرضاً حين توجه إلى كاليفورنيا لجمع ما خلفه شقيقه الذى مات محموما ؛

www.ibtesama.com/vb

وكما أن لبعض الناس القدرة على تقصى أثر الماء ، يبدو أن ثمت حاسة سادسة كانت تسوقه إلى حيث الذهب الخبيء ؛ فعثر على كنز طروادة وهو لا يكاد يترقبه ، ووقع على كنز مايكيناى (Mycenae) حيث لم يكن أحد آخر يتوقع وجوده ، وفى أحد الأيام بانديانابوليس (Indianapolis) ، بعد طلاقه من زوجته الروسية المتبلدة العواطف ، كتب إلى أحد أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بأثينا ، يطلب إليه أن يبحث له عن زوج ، وكان الحظ حليفه للمرة الأخرى ، فواتاه بزوج جميلة مختارة ، لعله لم يكن بين نساء العالمين من تفهم احتياجاته مثلها ؛ لقد طارده الحظ كأنه الوتر .

فحين ولد فى السادس من يناير عام ١٨٢٢ ، بمنزل كاهن قرية نيوبكو (New Buckow) فى مكلنبرج (Mecklenburg) غير البعيدة عن الحدود البولندية ، لم يكن هناك ثمت ما يشير إلى أنه سيصبح فيما بعد مصرفياً من أرباب الملايين ، أو أنه سيستخرج من باطن الأرض كنوزاً طائلة ؛ وبعد ذلك بعامين أصبح والده راعياً لكنيسة أنكر شاجن (Ankershagen) وهى قرية صغيرة جداً يندر إثباتها بأية خريطة جغرافية ، وقاتل الصقالبة (Slave) والتيوتون (Teutons) عبر سهول مكلنبرج ببحيراتها وضبابها المخيم ، ولكن فى مستهل القرن التاسع عشر تحولت مكلنبرج برمتها إلى غدير ، وكان سكان برلين ينعتون أهالى مكلنبرج بالغباء ، ولكن هذا القول كان يجافيه الصواب ، فعلى الرغم من أن مكلنبرج لم تنجب سوى القوائل من الشعراء ورجال الفن ، فقد كان الأهلون ينتجون الطعام ، ويسرفون فى الشراب ، ويصخبون فى الضحك ، ويزرعون حقول البطاطس ، ويعتنون بلحوم الأبقار ، ويتسلون خلال أمسية الشتاء الطويلة بسرد القصص ، وهم حول النيران يستدفئون ؛ ولم يكن فى ألمانيا بأسرها قوم شديدو التعلق بالأرض مثلهم .

وكلما تذكر هنريش شليمان (Heinrick Schliemann) فى الأعوام المتأخرة ، طفولته ، تذكر دار راعى الكنيسة الصغيرة ببراعم ثمار الكريز فى

www.ibtesama.com/vb

حديقتها ، والكنوز التى شاع أنها مخبوءة بالأرض المجاورة ، والأشباح التى تتردد على المكان ؛ وثمت شبح كان يسكن منزل الحديقة الصغير ، تحت شجرة زيزفون ، هو شبح راعى الكنيسة فون رستدورف (Von Rustdorf) سلف والده فى الابرشية ، وفى بركة على الجانب الآخر من السور كانت هناك فتاة يزعمون أنها تظهر ، عند منتصف كل ليلة ، وبيدها كأس من الفضة ، بينما على بعد أقل من ميل انتصبت مقبرة طفل دفن فى مهد من الذهب ، وفى وسط أنكر شاجن تسامق قصر من العصور الوسطى ، ذو ممرات خفية تحت الأرض ، وكان القصر يوماً ما ملكا للسلاب المشهور البارون هننج فون هلشتاين (Henning Von Holstein) الذى شن الحرب ضد دوق مكلنبرج ، وعرض أن يتفاوض مع الدوق ، الذى أخذ طريقه صوب أنكر شاجن ، وكان سيقتل لو لم يحذره أحد الرعاة فى الوقت المناسب ، فقبض هننج فون هلشتاين على الراعى ، وشواه حيا ، وركله طويلا بعد شيه ، فساق الدوق جيشاً لجباً هاجم به القصر ، ولما رأى هننج فون هلشتاين استحالة إفلاته خبأ ثروته قرب القلعة المستديرة المحطمة ، ثم قضى على نفسه وتميز مقبرته تلك الأحجار المستوية الطويلة التى فى ساحة الكنيسة ، وفى كل عام تبرز من القبر ساقه اليسرى — وهى الساق التى ركل بها الراعى المنكود الحظ — كزهرة غريبة ، وذكر خادم الكنيسة أنه شاهد الساق ملفوفة فى جورب حريرى أسود ، ولكن لم يشاهدها قط أحد من صبيان القرية .

وشب هنريش الصغير بين هذه الأساطير ، وزار القصر ، وشاهد نقش الطين النضيج ، على السور الشمالى ، وقد بدا فيه فون هننج هلشتاين ممتطيا صهوة جواده للقتال ، ورأى المصطلى الذى شوى فيه الراعى ، وعرف الأكمة التى اختبأ وراءها الراعى كى يحذر دوق مكلنبرج ، واخترق أروقة القصر التى تحت الأرض ، وظن أنه عرف المدخل إلى ممراتها السرية التى تمتد متعرجة عبر البقعة برمتها ؛ ولقد اكتظ ذهنه بالأساطير وقصص الكنز المخبوء ، وهو ، على نحو ما ، لم يبرح قط مسقط رأسه ، بل ولم يخط خارج ابروشية والده ، فظل حتى آخر

www.ibtesama.com/vb

حياته كالطفل الذى لازم نافذة مقر الابروشية ، لا يتحول عنها أو يريم ، وقد راح فى نشوة عارمة ، يخترق الضباب ببصره ، ليشاهد العالم الخارجى بسحره وخفائه ولهيبه المضىء .

وكانت الأشباح ، بالنسبة له، فى كل مكان ـ ما كان عليه إلا أن يمديده فيلمسها ـ فهو يعيش فى دنيا أخوة جريم (Grimm) وهوفمان (E. T. A.Hoffmann) بقصصهم العجيبة عن العفاريت الغارقة فى الدماء ؛ وكان الفزع يستولى عليه فجأة عند كل منحن فى الطريق ، وكانت هناك عفاريت نزاعة للخير ، ولكن كانت هناك أيضاً نسوة التفاح المر ، وبأيديهن حبال من الفضة معدة لشنقك فوق أقرب شجرة تفاح مر، وكان هناك ما هوأسوأ من نسوة التفاح المر، وهى الهمسات الغريبة بالليل ، والأنوار المتنقلة بالحديقة ، وهننج فون هلشتاين المقطوع الساقين قد يهبط من قصره فى أى وقت ، وكان لهنريش طريقته الخاصة فى التعامل مع الأشباح ، فهو يحفر الحروف الأولى من اسمه بالأشجار والأغصان وزجاج النوافذ ، وهذه الحروف المنقوشة فى وضوح كانت ، بطريقة ما ، تشل حركة الأشباح ، ومرة نقشها بحروف ، ارتفاعها قدمان ، على شجرة الزيزفون الضخمة بالحديقة ، وظلت ظاهرة فى وضوح تام حتى شاهدها ثانية بعد ذلك بنحو خمسين عاما .

ولعله أيضاً نقش إسمه فى كل مكان لحاجته إلى توكيد شخصيته بمقر راعى الابروشية المزدحم ، فهناك أربع شقيقات وشقيقان ، وثمت شقيق آخر توفى فى العام الذى ولد فيه فحمل اسمه حين عماده ، وكانت علاقته بشقيقته دوروثى وولهلمينا وثيقة ،ولعل علاقته بأمه أوثقها جميعاً ، وهى امرأة هادئة ، كان أبوها عمدة القرية ويبدو أنها لم تسعد كثيراً لزواجها بكاهن فظ مستبد ؛ وكانت تصغره بثلاثة عشر عاما وتزوجته وهى فى السادسة عشر من عمرها ، وكانت تلبس قفازاً من المخرمات، وتعزف على البيانو ، وكان القرويون ينفرون منها لظنهم أنها تتعالى عليهم ، أما الأطفال فكانوا يهيمون بها ، بينما كان زوجها لا يوقرها ، بل يتودد إلى الظاهيات حتى ظل إلى نهاية حياته الطويلة — أربت سنه على التسعين — محطاً للريب وأردأ الشبهات .

www.ibtesama.com/vb

وكان الكاهن ، قبل التحاقه بكلية اللاهوت ، يزاول مهنة التعليم ، إذ كان موهوبا من هذه الناحية ، فعلم صغاره الحروف ، كما شغف باطلاعهم على ما تضمه دفات كتبه من صور وشرائح فنية ، وفى يوم ما إذ كان الكاهن يحرق الإرم تغيظا من الفقر ، سأله هنريش لماذا لا ينبش الأرض كى يستخرج الكأس الفضى أو المهد الذهبي ، فابتسم الكاهن وبدا كما لو كان عارفا أن الفقر نذر عليه ، وأن الثراء لن يلج منزله غير الموقر .

وكان رجلاً متقلب الأهواء ، يسخو الآن ويشح بعد حين ، مع نزعة غريبة إلى الصراحة التى كثيراً ما تنقلب إلى هذر طروب ، وكان قصاصا بارعا ، مشغوفا بالدعابة والمجون ، وكان يميل بنوع خاص لأن يخرج بصغاره إلى الحقول فى نزهات طويلة ، يروى لهم خلالها تاريخ كل حقل وقرية صغيرة ، مختلقا ما يرويه عفو الساعة ، متفننا فى نسج قصصه حتى لتصبح مثارا للضحك الشديد مع احتفاظها بعنصر التصديق ، ثم يلقى برأسه إلى الوراء ويروح يقهقه حين يرى صغاره وقد فغروا أفواههم مبهورين متعجبين ، وأحيانا كان يلجأ ، لتهدئتهم فى ليالى الشتاء ، إلى سرد قصص من هوميروس حتى تدوى قاعات المنزل بحروب طروادة .

وكان الكاهن لا يعرف اللغة اليونانية ، وهو لم يطالع مؤلفات هوميروس قط فى لغتها الأصلية ولكن لم يكن هناك ما يثير الدهشة فى اهتمامه العظيم بالالياذة والأوديسا ، فكل ألمانيا كانت على دراية بهوميروس ، فجوتيه (Goethe) وشيللر (Schiller وعدد آخر من شعراء ألمانيا كرموا هوميروس بتقليدهم له ورفعوه إلى عنان السماء ، وكانت أدق ترجماته فى متناول اليد ، وأفضل هذه الترجمات وأشهرها قام بها ج . هـ . ڤوس (G. H. Voss) الذى قضى بضع شهور من شبابه المنكود كرب فى ذات القصر الذى شوى فيه هننج ڤون هلشتاين أحد الرعاة ، وتبعا لذلك أحس أطفال الكاهن متعة المالكين فى أبطال هوميروس وأنصتوا مبهورين لقصص القتال بين سكان مقاطعة آخائية اليونانية و أبطال طروادة ، ولم يكن ليصعب عليهم أن يتخيلوا القتال ناشبا بين أطلال

www.ibtesama.com/vb

القلاع وحصون أنكر شاجن ، فى خيالهم كأطفال تشابكت طروادة بأنكر شاجن وأصبحت كل منهما جزءا من الأخرى ، كما اقتحمت حياة الأبطال حياتهم الناشئة الصغيرة .

وفى عيد ميلاد عام ١٨٢٩ حين كان هنريش فى السابعة من عمره ، أهدى إليه والده كتاب «تاريخ العالم المصور» لواضعه لودفيج جيرار (Ludwig Jerrer) ، فسرعان ما قلب صفحات الكتاب إلى حيث صورة طروادة تندلع منها اللهب ، وفى الأمام منها راح اينياس (Æneas) بخوذته ذات الريش ، ودرعه ، يغذ السير بين دخان المدينة المنكوبة ولهيبها ، وقد حمل والده انخسيس (Anchises) على ظهره ، وأمسك بيده ابنه اسكانيوس (Ascanius) ، فألهبت الصورة خيال الصبى ، إذ ساعده كل ما بها على أن يتمثل معالم طروادة فى أنكر شاجن ، فالقلاع المستديرة ، وأسوار القصر الضخمة ، والمدخل العظيم ، كل هذه يستطيع أن يجدها المرء فى أنكر شاجن ، ولكن الأمر الذى يثير أشد العجب هو التشابه بين اينياس كما بدا فى الصورة ، وبين الكاهن الشيخ كما نعرفه فى الصور التى وصلت إلينا ، فقد تماثلت فى الاثنين الجبهة العالية ، والعينان الكبيرتان ، والأنف الغليظ ، والوجنتان الملتحيتان ، فاينياس بدا فى الصورة كبقال مزدهر ومثله الأب ، وهو لا يفر كالبشر الفازعين ، بل يبرز البطل من الدخان ، وابنه بجانبه ، فى هدوء وسكينة دون أن يلتفت للوراء .

وحين تقدمت السن بهنريش كان يحلو له أن يقول إن هذا الرسم كان هو نقطة التحول فى حياته ، إنه عقد العزم ، منذ اللحظة التى وقع فيها بصره على الصورة ، أن ينقب عن المدينة المدفونة ، إنه ليذكر أنه التفت إلى والده وأوضح له أنه على الرغم من النيران فإن الأسوار ما زالت قائمة ، وصرح له بقوله إنه يعتقد إن جيرار لابد أن يكون قد شاهد المدينة فعلا .

فأجابه راعى الكنيسة قائلا : « كلا ، فكل طروادة دمرتها النيران ، إنه رسم خيالى لا أكثر » .

www.ibtesama.com/vb

« ولـكن لطروادة أسوارا كتلك » .

« نعم » .

« وهذه الأسوار أشد ضخامة من أن تدمرها النيران وتدكها دكا ، لذلك لابد أنها قد خلفت شيئا ؟ »

وكان الراعى واثقا إلى حد ما أنه لم يبق من الأسوار شيئا ، ولـكن الصبى لم يتزحزح عن رأيه ، بل تشبث به ، وأوحى إلى نفسه أنه سيرحل يوما ما إلى طروادة ويكشف النقاب عن الأسوار والقلاع التى رسمت طبق الواقع بتاريخ العالم المصور .

وبعد ذلك بخمسين عاما ، حين ساق هذه القصة بشطر من سيرته الذاتية ، رفعوا حواجبهم دهشة ، فقد بدا لهم أنه من غير المعقول أن يستطيع مكتشف طراودة تذكر حديث طواه الماضى البعيد ، فأجاب شليمان بأنه لم يكن ليمر يوم بعد أن بلغ أشده دون أن يحلم بطروادة ويضع الخطط للـكشف عنها ، فحشد كل طاقاته للوصول إلى اليوم الذى يقف فيه منتصراً فوق أسوار طروادة ، وللمرة الثانية رفع الدارسون حواجبهم ، ومن غير المحتمل أن يكون شليمان مبالغا ، ذلك لأن أحلام طفل فى السابعة من عمره مترامية وسيعة حتى لتستطيع أن تلف المستقبل بأكمله وتخط رحلته فى أحشاء الحياة .

وكان الصبى يحلم خلال طريقه إلى المدرسة ، وكان فى السابعة من عمره حين تعلق قلبه بمينا مينـكى (M nna Meincke) ، وهى ابنة مزارع محلى ؛ وكانت مينا فى مثل سنه ، ذات شعر أصفر ، وعينين زرقاوين وكان لها جمال الدمية ، ولقد تلاقيا فى فصل للرقص ، ولم يفترقا بعد ذلك ، وكان يبهجها الإنصات إلى القصص التى يرويها هنريش ، وفى يوم ما حين قام جميع أفراد أسرة مينـكى بزيارة منزل الـكاهن ، اختفى هنريش عن الأنظار ، حيث صعد للاهتمام بهندامه ،

www.ibtesama.com/vb

إذ كان فى العادة لا يعنى بملبسه ، فبرز إلى قاعة الاستقبال مرتديا أفخر حلله ، ووجهه يتألق بعد غسله بالماء والصابون ، وشعره مصفف ، فاستبدت الدهشة بأسرة شليمان ، حتى فطنوا إلى أن هنريش أراد أن يخلف أثراً حميداً على مينا .

ولقد جن بمينا وهو فى السابعة من عمره ، وكان يجلس إلى جوارها بالمدرسة ، ويزاملها بفصل الرقص ، ويصحبها فى نزهات طويلة بالحقول ، وكانا يزوران القصر والمقابر ، ويتطلعان إلى البقعة التى برزت من بين الأحجار بها ساق هننج ڤون هلشتاين ذات الجورب الأسود ، وكانا يفحصان معا المصطلى والممرات السرية ، ويستجوبان كل من يستطيع أن يلقى ضوءا للكشف عن وجود البارون السلاب القاسى فى القصر ، وقد علما من خادم الكنيسة وخادم المقابر أن الساق كانت تظهر كل عام بانتظام فى ختام القرن المنصرم ، ولكن شخصا ما نوى بعد ذلك ، أن ينتزع الساق من جذورها ويستخدم العظام فى إسقاط ثمار الكمثرى من أشجارها ، وكانا يصدقان كل ما يسمعانه ، فحائك القرية بطرس هبرت (بطرس النطاط) ، وحيد العين وحيد الساق ، كان أيضا شغوفا بالرواية وسرد الأقاصيص ، وكان يجيد روايتها إذ تسعفه ذاكرة جبارة ، فهو كالكثيرين من الأميين ، كان يستطيع أن يتذكر كل شىء تسمعه — فى مقدوره أن يعيد تلاوة موعظة القس شليمان فى الأسبوع المنصرم عن آخرها ، ولم يكن ليخطىء فى لفظ واحد — وقد أخبرهما يوما ما ، كيف أنه فى عهد القس ڤون رستدورف كان يبغى أن يعرف أين تبنى طيور «اللقلق» أعشاشها فى فصل الشتاء ، وعندئذ أمسك ، بمعاونة خادم الكنيسة ، طائراً منها كان يعشش ببيدر الابروشية ، وثبت حول ساقه شريطاً من الجلد وبه رسالة تقرر أن الطائر قضى فصل الصيف بقرية أنكر شاجن فى شورين مكلنبرج مع رجاء إلى من يجده كى يذكر المكان الذى قضى فيه فصل الشتاء ، واستطرد « بطرس النطاط » قائلا إنه فى الربيع التالى، وجد حول ساق الطائر رسالة غريبة بلغة سكان الشمال القدامى مسطرة على رق من الجلد نصها :

www.ibtesama.com/vb

شوين مكلنبرج غير معروفة لدينا ؛
أما الإقليم الذى عثرنا فيه على الطائر
فشهور باسم أرض القديس جون .

* * *

وكتب الصبي فيما بعد : « لقد صدقناه ، ولكم تمنينا أن نضحى بسنوات من حياتنا لنعرف أين تقع أرض القديس جون الخفية » . ومن يدرى ، فلعل أرض القديس جون ليست غير اسم آخر لمدينة طروادة ، تلك الأطلال معدومة النظير التى يخترق فيها الأبطال اللهب المندلعة دون أن تمسهم بأذى ، ويحمل فيها كل طائر لقاق رسالة غامضة ، وتبرز من ساحة الكنيسة ، ساق ذات جورب أسود .

وكان الطفلان يتوجهان ، أثر سماعهما لأحديث بطرس النطاط إلى الكنيسة ليتسليا بتقليب صفحات السجلات القديمة بالكنيسة ، التى دونت فيها ، باللغة القوطية ، أسماء القرويين الذين ماتوا منذ زمن طويل ، بخط يد جوهان كريستيان ڤون شرودر وابنه جوتفردريك ، وشغل الوالد وابنه مقر راعى الكنيسة مدة تسعين عاما ، ما بين عامى ١٧٠٩ ، ١٧٩٩ ، وكان هنريش يحس حق حماية هذه الكتب التى لا يتيسر رفع أغلفتها إلا بكل مشقة ، وعندما كان الطفلان يرهقهما فحص هذه الصحائف الجلدية ، بما فيها من قوائم لا تنتهى بأسماء المواليد والزيجات والوفيات ، كانت تسنح لهما فرصة زيارة ابنة جوتفردريك ، وهى عجوز فى الرابعة والثمانين من عمرها ، تعرف جيداً تاريخ القرية وأساطيرها ، ولا تحرم الطفلين من رؤية صور أسلافها ، وكانت صورة أمها أولجارثا كريستين ڤون شيرودر (Olgartha Ckristine Von Schräder) بصفة خاصة تبهج صدر هنريش لما بينها وبين مينا من تشابه .

وهكذا راح الطفلان ، خلال عامين تقريبا ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ،

www.ibtesama.com/vb

يتجولان فى بقعة أسطورية ، ويفضى كل منهما بأسراره للآخر ، ولا يفترقان لحظة واحدة ، وقد أقسما على الزواج والعيش معا طوال حياتهما ، وأن يمكثا بأنكر شاجن لأنها كانت العالم الوحيد الذى عرفاه ـ منارة الكنيسة العالية ، وبراعم ثمار الكريز فى الحديقة ، والمقبرة ، والقصر الشاهق فوق التل ـ لقد تعاهدا ألا يسمحا لشىء باقتحام محراب حلمهما .

وعلى حين بغتة تبدد حلمهما ، وتطلعا حولهما فإذا كل شىء قد أصبح حطاما وأطلالا .

وكانت والدة هنريش تعانى منذ عهد بعيد ، إذ كانت تعلم منذ سنين عديدة أن زوجها وثيق الصلة بالطاهية ، وكانت تلاحظ فى صمت ما يقدمه الكاهن للفتاة من هدايا ثمينة ، ومجوهرات ، وثياب ومال ؛ وهى تحمل أطفال زوجها ، وتقاسى من طباعه الفظة ، وتعلم أن الفتاة ترقب موتها لتصبح ربة الدار ؛ وكانت الطاهية ترتدى داخل المنزل ثيابا من الأطلس الثقيل ومحارم من المخمل ولا تتورع عن أن تؤذى عواطف سيدتها ؛ وقبل مرور شهرين على آخر وضع لزوجة الكاهن بعثت بخطاب عجيب إلى ابنتها الكبرى ، تشكرها على ما كانت تبديه دائما من الحب نحو « أمها المهجورة » واستطردت فيه تقول : —

تذكرى دائما ، فى الأيام المقبلة ، أننى مشهرة حرب الحياة والموت ، فإذا سمعت أن الموت صرعنى فلا تسرفى فى حزنك ، ولكن بالأحرى ابتهجى إن آلامى قد انتهت ، إذ لم يقهرنى هذا العالم الجحود الذى لم يجد فيه تصبرى وصلواتى وابتهالاتى إلى الله فى هدأة الليل وتضرعى إليه أن يغير قسمتى الضيزى ... فإذا ناصرنى الله تعالى واجتزت مرحلة العناء بسلام ، وصفت حياتى بعد ذلك وعاد إلىّ شعور الغبطة والهناءة بين الناس ؛ أعدك بأن أعنى بهندامى من جديد وأرتدى أفخر ما عندى ، ولابد من أن أختتم الآن فأنا فى معمعة ذبح الخنازير والعناية بالحبوب .

www.ibtesama.com/vb

ولعل هذا الخطاب ، الذى يبدو أنها كتبته بالدم ، كان آخر ما كتبت ، فقد ماتت بعد أسابيع قليلة من مولد ابن لها .

وأدرك القرويون سبب موتها ، إذ وقفوا منذ عهد بعيد على علاقته بالطاهية ، ومن ثمت فقد انقلبوا على الكاهن فى غضب صامت ، وراقبوه من خلف ستائر نوافذهم ، مؤملين أن ينغصوا حياته فلا يطيق العيش معهم ، ولكنهم لم ينجحوا إلا فى تنغيص حياة أطفاله ، الذين رحلوا ليقيموا مع أقاربهم حتى تهدأ العاصفة ، وهكذا غمر السرور قلب الطاهية فقد استخلصت الكاهن أخيرا لنفسها .

وقد بعثوا بهنريش ليقيم مع عم كان كاهنا بكلكهورست Kalkhorst فى مكلنبرج ، فلم يرحل فورا بل مكث بمنزل والده بضع أسابيع ، بينما كانت الاستعدادات لرحلته إلى كلكهرست على قدم وساق ، وأحيانا كان يتسلل إلى منزل ابنة جوتفردريك ويتأمل فى صمت ذاهل ، ودموعه تجرى على وجنتيه ، صورة أولجارثا كريستين ڤون شرودر ، الشديدة الشبه بمينا التى حرم من رؤيتها ، فهو لم يتأثر كثيرا لوفاة أمه ، ولقد كتب فيما بعد يقول : « كان افتراق نهائيا عن مينا — فلا أراها ثانية قط — أشد ألف مرة إيلاما لنفسى من وفاة أمى ، إذ استبد بى حزن طاغ لفقد مينا فأنسانى أمى ، ومرت بى منذ ذلك العهد متاعب جسام بأصقاع مختلفة من العالم ، ولكن لم يسبب لى أى منها جزءا على ألف من الأسى الذى أحسسته ، وأنا فى سن التاسعة الرخص لافتراق عن عروسى » .

وهكذا كان يتكلم بصوت تفعمه نبرات الحزن الصادق الذى كان لا يستطيع إخفاءه عن الآخرين أو عن نفسه ، وظل بقية حياته يحلم بها فى قنوط ، وكان يوحى إلى نفسه بأنه سيخدمها كل أيام حياته ، وأنه سيجدها ثانية ، بطريقة خفية ، بعد صعاب جسام ، وأسفار كثيرة محفوفة بالأخطار ، وكانت مينا وطروادة وأرض القديس يوحنا هى معالم وادى أحلامه الموهوم .

ولكن لا يستطيع أحد أن يستسلم لأحزانه كل لحظة من النهار ، وفى كلكهرست

www.ibtesama.com/vb

أقبل الصبي على دراسته في جد واجتهاد حتى برز في اللغة اللاتينية ، وكان عمه فردريك شليمان مشيرا رقيق الحاشية دمث الطباع ، وكان بالمدرسة تمثال نصفي لهوميروس ، وكان أستاذه في اللاتينية يدعى كارل أندرس ، من نيو ستر ليتز ، وقد فطن إلى ذكائه ، فكان يصوب له أخطاءه في قواعد اللغة ، ويلاحظ أن يكتب الصبي مقالاته في اللاتينية عدة موضوعات تبهجه وتثير اهتمامه ، وكان هنريش يقدس والده على الرغم من كل مباذله ، ولهذا دبج يراعه مقالا باللاتينية عن حروب طروادة وأهداه إلى والده بمناسبة عيد الميلاد في عام ١٨٣٢ ، وكان مقالا مسهبا يصف وقائع القتال الهامة ومغامرات يوليسيس وأجاممنون ، ويبدو أن والده قد سره المقال على الرغم من « عدم خلوه من الاخطاءات » وفي العام التالي ؛ عندما أصبح هنريش في الحادية عشر من عمره ، استقر الرأى على إرساله إلى المدرسة الثانوية بنيو ستريلتز ، حيث التحق بالفصل الثالث ، الأمر الذى دل على تفوقه في الذكاء على الصبيان الذين من سنه ، وفي شبابه المبتئس الشاحب اتسم بالألمعية ، واستبد به طموح جارف ، يسر له أن ينزع لترقب أعوام من الدراسة الهادئة ، وأن يشغل في النهاية مقعداً بإحدى الجامعات ، لعلها جامعة رستوك (Rostock) وهي من أقدم جامعات ألمانيا وأشهرها .

وفي مدى ثلاثة شهور ، تحطمت هذه الأحلام أيضا ، إذ ركب أبوه رأسه وأصر على أن يتصرف وفق هواه ، فتألبت القرية برمتها ضده ، وإذ عقد القرويون العزم على القضاء عليه راحوا يهمسون بأنه اختلس أموال الكنيسة ، ولهذا مع أسباب أخرى عجز عن قيادة رعيته ، فاستهجن الأسقف تصرفاته ، وأوقفه عن الخدمة الدينية ، وأنذره بالطرد من الكنيسة ، وإذ عجز هنريش عن دفع مصروفات معهده الخاص ، اضطر للالتحاق بالمدرسة العادية العامة ، حيث قضى السنوات الثلاث التالية في تعاسة قاسية صامتة ، فأنكب على العمل انكبابا ، وكان تلميذا نجيبا فبرز سريعا — في ربيع عام ١٨٣٥ كان قد انتقل فعلا إلى الفصل الأول — وحلت الكارثة في الربيع التالي ، حين علم أن والده لن يستطيع

www.ibtesama.com/vb

الاستمرار فى دفع المبالغ الضئيلة نسبياً اللازمة لتعليمه بالمدرسة العامة ، فأصبح لزاما عليه أن يخرج للعمل وتحصيل رزقه بنفسه ، دون أصدقاء ، ودون أمل فى مواصلة دراسة أدبية أو الالتحاق بإحدى الجامعات .

فتبددت دنياه شعاعا ، وراح كالأعمى يتلمس أدنى وظيفة — فى أى مكان مادامت ستوفر له طعاما يأكله وفراشاً ينام عليه ، وأخيراً عزم على أن يشتغل مساعدا فى حانوت بقال بقرية فيورستنبرج المجاورة ، ولعله جال بخاطره أنه فى حانوت للبقالة لابد سيجد على الأقل ما يسد رمقه ؛ وكان قد ترك المدرسة قبيل عطلة عيد القيامة ، وكان لا يزال مقيماً فى نيوستريلتز حين وقع حادث غير مرتقب ، فهو إذ كان فى زيارة لمنزل هرلاو (Herr Laue) ، أحد أفراد موسيقى البلاط ، تقابل وجهاً لوجه مع محبوبته مينا ، وانفرد بها دقائق قليلة .

وعلى الرغم من مرور خمس سنوات منذ أن شاهدها لآخر مرة فقد تعرف عليها فى الحال ، وكانت ترتدى ثيابا سوداء تتسم بالبساطة التامة ، وبساطة اللباس وحدها بالذات هى التى أبرزت جمالها وضاعفته ، وكانت فى الرابعة عشر من عمرها وتتصرف كسيدة ناضجة ، فتطلع أحدهما للآخر فى استسلام ، وانفجرا بذرفاق الدموع ، وألقى كل منهما بنفسه فى أحضان الآخر ، وحاولا مرات أن يتكلما ولكن ارتج عليهما الكلام فلم ينبسا ببنت شفة ، وكانا مازالا يتطلعان أحدهما إلى الآخر فى غصة الأسى والبين ، حين دلف إلى الحجرة والدا مينا ، فاضطرا للافتراق ومرت خمس سنوات أخرى قبل أن يراها ثانية ، لفترة قصيرة فقط ، وجاءت إليه حين فاض به شعور الأسى لوحدته وقفاقت حاجته إليها ، وبعد ذلك اختفت ، وحتى آخر نسمة فى حياته ظل يذكرها وهى واقفة بمنزل موسيقى البلاط ؛ فى ردائها الأسود ؛ وعبراتها منهمرة على وجنتيها .

وبعد ذلك بوقت طويل كتب يقول : « كنت واثقاً أن مينا مازالت تحبنى ؛ وقد ألهبت هذه الفكرة أطماعى ، ومنذ تلك اللحظة أحسست فى أعماق طاقة لا حد لها ، وامتلأت ثقة لا تتزعزع فى قدرتى على الترقى والازدهار

www.ibtesama.com/vb

فى العالم بجهد لا يعتوره الـكلل حتى أدلل على استحقاق لها ، ولذلك تضرعت إلى الله أن يتفضل فلا يأذن بزواجها قبل أن أكون قد حصلت على مركز مستقل لنفسى » .

وبعد ذلك بأيام قليلة انطلق الغلام إلى فيورستنبرج ليقوم بعمل خادم فى بقالة هر هولتز ، فيصبح رهن إشارة أى شخص يريد شراء قدر من الزنجة أو زجاجة من وسكى البطاطس .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

العاصفة

لقد كره الحانوت وكل ما يتعلق به ؛ كره هر هولتز الشيخ ، الذى بدا كأنه قُد من الخشب الذى يعنيه اسمه ؛ وكره عبوديته والمبالغ الزهيدة التافهة التى كان ايتقاضاها كأجر له ؛ وكره استيقاظه فى الخامسة صباحاً ليفتح الدكان ، ويكنس لأرضيات ، ويرفع الغبار عن المناضد ، وينظف حذاء هر هولتز ، ويرتب النضد ؛ وكره ، فوق هذا كله ، فقده مينا وما يصيبه من إرهاق آخر اليوم حتى لتستحيل عليه الدراسة ، بل ويستحيل عليه تذكر أشعار ڤيرجيل التى حفظها بالمدرسة أو أى شىء آخر تعلمه ؛ وبالخارج فى ضوء الشمس كان الأولاد يتوجهون للمدرسة ويلعبون قفزة الضفدع ، ويعودون لمنازلهم بعد الظهر متلكئين ، وهم يحملون حقائب كتبهم على ظهورهم ، وكان الظلام والبرد والتعاسة تخيم جميعها على دكان البقال دائماً ، ولم تكن هناك أساطير لتغذى خياله أو صور للعالم القديم تذكره بحريق طروادة .

ويبدو أنه قضى السنوات الخمس التالية من حياته فى حالة ضياع مستهتر ، وكان الطموح ينهش قلبه ، ولكن لم يكن أمامه أسباب لترقب الثراء ، وكانت القرية فقيرة ، وأحيانا كان يتعذر على هر هولتز أن يسوى بين الدخل والمنصرف ، فإذا باعوا من أنواع البقالة ما قدره اثنى عشر تالر ، وهو ما يساوى حوالى ثمانية دولارات ، ظنوا أن الحظ حالفهم ، وبالجهد وصل مجموع مبيعاتهم فى العام إلى ثلاث الآف تالر ، أو ما ثمنه ألف وثمانمائة دولار ، وكانت المكاسب ضئيلة ، والساعات طويلة ، والعمل الشاق الذليل لا يقف عند حد .

وكانت أحسن الساعات عند الصبى ، حين يخلو إلى نفسه فى الصباح الباكر ، وفى الساعة الثامنة صباحاً كان هر هولتز يحضر ويبعث به إلى معمل التقطير المحلى ومعه كيس مملوء بثمار البطاطس — فى مكلنبرج يحتسى كل شخص وسكى

www.ibtesama.com/vb

البطاطس ، وكان هر هولتز مورده الرئيسى بقرية فيورستنبرج المهملة — ثم يسارع بالعودة للوقوف خلف النضد حتى الساعة الحادية عشرة مساءً ، يبيع خلالها الزنجة والزبد واللبن والملح والبن والسكر ، الزيت والشموع ووسكى البطاطس الذى لا غنى عنه ، وكانت روائح الزنجة والوسكى تفوح من الدكان ، وكان دائماً يدحرج البراميل الثقيلة حول الدكان ، ويراجع عدد صناديق الزنجة ، ويحمل الطلبات ، ولم تكن هناك اية فرصة للدراسة وعلى الرغم من ذلك كان يطالع أحياناً لفترة قليلة، فى المساء قبل أن يذهب للفراش تحت النضد ، وهو مكدود الذهن بالأرقام ، مبتل اليدين بزيت الزنجة ، وقد تناثرت نشارة الخشب على ثيابه ، ولم يكن لديه قط من المال ما يكفى لشراء الملابس ، ولذلك كان يرتدى حلته المرقعة صيفاً وشتاء ، وهكذا استمر الحال ، عاما إثر عام ، حتى بدا أن كل أطماعه قد تبددت شعاعا .

ولكنه كان يحلم بالثروة ، الثروة العريضة ، طوال هذا الوقت ؛ وكلما ازدادت تعاسته ازداد تمسكا بتفكيره فى مينا وفى اليوم الذى يستطيع فيه أن يتزوجها ويدبر أمر معيشتها ؛ وكان القوم التاعسون الذين يترددون على الدكان يملئون نفسه تقززا ، فهو سيصبح عالماً ، ويكوّن لنفسه ثروة ، ويبرز بالانتفاع من عالم لا يؤمن به أو يصدقه ، ولم يكن ثمت محيص من أن يصبح الطموح مسخا أسطوريا ، مثل ساق هننج ڤون هولشتاين ، الملفوفة فى الحرير الأسود ، التى تبرز من ساحة الكنيسة .

وثمت فترات من الغبطة كانت تتخلل بين الفينة والفينة ، ففى إحدى الليالى دلف طحان مخمور إلى الدكان وأخذ هنريش يلاحظه وهو يتلو مائة بيت من أشعار هوميروس فى ضوء مصابيح الزيت ، فبهر هنريش وخلب لبه ، وعلى الرغم من أنه كان عاجزا عن قراءة اليونانية أو تفهمها ، فإن جرس الكلمات وتوقيعها أصابا من نفسه وترا حساسا ، وحين تلا الطحان مائة بيت طلب منه أن يعيد تلاوتها ،

www.ibtesama.com/vb

وإذ كان هنريش ما يزال مشوقا لسماعه طلب إليه أن يعيد تلاوتها للمرة الثالثة ، ولقد غمره السرور حتى أعطى الطحان ثلاث كئوس مترعة من وسكى البطاطس مكافأة له على ما تجشمه ، على الرغم من أنها كلفته كل ما كان يمتلكه من مال .

وعلى مر الأيام ازدادت معرفة هنريش بالطحان السكير ، وكان يتطلع دائما لمجيئه ويترقبه ، وكان اسمه هرمان نيدرهوفر ، وهو ابن كاهن روبل (Rœbel) البروتستانتى ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين ، لا يرجى منه نفع ، كان قد طرد من المدرسة لسوء سلوكه ، ولكن ليس قبل أن يتعلم تلك الأبيات المائة المشهورة ، التى كان يرددها دائما بنفس الطريقة ، ونفس الفصاحة ، مع حلاوة النبرات ، وكتب هنريش بعد ذلك بمدة طويلة يقول إن الدموع السخينة كانت تنهمر على وجنتيه حين سماعه الكلمات ، واستطرد يقول : « ومنذ تلك اللحظة لم أ كف عن التضرع إلى الله أن يسمح لى بنعمته أن أتعلم اليونانية يوما ما » .

ولم تكن الحادثة غراس الوهم والخيال ، أما الضراءة فلعلها كانت كذلك ، وكان يحلم دائما بالفرار إلى أميركا حيث الشوارع مرصوفة بالذهب ، وحيث يستطيع الإنسان شراء الكتب التى تشرح صدره ، وكان فى الثامنة عشر من عمره حين وقع عقداً ، مع وكيل لإحدى الضياع المجاورة ، يخوله السفر إلى نيويورك إذا استطاع أن يدبر مبلغا من المال يدفع به بعض مصاريف الرحلة ، وكان ذلك عام ١٨٤٠ حين كان المهاجرون يحفون زرافات ووحدانا إلى السهوب العربية بأميركا ، فقصد هنريش والده يلتمس قرضا ، ولكن ذلك الوالد الغريب الغامض كان غارقا لأذنيه فى إحدى مباذله ولم يكن ثمت مال مرتقب ، فعاد إلى دكان البقال الصغير بقلب مثقل حزين وقد فقد الأمل تماما فى الإفلات من العبودية ، ولعله كان سيخدم خلف نضد البقال بقية أيام حياته لولا وقوع حادث غير مجراها .

وحين تقدمت به السن ، كان من المحتمل أن يجد نفسه أحيانا

www.ibtesama.com/vb

يتصبب عرقا باردا ويرتعش كعصفور بلله القطر ، حين يتذكر كيف أن صندوقا من الشيكوريا غير كل مجرى حياته ، ولم يكن صندوقا كبيرا جدا ولكنه كان ثقيلا ، فأنهك نفسه واستنفذ قواه ، وفجأة بصق دماً ، وحين تدفق الدم فوق نشارة الخشب على الأرض ، عرف أنه لا يستطيع أن يواصل حمل أكياس البطاطس ورفع آلات صنع الزبد ؛ كان شاحباً ، ضعيف الصدر ، يتهدده خطر الموت وهو محاط بصناديق الزنجة وشموع شحم الحوت ، فعزم على الرحيل إلى هامبورج ، المطلة على البحر ، ومن ثمت فهى على كثب من أميركا ، وكان قد ادخر ثلاثين ريالا بروسيا ، وهو مبلغ يعادل حوالى ثمانية عشر ريالا أميريكيا ، وبهذا المال والملابس التى على بدنه رحل إلى هامبورج عن طريق روستوك ، حيث قضى مدة كافية تعلم خلالها مادة المحاسبة « وفق طريقة شوانبك » فأتم فى أيام قليلة منهاجا لا يتم الطالب دراسته عادة إلا فى عام أو عام ونصف .

وحتى إذا أراد العودة إلى قرية أنكر شاجن الصغيرة التعسة ، فلم يكن هناك ما يجذبه إليها ، فوالده كان قد تزوج امرأة من العامة ، واستولدها طفلين وانفصل عنها ثم ردها إليه ثانية ، وكان فى أنكر شاجن أشباح ، ولكن كان هناك ماهو أسوأ من الأشباح — الفضيحة ؛ فلم يكن هناك سلام بين أبيه والزوجة الجديدة ، وكانا يتصايحان ويتعاركان كالقطط المتوحشة ، مع نوبات من البغض والشهوة العارمة ، وتأزمت الأمور حتى لقد اختبأت الزوجة الجديدة فى مخزن للأخشاب خشية قتلها ، وقد استدعته المحكمة للمثول أمامها وأمرته أن يعاملها برفق أو يدفع لها نفقة سنوية قدرها ثلاثمائة تالر ألمانى ، وكل هذا كان معروفا فى فيورستنبرج وروستوك ، وهكذا عجل شليمان بالرحيل إلى هامبورج ، وهى مدينة مجهولة الاسم مترامية الأطراف ، يستطيع فيها أن يفقد نفسه وينسى تعاسته وصبابته بمينا ، التى مازالت تخلب لبه وتستبد بأفكاره ، على الرغم من أنه كان يجد نفسه أحيانا وهو يحلم بابنة عمه ، صوفى شليمان ، ابنه كاهن كالكهرست ، وكانت نحيلة رشيقة ، ذات خفر وحياء ، وكانت صوفى هى التى

www.ibtesama.com/vb

ودعته إلى العربة التى حملته من روستوك إلى هامبورج ، وظل يحلم بها طوال الطريق حتى بدت للعيان حصون هامبورج الخمس العظيمة .

فبهرته الحصون — ستبهره الحصون حتى آخر حياته — ووقف خارج المدينة وقد انعقد لسانه دهشة حين رأى ظلالها معكوسة على صفحة سماء سبتمبر وراح يهتف قائلا : « هامبورج ! هامبورج ! » ويردد الهتاف مرات ومرات ، ولم يعرف طوال حياته سوى المدن الصغيرة والقرى ، ولكن هنا مدينة تشقها طرق عريضة ، تحفها قصور أمراء تجار ، وقد تدلت من الطبقات العليا بالدور التجارية علامات ضخمة ملونة ، وأسواق فى كل مكان ، وكانت العربات تدوى عجلاتها وهى تجرى مخترقة الشوارع المرصوفة ، والساعات الكبيرة تدق فى رنين متسق ، وأجراس الكنائس تنطلق دقاتها مجلجلة فى الفضاء ، وفى غمرة عارمة من الانفعال الشديد الذى ابتعثه فى نفسه بهاء المدينة الصاخبة ، وأصم أذنيه ضجيجها ، فنسى تعاسته ، وكان كالحالم أو من يسير وهو نائم ، وإذ راح يفكر كيف يصبح سريعا من الأثرياء ، كتب إلى شقيقته قائلا : لقد رفعتنى هامبورج إلى السماء السابعة وحولتنى إلى حالم ؛ .

ولكن منذا الذى يحتاج فى هامبورج إلى استخدام شاب ضعيف الصدر يبصق دماً على الدوام ؟ كان يعرف شيئا عن الخدمة خلف نضد بدكان بقال ، وحصل على معرفة مبكرة النضوج فى المحاسبة ومسك الدفاتر ، ولم يكن بسقمه وشحوبه من الشباب الذى يستهوى الألباب ، ولم يندهش كثيراً حين اكتشف أن أحداً لم يكن محتاجا إليه ، وفى بقالة لندمان المطلة على سوق السمك حصل على عمل بمرتب شهرى قدره ستة وثلاثون دولاراً ، ولكنه طرد منه بعد ثمانية أيام ، وهذه آخر مرة اشتغل فيها بالبقالة ، فقد اشتغل بعد ذلك فى وظيفة محاسب ولم يستمر فيها أكثر من أسبوع ، فضاقت به الأحوال وتأذمت حتى كتب إلى عم له يلتمس قرضا يستعين به حتى عيد الميلاد ، فوصلته النقود بعودة البريد ومعها خطاب مشحون بالسباب حتى لقد كان يود أن يرد النقود لولا حاجته الشديدة

www.ibtesama.com/vb

إليها ، ولم يزد القرض على عشرة قطع فضية صغيرة ، سدت رمقه فحسب ، وحينما حل عيد الميلاد رحل عن هامبورج إلى الأبد .

ولعب الحظ في حياته أدواراً غريبة ، فصندوق الشيكوريا طلع عليه بالخلاص والعناء ، والآن فمقابلة عابرة مع سمسار للسفن ، يعرف أمه ، جعلته يؤمل فى الفرار من ألمانيا بأسرها ، فقدمه سمسار السفن العطوف إلى ربان السفينة « دوروثى » المتوجهة إلى لاجوايرا فى فنزويلا ، فقد مرت على شليمان فترة كان يحلم خلالها بسهول البمباس بأميركا الجنوبية ، والآن فقد انقض على فرصة القيام بهذه الرحلة وكانت صحته منحطة ومفلسا لا يملك شروى نقير ، وعندئذ تذكر ساعة معصمه الفضية ، فباعها بثلاثة دولارات وخرج يلهو ويمرح ، وحين استقل السفينة الشراعية كان قد صرف كل نقوده ، ولكنه اشترى من سوق السلع المستعملة قميصين ومعطفا وسروالا وحشية وبطانية ، ومعظمها سيفقدها بعد أيام قليلة .

ولم يكن قد أبحر من قبل فلم يعرف أى شيء عن السفن ، وأبحرت « دوروثى » من هامبورج فى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٨٤١ فى ريح مواتية ، وكان عدد بحارتها ثمانية عشر ، وعدد المسافرين ثلاثة هم : شليمان ونجار من هامبورج وابن النجار ، وكان شليمان يصاب بدوار البحر حتى فى الطقس المعتدل ، ومرض حين رست السفينة فى كوكسها فن (Cuxhaven) بعد ذلك بثلاثة أيام ، فمكثوا فى كوكسهافن برهة قصيرة ، ثم أقلعوا إلى البحر الشمالى ، وبعد يومين وجدوا أنفسهم فى مهب عاصفة ، فوصل الماء إلى السفينة ، وكانت المضخات تفرغه باستمرار ، ووجد شليمان نفسه يقاسى من جوع لا يسكن أواره ، فراح يخففه قدر استطاعته بمضغ بسكوت السفينة ، وثبت نفسه بالحبال إلى مقعد ، وشرع فى تعلم اللغة الأسبانية مستعينا بكتاب فى قواعدها ، وكان يسقط أحيانا ويصطدم بظهر السفينة ، أما باقى المسافرين فكانوا يقاسون فى صمت داخل قمراتهم .

www.ibtesama.com/vb

وكان الطقس أسوأ ماعرفه شليمان — فالعاصفة تجتاح الأجواء ، والأمواج تتكسر على الجانبين ، والسفينة فى خطر من الارتطام والتحطيم ، وفى اليوم العاشر من ديسمبر كانت العاصفة لاتزال على أشدها ، ولكن الربان وفق إلى منع سفينته من الجنوح معيدها عن طريقها المرسوم ، باستخدام شراع السفينة الرئيسى وصاريه ، وهو الشراع الوحيد الذى جرؤ على استعماله ، وعلى الرغم من جميع الجهود التى بذلها البحارة ، انحرفت السفينة ، عند المساء ، صوب الجنوب ، ولم يكن من الهين على أحد أن يصدق أن السفينة ستصمد إزاء الأمواج التى تتكسر حولها فى غير هوادة ودون انقطاع ، وكان الجليد يتساقط مدراراً ، ولا حقتهم طيور البحر وهى تحلق من حولهم فى أسراب كبيرة — وهذا يعتبر فأل سيء — وكان البرد قارصا بست درجات من التجمد ، وبعد ظهر اليوم التالى زادت العاصفة سوءا فتكدست الأمواج كالجبال ، وانقضت على السفينة ، التى بدت لاتزيد على لعبة للأطفال تحت رحمة الأمواج ، وعندما أشرف المساء تحطم الشراع الرئيسى ، فرفع شراع العاصفة ولكنه تحطم أيضا ، ومن ثمت حدث شيء عجيب — إذ انجابت الغيوم برهة قصيرة وشاهد الجميع وهج الشمس الغاربة — وحين أطبقت الغيوم ثانية من فوقهم ، ظن معظمهم أنهم شاهدوا الشمس للمرة الأخيرة .

وكان شليمان أنئذ لا يكد ذهنه من فرط مرضه ، فراح يصغى ، فى إحساس غريب من التجرد ، إلى النجار الذى كان يرتعش فزعا من المصير الذى ينتظرهم ، وكان النجار من المؤمنين بالأحلام ، وقد امتلأت ليلته الماضية بالأحلام المفزعة ، كما أن هر السفينة ظل يموء طوال النهار ، وكلب الربان راح يعوى ، وفى نحو الساعة السابعة انحدر غـــلام السفينة إلى القمرة يحمل الشاى والكعك ، وكان الغلام يقول وهو يبكى إنه لن يحضر إليهم أى شيء بعد الآن ، وبعد ذلك بقليل حضر الربان وضابط السفينة الثانى إلى القمرة وتحدثا إلى المسافرين فى أسى ، ولقد زاد هذا الأسى حين جاء الضابط الأول يقرر أنه شاهد نورين على كثب ، وأصدر القبطان أوامره بإلقاء المرساة ، ولكن سلاسل المرساة تقطعت ،

www.ibtesama.com/vb

بعد لحظات قليلة ، كما لو كانت خيوطا من الكتان ، وفى هذا الوقت كان شليمان قد خلع ملابسه وذهب للفراش ، فى إعياء شديد ارتفع به فوق كل ضروب الخوف .

ونحو منتصف الليل فتح الربان باب القمرة فى عنف ، وصاح قائلا : « فليطلع المسافرون جميعا إلى ظهر السفينة ! السفينة تغرق ! » وبعد لحظة حطمت موجة هائلة نوافذ السفينة ، وغمرت القمرة ، وجنحت السفينة بعنف نحو الميناء ، فقفز شليمان من قمرته ، وحاول أن يرتدى ملابسه ، فلم يستطع العثور عليها ، واندفع إلى ظهر السفينة كما ولدته أمه ، وعلى الرغم من رضوضه الشديدة فقد أمسك بحبال الأشرعة بطريقة ما ووفق فى الزحف إلى حافة السفين اليمنى ، وتشبث بأطراف الحبال واستودع روحه لخالقه فى صمت ، وكان خائفا من كلاب البحر التى رآها تطفو على السطح حين هبت عليهم العاصفة ، فتلا صلواته وفكر فى شقيقاته ، وكان طوال الوقت يسمع النجار وهو يستصرخ القديسة مريم العذراء كى تمده بمعونتها ، وأعجب الأمور كلها أن ناقوس المركب كان يدق باستمرار كما لو كانت دقاته قرعة الموت .

وراح يرقب مصيره ، وهو عار ، فى أبرد ليلة من العام ، والجليد يتساقط من حوله ، والسماء كمامة سوداء ، وحين أشرفت السفينة على الغرق أمر الربان بحارة السفينة أن ينزلوا قوارب النجاة ، فسقط قارب منها عموديا فى الماء واختفى ، وتحطم الثانى مرتطما بجانب السفينة ، وبقى قارب المؤخرة الصغير ، معلقا بين الصوارى ، ولكن البحارة آنذاك كان قد استبد بهم الفزع فلم يفعلوا شيئا سوى أن تسلقوا حبال الأشرعة ، وامتلأت السفينة بالماء فراحت تغوص ببطء ، ومرت ساعتان بعدها ترنحت السفينة بشدة وانكفأت بالميناء وغرقت ، وغاص شليمان معها ولكن سرعان ما طفا على السطح ، وتشبث ببرميل فارغ طفا معه ، فالتفت أصابعه فى تشنج حول حافته .

وهكذا ظل نصف ليلة معلقا بين السماء والبحر ، حتى انتشله ضابط السفينة

www.ibtesama.com/vb

الأول من الماء إلى قارب النجاة الوحيد الذى لم يغرق ، وكان به أربعة عشر رجلا ولكنه كان خاليا من المجاديف ، وظل التيار يتقاذفهم على غير هدى حتى الفجر ، إلى أن ألقى بهم على أحد الكثبان الرملية بجزيرة تكسل (Texel) قرب ساحل هولندا ، وكانت العاصفة آخذة فى الهدوء ، وسكان تكسل يهرولون نحو الشاطىء ليجمعوا البضائع التى ألقت بها الأمواج على شواطىء الجزيرة ، وكانت آلام شليمان مبرحة ، فثلاثة من أسنانه الأمامية تهشمت ، وأصيب وجهه وجسده بجراح عميقة ، وتورمت قدماه ، واستلقى جميع الباقين على قيد الحياة فوق الرمال وهم يلهثون ، حتى أقبل فلاح عطوف بعربة وحملهم إلى داره ، حيث أضرمت نار للاستدفاء ، وتناولوا القهوة مع خبز أسود قفار ، ومكث القوم بدار الفلاح ثلاثة أيام للإبلال من محنتهم .

وحصل شليمان على حذاء خشبي وسروال ممزق وبطانية وقلنسوة صوفية ، وقد أحب الفلاح ، ولكن الأمر الذى أبهجه أكثر من أى شىء آخر هو أنهم عثروا فوق الشاطىء على صندوقه بقمصانه وجواربه مع مذكرة جيبه التى حوت « رسائل تزكيته إلى لاجوايرا التى حصل لى عليها هر وندت » ولم يصل إلى الشاطىء أى واحد من صناديق الناجين ، ومن ثمت أطلقوا على شليمان اسم « يونان أو يونس الذى ابتلعه الحوت ثم قذف به إلى الشاطىء « فبرميل ثقيل أو شك أن يقضى عليه حين كان كاتبا لبقال بفيورستنبرج ، وبرميل فارغ أنقذ حياته ، وكان الحظ مواتيا ، فحين استقل القارب من الجزيرة إلى الشاطىء كان لا يزال مهزولا لا معطف له ، يلبس حذاء خشبيا ، ويحمل صندوقه تحت ذراعه ، وقد سره أن حياه حشد من ماسحى الأحذية السليطين ، الذين إذ رأوه مهلهل الثياب مثلهم زعموا أنه قدم لينضم إلى طغمتهم .

ولكن فى تلك الأيام كانت أشياء قليلة هى التى تشرح صدره ، فهو فى قنوطه

www.ibtesama.com/vb

وتعاسته وإفلاسه وغربته عرف أنه نجا من الموت بأعجوبة ، وكان يتوهم أنه لم يجتز محنته إلا لأنه شدد عوده بالحمامات الباردة وهو فى هامبورج ، إنه كان يرتدى سروالين وصديريتين من الصوف خلال الشتاء ، ولم يكن لديه معطف أو حذاء جلدى أو آمال مرتقبة ، ورفض العودة إلى هامبورج مع غيره الذين نجوا ، مصرحاً أنه عانى فيها الأمرين ، وشاعراً أن مصيره سيتقرر فى هولندا .

وإذ كان فى حاجة ماسة للمال توجه إلى قنصل مكلنبرج فى أمستردام ، المدعو هر كواك ، ولكن خادم القنصل توهم أنه شحاذاً فأغلق الباب فى وجهه ، فدق شليمان الجرس ثانية ، وعندما انفتح الباب تيسر له أن يلقى داخل المنزل رسالة قصيرة يذكر فيها أنه مواطن من مكلنبرج فى حاجة إلى المعونة ، فقرأ هر كواك الرسالة ، وبعث بخادمه إلى الطريق فى البرد القارص يحمل لمواطنه قطعتين من العملة الهولندية الصغيرة « جلدن » ، قدرهما خمسون سنتا ، وأخطر الخادم شليمان أنه لزام عليه أن يحسب نفسه موفور الحظ لتسلمه هذه العطية ، وأن القنصل يؤمل ألا يسمع عنه بعد ذلك .

فغضب شليمان ، وهو سيستطيع حين تتقدم به السن أن يغضب ويثور كبركان هائج ، أما الآن فغضبه تخمده برودة الفقر ومرارة الحاجة إلى معونة الآخرين ، ووجد محلا لإقامته ينزل للبحارة ، تشرف عليه الأرملة جرالمان فوق مرتفع رمسكوى بأمستردام ، وحين تأزمت حالته المالية ، فعجز عن دفع إيجار مسكنه ، وقدره جلدن واحد فى اليوم ، تلمس حيلة ما يخرج بها من مأزقه ، فكتب إلى هر كواك يقول إنه مريض ويطلب نقله للمستشفى — وهذا أقل ما يستطيع القنصل الحقير أن يصنعه له — ولم تكن هناك صعوبة فى إيصال الرسالة إلى منزل القنصل ، إذ كانت الأرملة شديدة الاهتمام بمساعدته خشية أن تضطر لإيوائه وإطعامه حتى يموت أو يتعافى ، فنجحت الحيلة وقضى ثمانية أيام بالمستشفى .

www.ibtesama.com/vb

وكتب إلى هر وندت ، الذى عاونه فى هامبورج ، وروى له بالتفصيل قصة السفينة الغارقة ، وظروفه الراهنة ، ومن حسن الطالع أن سمسار السفن تسلم الخطاب خلال مأدبة أقامها لبعض أصدقائه ، فقرأ هر وندت الخطاب بصوت مرتفع ، كان من أثره أن أشفق جميع الحاضرين على الشاب التعس ، وجمعوا له من بينهم مبلغا قدره ٢٤٠ جلدن ، وهو ثروة ضئيلة جدا ، وأرفق بها هر وندت خطاب توصية لقنصل بروسيا العام ، يطلب مساعدته ، وفى مدى أيام قليلة اشتغل شليمان بدار الحساب لشركة كواين (F. C. Quien) كصبى للمراسلة فائض عن الحاجة ، وكانت مهمته قاصرة على ختم السندات وتحصيلها فى المدينة ، ومنذ تلك اللحظة لم يتراجع أو ينثنى ، فقد وجد مايبتغى عمله ، وهجر محلات البقالة إلى الأبد ، ووضع قدمه على مستهل الطريق الذى سيؤدى به إلى الثراء .

ومنذ البدء رأى أن الوسيله الوحيدة لحيازة الثروة هى فى تكريس حياته كلها لها ، فهو سيرهف مواهبه الذهنية ، ويقتر على نفسه كل التقتير ، ومقبل على مهمته بكل جوارحه ، حتى يأتى وقت يجد نفسه عاجزا عن كل ضرب آخر من ضروب العيش ، فاستهل الأمر بتخفيض نفقاته إلى الحد الأدنى ، وكان يتقاضى شهريا ستة وثلاثين (جلدن) يدفع منها ثمانية أجرا لحجرة كئيبة بنزل ، وثانيا ، لن يضيع فلسا واحدا فى لهو أو ضيافة ـ كانت تسليته الوحيدة تتألف من نزهات مسائية فى المدينة ، يشاهد خلالها واجهات المحلات التجارية المضاءة بغاز الاستصباح الساطع ، أو آخذا طريقه صوب محطة السكك الحديدية ليرى القطارات القادمة إليها ، وثالثا ، لن تكون له أية علاقة بالنساء ، ولن يجد صعوبة فى هذا ، فقد استعاض عنها بالتطلع إلى نماذج الشمع الأنيقة بواجهات محلات الحلاقة ، وثمت حلاق كان لديه ستة نماذج من الشمع اللامع الملون ، ذات شعر مصفف فى أناقة ، تتحرك فوق أسطح دوّارة ، وفى انفعال رجل فقير كرس نفسه لتكوين الثروة ، كان يتطلع إليها كما يتطلع خطيب قانط مخذول يعلم أن أميرة الأساطير لن تعيره أدنى التفات ، وأحيانا كان يفكر ، فى مينا ويؤمل أن يكون أهلا لها ؛ رابعا سيقبل على التعليم ، حتى ولو كان معنى ذلك أن يبدأ من جديد فيتعلم مبادئ

www.ibtesama.com/vb

فن الخط الألمانى ، وفى عشرين درسا تعلم كيف يكتب خطاً ألمانيا مقروءا ، ثم أقبل على تعلم الهولندية والإنجليزية بمطالعتهما بصوت مرتفع ، وتلقى دروس كل يوم ، وتحرير مقالات يصوب له أخطاءها معلم خاص ؛ وخامسا سيدرب ذاكرته حتى لا يتلاشى من ذهنه تماما أى حادث يقع له ، أو أى كتاب يقرأه ، أو أية أرقام تصادفه بدفاتر الأستاذ التجارية ؛ سادسا ، سيصرف ماله فقط فى شراء الكتب أو فيما يساعده على التعليم .

لقد تركت هذه الحياة الإسبرطية الموحشة على نفسه آثارا لا تمحى ، ولم يتخلص منها قط ، فكان يتسم بكبرياء من علم نفسه وتفكيره المنفرد ، وإذا كان قد أحس مرارة فى علاقاته الشخصية ، فذلك هو الثمن الذى دفعه فى سبيل تقديسه الصارم لواجب ترقية نفسه وتحسينها ؛ ولم يجتز دور المراهقة ، أو بالأحرى مارس كل عواطف المراهقة فى الفترة بين سن التاسعة وسن الحادية عشرة ، حين كان يرى مينا كل يوم ، والآن أخذت روحه تقسو وتتصلب كالفولاذ ، ومع القسوة جاءته نوبات من السلوك المخادع ، والهياج الفظيع والعزم الحديد ، فارتقى الدرج المؤدى للنجاح ، فى قسوة ورصانة وجلاء مفزع ، وكان لا بد أن يرضخ ، لسنين عديدة ، حلم طروادة وفكرة زواج مينا ، لجبروت شهوة جامحة للذهب استبدت بنفسه .

واستغل للدراسة كل لحظة استطاع توفيرها من عمله المكتبى ـ لا دراسة الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية اللتين كانتا شغل شبابه الشاغل ، بل دراسة جميع اللغات المستخدمة فى العمل ـ فتعلم الإنجليزية فى ستة شهور بتردده على الكنيسة الإنجليزية بأمستردام مرتين كل أحد ، وترديده ، بصوت خفيض ، كل كلمة يتلفظ بها الكاهن ؛ ويبدو أنه لم يخطر بباله قط أنه كان يشكل نفسه فى قالب « بطرس النطاط » حائك أنكر شاجن القديم ، الذى كان فى استطاعته ترديد عظات أبيه ، دون أن يفهم قط ما يقال ، وفى هدأة الليل كان يطالع قصتى « كاهن ويكفيلد » و « ايفانهو » ويعيد مطالعتهما حتى حفظهما عن ظهر

www.ibtesama.com/vb

قلب ، وكان ذهنه يشتد نشاطه فى المساء ، ولذلك لم يكن يسمح لنفسه بالنوم إلا قليلا ، فأصابه السقام وشحب وجهه ولم يكن لديه وقت لأصدقائه ، وأصبح صنفا من آلة حافظة ، تحفظ الأسماء والأفعال والصرف بالقياس ، وباين دنيا أمستردام العادية المحيطة به .

وبعد أن تعلم الإنجليزية فى ستة شهور ، قضى الشهور الستة الأخرى فى تعلم الفرنسية ، وفى نهاية العام تقدمت قوى تركيزه الذهنى إلى حد كبير حتى استطاع أن يتعلم اللغات الهولندية والأسبانية والإيطالية والبرتغالية بسرعة مذهلة ، زاعما أنه لم يستغرق أكثر من ستة أسابيع من الدراسة المركزية ليتكلم ويكتب هذه اللغات بطلاقة ، وكان قبل حضوره إلى أمستردام لا يعرف سوى الألمانية ، بأسلوب مكلنبرج غير الراقى ، وأشتاتا من اللاتينية ، أما الآن فقد أجاد سبع لغات ، وفى استطاعته قراءتها وكتابتها ، وتحريره بها تقارير تتعلق بعمله ، ومطالعة الجرائد الأجنبية ، وكى يحقق هذا اختلس وقت مخدوميه وتمسك بجدول شديد ، فهو يستذكر قوائم طويلة من الألفاظ حتى حين قيامه بمهمة فى العراء تحت المطر ، وهو يحفظ فقرات بأكملها حين انتظاره لشراء طوابع من مكتب البريد ، ولم يتراخ لحظة واحدة ، فقد عرف أنه سيأتى وقت ينال فيه جزاءه ، إن هو احتمل مشاق النظام الذى وضعه لنفسه .

وجاءه الجزاء بعد بلوغه الحادية والعشرين من عمره ، أول مارس عام ١٨٤٤ ، بوقت قصير ، حين دلف إلى مكتب هر شرودر ، الذى كان يرأس أكبر شركة للاستيراد والتصدير بامستردام ، وتقدم منه يطلب عملا ، وبين مؤهلاته — سبع لغات ورأس للأرقام وعامى خبرة كمراسلة — وسرعان ما تم اختباره ، ولأول وهلة عرف هر شرودر الرجل الذى ينفعه ، وفى دقائق عين هنريش محاسبا ، بمرتب قدره ستمائة جلدن ، وفى بضعة أسابيع زاد مرتبه إلى ألف جلدن ، ويبدو أن هر شرودر المعطوف سره وأدهشه محاسبه الجديد ، الذى كان يحمل إسم عماده « هنريش » والذى كان طويل الباع فى فهمه لمشاكل التجارة المعقدة ، وهجر شليمان دراسة

www.ibtesama.com/vb

اللغات بضعة أشهر ، واستبدل هذا باستخدام دراساته عمليا ، فتقدم حثيثا وسرعان ما أضحى أحد رؤساء المراسلين بالمكتب ، وألحق بالدائرة الصغيرة المحيطة بهر شرودر ، وحين وردت رسائل من روسيا إلى المكتب ، أعلن هنريش أنه سيتعلم الروسية فى أسابيع قليلة ؛ كى يستطيع الرد عليها .

وتعلم الروسية بنفس الطريقة التى تعلم بها الإنجليزية ـ بإلقاء نفسه رأسا فى خضم اللغة دون أن يتعب نفسه بقواعدها ، ولكنه كان يسمح لنفسه أحيانا باختبار فى قواعد اللغة ، وحصل على ترجمة روسية ركيكة لكتاب « مغامرات تليماك » لفنلو ، الذى يسوق قصة ابن بوليسيس فى أسلوب أجوف مطول ، فاشترى قاموسا وكتابا قديما لقواعد اللغة ، ولأول مرة طالع فيها القصة استعان بالقاموس للوقوف على معانى جميع كلماتها ، وبعد لأى ونصب شديد نجح فى استخراج بعض المعنى للقصة ، وكان له ذاكرة خارقة فلم تعوزه للبحث مرتين عن معنى كلمة واحدة ، واحتاج إلى معلم خاص فلم يجد ، فتحمل مشقة الذهاب إلى القنصلية الروسية فى أمستردام ، وطلب إلى نائب القنصل أن يعطيه دروسا ولكنه رفض لكثرة مشاغله .

ومن ثمت عاد إلى مسكنه وكتب قصصا قصيرة ومقالات بلغة روسية غير صحيحة ، ولشعوره بالوحدة وحاجته لمن يسمع محفوظاته ، استأجر يهوديا فقيرا بأربعة فرنكات فى الساعة ليصغى إليه وهو يردد فصولا بأكملها من مغامرات تليماك التى حفظها عن ظهر قلب ، فقد كان يؤثر أن يكون هناك من يسمعه ، كما كان يؤثر أن يرفع عقيرته مرددا مقاطع اللغة الروسية الثقيلة الرنانة ، ولكن الحوائط والسقف كانت غير سميكة ، فضج جيرانه النزلاء من هذه التمرينات الليلية ، واضطر مرتين لتغيير محل إقامته ، وكانت الطريقة فريدة فى نجاحها ، وفى نهاية ستة أسابيع أرسل أول خطاب له باللغة الروسية ، وقد استهله بجميع التحيات المناسبة ، إلى شخص يدعى ڤاسيلى بلوتنيكوف (Vassily Plotnikov) الوكيل اللندنى لشركة تجار للأصباغ فى روسيا ، وسيشكل ذلك الخطاب العشرين

www.ibtesama.com/vb

عاما التالية من حياته ، فسيحصل يوما على ثروة ضخمة ، ولعله حصّل الشطر الأكبر منها ، من بيع الأصباغ فى روسيا .

وكانت أمستردام فى تلك الأيام ما تزال إحدى مراكز تجارة صبغة النيلة العظمى ، المستوردة من الهند والشرق الأقصى ، وكانت تقام هناك مزادات لصبغة النيلة ، وكان شليمان هو الذى ينتدب لحضور هذه المزادات ، وباهتمام بالغ بكل ما هو روسى كان يفتش عن التجار الروسيين الذين كانوا يندهشون إذ يجدوا ألمانيا فى هولندا يخاطبهم بلغة بلادهم ، ويسألهم عن الأحوال فى روسيا ، ويتودد إليهم ؛ وقد استفسر منهم عن فرص المستقبل هناك ، وتحدث عن ارتحاله من أمستردام إلى موسكو واشتغاله كمستورد بالاشتراك مع مؤسسة روسية ، بل لقد تعاقد مع مستورد روسى يدعى زيڤاجو (Jbivago) ، الذى وعد بإنشاء توكيل للعمل باسم « زيڤاجو وشليمان » برأس مال قدره ستون ألف روبية فضية يدفعها الشريك الروسى ، وتقسم الأرباح مناصفة ، وواضح أنه كان معتبرا من ذوى الأملاك ، وهنريش شرودر ، حين كان يدفع له راتبا مجزيا ، كان لابد أن يتوقع احتمال انتقاله إلى مراع أكثر استهواء .

واستمر شليمان عاما وعشرة شهور ينتقل من نزل مقبض رخيص إلى آخر ، مقتصدا ماله كل حين ، ومنفقا على نفسه أقل ما يمكن إنفاقه ، ولا عيب فيه سوى احتسائه للعديد من أكواب الشاى المسكر ـ وهو عيب بهيج لازمه طوال حياته ـ وكان السكر يمده بطاقات تأتيه فجأة وتبعد عنه النوم خلال ليال طويلة من الدراسة والتأمل ، وشرع الآن فى الكتابة أكثر فأكثر إلى والده ، بأسلوب أخ أكبر يتلهف لإنقاذ الأسرة من التلف ، وكان لا يكف عن إغراء والده كى تكون حياته أكثر نفعا ، ولقد أمطر والده بالهدايا ـ أرسل إليه من باكورة ما اقتصده برميلين من نبيذ بوردو وصندوقا من السيجار ، واستمر فى إرسال الهدايا بوفرة ودون انقطاع ، وكان يرفق بها دائما أمثالا أخلاقية ، ونصائح كى يقتدى بسيرة ابنه ، وكان يحلم دائما بزواج مينا ، وينبىء نفسه أن سنى التمرين

www.ibtesama.com/vb

قد انقضت أو كادت ، وسرعان ما يتزوج ويستقر وقد أصبح له رصيد محترم بالمصرف ، وكان يعتقد أنه سيصبح تاجراً كبيراً إذ كان يصوغ نفسه فى هيئة الأخوة شرودر ، فمعرفته لثمانى لغات ستمكنه من إنشاء تجارة واسعة بكافة أقطار العالم .

وفى أواخر عام ١٨٤٥ استدعاه مجلس الإدارة وسأله عما إذا كان يرغب أن يمثل مصالح مؤسسة شرودر فى سنت بطرسبرج ، ولعل أنباء مفارضاته مع زيفاجو كانت قد تسربت ، والمؤسسة متلهفة على الاحتفاظ بخدماته بأى ثمن ، حتى بثمن إرساله إلى روسيا باعتباره الممثل الرئيسى لها ؛ وقد قبل فورا خاصة وقد أخطروه أنه سيصرح له بتمثيل كافة مصالح شرودر المترامية الأطراف بمكاتبها الفرعية فى بريمن وتريستا وسميرنا والهاڤر وريودى جانيرو ، وقضى الأسابيع الأخيرة من إقامته بأمستردام فى مقابلة رؤساء المؤسسات الأخرى ، مقترحا عليهم أن يقوم بتمثيل مؤسساتهم أيضاً ، وكان واثقاً بنفسه وبما ستحققه جهوده من أرباح إلى حد أن طلب ألا تدفع له أية أرباح حتى يسفر عمله عن ربح حقا ، ولقد كتب إلى رئيس مؤسسة يقول : « لن أتقاضى منك أية نفقات حتى تتثبت أن جهودى فى تمثيلك قد أعطت نتائج مجزية ، ولهذا أرجو ألا تبعث إلىّ مكاتباتك فى مظاريف خالصة أجرة البريد » .

وقبيل رحيله إلى سنت بطرسبرج فكر فى الكتابة إلى صديقه هرلاو ، موسيقى البلاط بنيو ستريلتز ، يسأله عن مينا ، ويوعز إليه أن الوقت قد أزف لزواجه بها ، ثم رأى أنه من الأفضل أن يرجىء الأمر حتى يدعم مركزه بسنت بطرسبرج ، وكتب إلى والده يشرح له حسن مآله ، الأمر الذى جاء نتيجة لذهن فريد لا يرحم صاحبه ، واستطرد قائلا : « مثل هذه المواهب لا تنهمر من السماء على أولئك الذين لا يستحقونها » ، ولم يصادق فى أمستردام سوى القليلين ، فلم يحس غصة فى الرحيل عن امستردام كما لم يحس فى الرحيل

www.ibtesama.com/vb

عن هامبورج ، وسيظل حتى آخر حياته جوّابا يضرب فى فيافى الأرض .

وهكذا فى غمرة من الغبطة والرضا النفسى ، فى سن الخامسة والعشرين ، بعد أربع سنين فقط من إشرافه على الغرق قرب ساحل هولنده ، رحل عن أمستردام باعتباره الممثل الرئيسى لمؤسسة من أعظم المؤسسات التجارية بالعالم ، فوصل إلى سنت بطرسبرج فى اليوم الأول من شهر فبراير عام ١٨٤٦ ، بعد رحلة شاقة ، بالعربة والزلاجة ، استغرقت ستة عشر يوما .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

البحث عن الذهب

وفى العقد التالى لعام ١٨٤٠ من القرن الماضى ، كانت سنت بطرسبرج لا تزال مدينة فى دور التكوين ، وكان نقولا الأول على العرش ، وهو رجل صارم مربع الذقن ، طوله ست أذرع ، وكان يحتقر وزراءه ويفضل أن يعتقد عن نفسه أنه ضابط من الفرسان ، ورث القيصرية بنعمة الله ، ولهذا فمن حقه أن يمتع نفسه إلى حد السرف ، ومن أعظم هذه المتع إنشاء القصور البيضاء الزاهية ، من الطراز الإيطالى على هذا الشاطىء الشمالى القر من بحر البلطيق ، وكان حسن الهندام ، وخصره مشدود كأحد الفرسان ، وكان يطارد جميع نساء بلاطه دون تمييز ، وكان كل شخص تقريبا يرتعد حين مثوله بين يديه ، فقد كانت عينه اليسرى أشد لمعانا من اليمنى ، حتى بدا مروّعا قاسيا ، مجردا من كل معانى الرحمة الإنسانية ، وهى صفات شارك فيها اسكندر الأكبر ، الذى كانت عيناه المخيفتان تجعلان أصلب الجنود تنخلع قلوبهم من خشيته .

وكانت سنت بطرسبرج فى عهد نقولا الأول مدينة المتناقضات ، طرقات عريضة ، ومصانع قليلة ، وقصور عديدة ، وأكواخ للفقراء ، وكان الوافدون إليها يلاحظون انعدام حركة المرور بها ، وخلو المكان ، وشعور الوحشة ، الذى سرى بهذه المدينة الجديدة ، التى بناها بطرس الأكبر فوق المستنقعات ، وأعاد الآن بناءها نقولا الأول الذى كان يعتبر نفسه خليفة بطرس الموعود ، وفى الشتاء كانت المدينة ناصعة البياض ، واللون الوحيد كان ينبعث من الصدرات القرمزية التى يرتديها سائقو العربات الملكية ، وفى الليل كانت الأشباح تذرع الطرقات المغطاة بالجليد ، بينما كان رجال البلاط يعانون من مباذل القصر التى لا تنصرم حبالها ، وعبيد الأرض يعانون من ذل الرق ، كان الطلبة يدبرون المؤامرات لقلب الملكية ، وذلك فى العام الذى ظهرت فيه باكورة قصص دستوفسكى

www.ibtesama.com/vb

« أناس فقراء » ، وكانت عصبة المتآمرين المعروفة باسم « حلقة بتراشفسكى » تتآمر ضد القيصر ، وتضم دستوفسكى ، وثمة وعى اجتماعى محموم أخذ يضطرم رويدا رويدا فى كافة أنحاء روسيا : وعى شعب مستعبد وشعوره بالمرارة والقنوط .

وخلال جميع السنين التى قضاها شليمان بسنت بطرسبرج ، لم يبد أية علامة على شعوره بالسم القاتل الذى يملأ الجو ، وكان يوحى إلى نفسه دائما أنه يعيش فى أفضل عالم مستطاع ، فسنت بطرسبرج كانت فى نظره مدينة مدعمة طيبة ، صالحة لكل عمل كبير ، وأكثر أمنا من معظم المدن ، وكان يتحدث عن « المنازل النظيفة الجميلة ، والطرق البديعة والمناخ البهيج » ؛ فى خطاباته « الإمبراطور نقولا الحكيم الأفخم » ، ولم يكن لينساق مع الأوهام فيما يتعلق برجال الأعمال الروس ، فهم ، كغيرهم من رجال الأعمال فى كل مكان ، نهمون لا يسهل التعامل معهم ، ولكنه ، فى القليل كان له ما يميزه عليهم ، فهو أكثر دراية بحرفته منهم ، وباعتباره الممثل الرئيسى لشرودر كان فى مركز يجعل صوته مسموعا ، وكان لا يقر له قرار قط ، لفرط قلقه ونشاطه وطموحه ، فبعد سبعة أيام من وصوله إلى سنت بطرسبرج رحل فى زلاجة إلى موسكو ، لإنشاء علاقات مع مؤسسات كان يراسلها من قبل ، وكان منطلقا لطيف المعشر وهو فى صحبة كبار التجار ، وسرعان ما ارتبط بهم بأوثق الوشائج .

ومنذ اللحظة التى وصل فيها إلى سنت بطرسبرج ، قام بدور تاجر دولى فى نجاح ملأ الخافقين ، فمثل مصالح شرودر بجانب مصالح ست أو سبع مؤسسات أخرى ، وبعمولة قدرها نصف فى المائة ، وهى ما سمح لنفسه بتناولها فى تلك السنين الأولى ، حصل على ٧٥٠٠ جلدن فى عامه الأول ، ومعنى هذا أنه أنجز أعمالا بمبلغ مليون وخمسمائة ألف جلدن ، وهو مبلغ لم يكن ليحلم به قبل ذلك بعامين أو ثلاثة أعوام ، وقد حقق نجاحه باهتمامه البالغ بكل صغيرة وكبيرة ، وبعكوفه على عمله من الصباح الباكر حتى هزيع متأخر من الليل ، وبملاحقته لكل ما من شأنه أن يحقق له ربحا مهما كان ضئيلا .

www.ibtesama.com/vb

وقام بأربع رحلات متفرقة إلى موسكو فى ذلك العام ، ولم يحل شهر أكتوبر حتى كانت الأمور تسير على أحسن حال حتى سمح لنفسه برحلة ، تجمع بين العمل واللهو ، إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، معرجا لبضع ساعات على أمستردام ، كى يجدد علاقته بهنريش شرودر ، الذى كان يغمره إحساس طاغ بالعرفان لجميله ، وكان ازدهار الصناعة الشديد أعظم الأشياء التى استهوته ، فهناك القاطرات والقناطر والمبرقة ، وأوربا مندفعة بأسرها إلى عصر التصنيع الجديد ، وروسيا متخلفة حتى لقد بدا لشليمان أنه الرسول المختار الذى سينقل فوائد التصنيع إلى وطنه الجديد ، وبالتدريج أخذ يعتبر نفسه روسيا ، فكان إذا تحدث عن القيصر قال : « قيصرنا » ، وإذا تحدث عن روسيا قال : « وطنى » ، وبينما هو يستمتع بثرائه ، كان يمارس عاداته القديمة فى الاقتصاد ، ولهذا كان يحدث فى كل سفراته أن ينزل بأفخم الفنادق ، ولكنه يختار أقل الحجرات نفقة وعادة بالدور الأعلى ، وكانت تستبد به نزعة للإقامة بالأسطح ولعل هذا راجع إلى تلك الأيام بأمستردام حين تعلم سبع لغات خلال عامين بحجرات الأسطح فى الفنادق الرخيصة .

وكان يحب لندن على الرغم من معرفته لبرد يوم الأحد الكئيب ، وهناك يجوب أنحاء المتحف البريطانى ، ويعنى بتدوين قوائم بالفراعنة فى نواويسهم ، وبأوانى الزينة اليونانية والرومانية ، وقد ابتهج بالقطار الذى حمله إلى مانشستر ، إذ كان أكثر سرعة من أى قطار آخر فى أوربا ، وكانت مانشستر فى ذلك العهد أعظم مركز صناعى فى العالم ، كمصنع ضخم طنان ، تضيئه نيران فحم الكوك بأفران الصهر ، ووهج المداخن العديدة ، وهناك شاهد القاطرات العملاقة تبنى لتصديرها إلى ألمانيا ، ورأى الحديد يقطع « بسهولة كأنه الورق » ، وكل شىء هناك شرح صدره ، فالسفن التجارية ، وأحواض صناعتها ، ومسابك الحديد ، والمبرقة التى تستطيع أن تبعث برسالة من جنوبى انجلترا إلى أقصى طرف باسكتلندا ، كل هذا كان عجيبا إلى حد لا يصدقه عقل ، وقد دبره الخالق سبحانه فى أروع صورة لازدهار التجارة ، وما من أحد قدّر الثورة الصناعية بعين غير مؤرقة كهذه .

www.ibtesama.com/vb

وعاد إلى سنت بطرسبرج عن طريق لاهاڤر وباريس وبروكسل وكولونيا ودسلدورف وهامبورج وبرلين دون التوقف فى مكلنبرج ، وثمة أسباب قوية كانت تجعله يتحاشى الأماكن التى قضى فيها طفولته ، ففى وقت ما خلال ذلك العام كان قد كتب إلى هر لاو بنيو ستريلتز طالبا يد مينا مينكى ، فأخطره أنها تزوجت مزارعا محليا ، وأن الزواج لم يتم إلا قبيل وصول خطابه بأسابيع قليلة ، فكادت الصدمة أن تقضى عليه ، وكانت قد مرت ست عشرة سنة منذ أن رآها لأول مرة ، وكان يقول لنفسه إنه خلال هذه السنوات الست عشرة كان يعيش لأجلها ولأجلها فقط ، وماذا يعنيه الآن أنه آخذ فى جمع ثروة وسلطة وجاه فى ريث وتؤدة ما دام لم تعد هناك من سوف تشاركه فيها ؟ فغمرته كآبة وأحس مرارة واستمرأ أساه ، موحيا إلى نفسه أن ثمة لعنة تلاحقه ، ولكن سيأتى وقت ، وقد دانت له ثروة ضخمة ، يتزوج فيه أى حسناء روسية يرغبها ، فكل الأشياء حتى الزيجة السعيدة كانت مستطاعة لصاحب الثروة .

وفى مستهل عام ١٨٤٧ ، بعد عودته إلى سنت بطرسبرج بقليل ، قيد اسمه كتاجر من الرعيل الأول بنقابة حرفته ، ومعنى هذا أن مركزه تدعم ، فيستطيع الحصول على ضمان أصحاب المصارف ، كما أصبح على قدم المساواة مع كبار التجار الملحوظين ، وكان يتردد على اجتماعات النقابة الشهرية ، ويلقى خطابات بالروسية الصحيحة ، وكانوا يرحبون به فى نادى النقابة ، وكان يجلس إلى موائد أكثر أهل البلاد ثراء ، فبطرس الكسيف « الذى يساوى مائة مليون روبل وله إلى جانب هذا ثروة خاصة قدرها اثنا عشر مليونا » كان يحييه ويتودد إليه فى النادى وقد دعاه إلى منزله ، ومال إليه بونوماريف تاجر الخشب والسكر الشهير وصرح بأنه على استعداد لتقديم مائة ألف روبل فضى لحساب أى عمل تجارى يشاركه فيه ، ثم هناك صديق « زيڤاجو الذى يساوى بضعة ملايين » — الرجل الذى قابله بالصدفة فى مزاد البيع بأمستردام ، والذى تقع على عاتقه معظم مسئولية رحلته إلى روسيا — ويعيش فى قصر بموسكو ، حيث يستضيفه

www.ibtesama.com/vb

كلما زار المدينة ، ولم ينجب زيفاجو نسلا ، ولكن ابنة أخيه إكاترينا « ملك فى الفضيلة والحسن » كانت مقيمة معه ، وكانت فى السادسة عشر من عمرها ، كاملة الفتنة ، ويبدو أن زيفاجو نفسه كان راغبا فى زواجهما ، فقد دعا شليمان ليقضى بمنزله فى موسكو أربعة أو خمسة شهور ، وكان واضحا أنه يرمى بذلك للحصول على شريك وصهر بالزواج ، وكان شليمان متهيبا تدبيرات موسكو هذه .

ولقد أحب إكاترينا ولكنه لم يكن واثقا من نفسه ، فكتب إلى شقيقته بمكانبرج يطلب إليها القدوم إلى روسيا — ستمكث بضعة أسابيع بسنت بطرسبرج ، ثم تصحبه إلى موسكو ، حيث تلاحظ سلوك إكاترينا الجميلة — والنتيجة أن شليمان كان يريد تقريرا غير عاطفى عن إكاترينا ، شبيها بتلك التقارير التى اعتاد أن يتسلمها من وكلائه فى الخارج : ما شكلها بالضبط ؟ كيف تسلك حين تنفرد بنفسها ؟ أهى نارية الطبع متقلبة الأهواء ؟ أتعرف فن الطهو ؟ وكتب إلى أخته قائلا : « أنا واثق أنه ليس هناك افتقار للعرائس ، فالصعوبة هى فى اختيار واحدة من بين مائة عروس معروضة ، وستساعدينى فى الاختيار ، فأنا بالذات غير بصير إذ تحجب عاطفتى الرؤية أمامى ؛ إنى لا أرى سوى حسنات النساء دون سوءاتهن ؛ كذلك عندى حمام كبير ومن ثمة تستطيعين الاستحمام بالمنزل » .

ولم يوضح هذا الخطاب سوى أن شليمان كان عاجزا عن الاعتماد على حكمه الشخصى فيما يتعلق بشئون القلب ، ولم تسفر دعوة شقيقته عن أى شىء ، وعلم فى الوقت المناسب أنه لايستطيع أحد مساعدته ، وأنه لن يستطيع أن يحظى بزوجة فاتنة مثل مينا إلا بمعجزة من السماء ، ومن ثمة راعى هذه الظروف فراح يقوم بجولات بين بنات الأسر العريقة ورجال الأعمال الأثرياء ، وكان يعود من كل جولة بخفى حنين أو بصفقة المغبون ؛ وكان دمويا ، شديد الغيرة ، متشبثا برأيه ، ولاعتياده أن تنفذ أوامره فوراً ، وجد فى شطر مبكر من حياته العملية ، أن القوانين التى تدير العمل لا تصلح فى خدور النساء ، وكان فى حضرتهن يزداد فشلا وخذلانا ، ولم يكن هذا عائدا إلى افتقاره للمحاسن الاجتماعية ،

www.ibtesama.com/vb

إنما لعدم استطاعته أن يثق بنفسه ، ولعدم إدراكه بدقة لما يريد ، ولرغبته الملحة فى الزواج بوريثة ثرية ولـكن دون أن يستطيع العثور على من تماثل مينا من حيث الجمال والبساطة والرشاقة .

وبينما كانت مينا مستولية على لبه ، كان البحث عن الثروة مهيمنا على حياته ، وكان قد افتتح لنفسه إدارة خاصة بأعماله التجارية ، مع استمرار علاقاته بشرودر ، وقد تعامل فى كافة أنواع السلع ، واقتحم أشد ضروب المغامرات ، ولـكنه لم يعط قط ضمانا « إلا لتجار من الطراز الأول » وأوضح لشرودر أنه قد جد فى خدمته إلى أقصى حد وهو الآن فى مركز يخوله أن يطالب بأكثر من النصف فى المائة الزهيد الذى كان يمنحه إياه حين كان مغمورا ، أما الآن فالجميع يعرفونه ؛ ألم يعد معتبرا كرجل ذى مواهب خلابة ، وله تجارة ممتدة إلى كافة أنحاء العالم ، ومن ثمة سمح له شرودر أن يحصل على نسبة مئوية قدرها واحد فى المائة من قيمة المبيعات التى تتم عن طريقه ، ومنذ تلك اللحظة عرف شليمان أنه لن تمر سوى سنين قلائل حتى يكون قد حاز ثروة طائلة .

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى نهاية عام ١٨٤٨ ، حين قام لخامس مرة برحلة الزلاجة إلى موسكو ، ليقضى عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة مع أسرة زيفاجو ، فاستمتع بالزيارة ولـكنه عانى كثيرا من البرد فى عودته مجتازا الجليد حين هبت عاصفة فأصابته البرُداء ، فظن أنه يحتضر ، ومكث بالفراش أربعة شهور ، وما كاد يسترد عافيته حتى انـكب على عمله دون هوادة أو رفق ، وما كاد يحل شهر يونيو حتى كان فى حالة انهيار تام ، فاحتجزه الأطباء بحجرة مظلمة ورفضوا أن يسمحوا له باستئناف عمله ، فثار على الأطباء ولـكنه أقر عدالة اتهاماتهم ، وكان يتكشف أنه كى يكوّن الإنسان ثروة ما لابد أن يعيش على أعصابه ، فى حالة دائمة من الحمى النشاطية ، فى منظر طبيعى ، حيث الهناءة الوحيدة منبعثة من التطلع إلى الذهب الذى كان يلوح دائما له عن كثب .

www.ibtesama.com/vb

وحين سقط كان قد استوعب درسه ، فقلل من لهفته فى العمل ، وزاد من علاقاته الاجتماعية ، فأقام الولائم الساهرة ، وقدم فيها أفخر الخمور ، وأحاط نفسه بالتجار وبناتهم المختارات ، وتبددت جميع أفكاره فى إكاترينا حين وقع صريع هوى فتاة تدعى صوفيا ، التى لم تكن تملك شروى نقير ولكنها كانت مقتصدة وتتكلم ثلاث لغات بطلاقة ، وقد أحبها فى جنون ، فكتب إلى والده ينبئه أنه قد عثر على فتاة أحلامه ، ولكنه شفع هذا بخطاب ثان ذكر فيه أنه اصطحبها إلى مأدبة حيث أبدت اهتماما لا يغتفر بضابط شاب ، وحين رأى « صوفيا الغبية الرعناء » تسلك بهذه الصورة المزرية ، فسخ الخطوبة ، وعلى العموم فقد سره إفلاته منها ، وسينتهز الفرصة لإنشاء علاقة عاطفية بإكاترينا الفاتنة ، فأسرة زيڤاجو كانت تطلب إنيه دائما زيارتها فى موسكو ، وهكذا فى فبراير عام ١٨٥٠ رحل بالزلاجة ثانية إلى موسكو ، وأقام كعادته مع أسرة زيڤاجو ، وما من أحد يعرف بالضبط ماذا حدث ، ففى ظرف شهر كان يضرب فى أحشاء أوربا بسرعة خارقة ، مغرقا نفسه فى العمل ، غير مستقر فى مكان واحد لأكثر من أيام قليلة ، وكانت خطاباته تعج بنصائح العمل السليمة ، دون أن يشير إلى إكاترينا فى أى منها بكلمة واحدة .

وكرجل يطارده البوليس كان يتسلل من فندق لآخر ، ولعله فكر فى الإقامة بشمالى انجلترا ، إذ قضى معظم الوقت هناك ، فزار أدنبره وجلاسجو ولڤربول وبانجور وشستر ولندن ، وكان يلاحظ كل شىء يراه ويدون مذكراته كل مساء ، وظل نجاح انجلترا الصناعى مبعث دهشته ، وفى نهاية أسابيع قليلة عاد إلى سنت بطرسبرج وجيوبه متخمة بعقود العمل ، ولكن من غير المحتمل أنه قام بهذه الرحلات الفجائية للعمل فحسب ، فمعظم رحلاته الطويلة فى تلك السنين المبكرة يبدو أنها كانت تقع فورا عقب حب فاشل ، فهذه الأسفار الشاقة العجلى إلى الخارج كانت فى الواقع بديلا للممارسة الجنسية التى أعوزته ، وثمة لحظات أبغض فيها سنت بطرسبرج وفكر فى الإقامة بمزرعة فى مكلنبرج مع فتاة ريفية فقيرة يتخذها عروسا له .

www.ibtesama.com/vb

ولكن سنت بطرسبرج استدعته ، وهناك ، فى القليل ، أقام أسس ثرائه ، وأنبأ نفسه أنه سيحاول ، لبضعة شهور قليلة ، أن يعيش بتلك المدينة الشمالية الباردة ، فاستقر قراره وراح يزاول عمله ، وتردد على الحفلات ، وفى صيف عام ١٨٥٠ تعرف إلى فتاة تدعى إكاترينا ليشين ، وهى حسناء فارعة العود لها جمال التماثيل ، وكانت ابنة لشقيق أحد أصدقائه من رجال الأعمال الآخرين ، وكانت ذات وجه بيضاوى شاحب ، وعيون سوداء ، ولها مسلك الأميرات ، فأعجب شليمان بها ، وناقش احتمال تقدمه لزواجها ، وإذ كانت شديدة التعالى فى مسلكها ، وليس لها ثروة خاصة ، فقد أخذ حذره منها قليلا ، وهكذا انقضى الصيف ، وحل الخريف ، وازدهرت الأعمال ، ولم يكن قد عرف بعد ما هو مزمع أن يصنعه بحياته أو بثروته القليلة التى كونها من صبغة النيلة إلى حد كبير .

وقلما كان يعرض نفسه للخطر ، وقد شاهد العالم فى ألوان قاتمة — الثراء والفقر ، الطعام الموفور والموت جوعا ، المعيشة بإحدى العواصم المتألقة أو الضياع المغمورة — وبينما كان يقف إلى مكتبه بسنت بطرسبرج ، ويبعث برسائل مستعجلة إلى وكلائه بكافة أنحاء أوربا ، كان يوشك دائما على الإعياء العصبى ، وأحيانا كان يجول بخاطره أنه لابد أن هناك وسائل أكثر سهولة للحصول على الثروة .

وفى أوائل عام ١٨٥٠ وصل إليه نبأ بأن شقيقه الأصغر لودڤيج وصل إلى حقول الذهب بكاليفورنيا ، وكان لودڤيج قد اشتغل من قبل كوكيل لهنريش بأمستردام ، وهو يعوزه قبس عبقرية شقيقه ، ولكنه كان حاصلا على قدر مماثل له من المزاج ، فلودڤيج كان صلب المراس ، عصبيا ، موهوبا فى اللغات — كان يراسل شقيقه بالإنجليزية والفرنسية والأسبانية — بجانب نزعته الصارمة لتكوين الثروة ، وساورته يوما ما فكرة افتتاح حانوت ، وطلب إلى هنريش أن يقرضه رأس مال مناسب ، وحينما عرض هنريش إقراضه خمسمائة تالر رفضها فى حنق — كان يظن أن شقيقه أقل شحا — وفى مناسبة أخرى كتب إليه أنه ينوى الانتحار

www.ibtesama.com/vb

مالم يشركه هنريش فى عمله بسنت بطر سبرج ، ووقع الخطاب بدمه ، وأخيراً رد عليه هنريش ، مبينا أنه لم يكن من الهين إشراك أحد فى شئون بطر سبرج المعقدة ، وأنه لاينوى أن يعول لودفيج خلال أعوام تمرينه الطويلة ، فهو سيقضى أربع سنوات ليتعلم الروسية بالقدر الذى يستطيع معه أن يستخدمها كما يلزم ، وليس هناك ما يضمن على الإطلاق توفر صفات رجل الأعمال فيه ، وأنه بصفة خاصة يعوزه الطموح النزاع الذى لا غنى عنه ، واستطرد هنريش يقول فى رده : « كان علىّ أن أ كافح وأشق طريقى بنفسى ثلاثة عشر عاما ، دون أن أطلب بنسامن أحد » وكان جليا أنه ينبغى أن يحذو لودفيج حذوه .

وفى يوم ما بروتردام ، وإذ كان لودفيج يسير حذاء شاطىء قناة ، وقد استبد بنفسه القنوط والغضب معا ، عزم دون تروٍ على الإبحار إلى أمريكا ، وحين وصل إلى نيويورك اشتغل مدرسا للغة الفرنسية ، وبعد ذلك اشتغل بالتجارة ، وحين اقتصد ما يكفى من المال ، نزح إلى حقول الذهب بكاليفورنيا ، حيث اشتغل صيرفيا ، فازدهرت أعماله حتى كوّن بعد قليل ثروة صغيرة ؛ وفى أسلوب مغيظ لشقيق أصغر عاش دائما تحجبه ظلال أخيه الأكبر ، حرر خطابا جارحا طويلا ، يوضح فيه حسنات كاليفورنيا التى تميزها عن أى مكان آخر على الأرض ، ويوعز إلى هنريش أنه سيحسن صنعا لو أنه باع كل شىء وحضر إلى سكرامنتو .

ولابد أنه كان للخطاب على نفس هنريش وخز السيف أو أشد ، فلم يستطع أن يغفل تعريضات الأخ الأصغر وتحديه وتعاليه المستتر ، الذى جاء فى سياق حديثه تكوين ثروة ضخمة فى شهور قليلة ، وعرف هنريش أن مثل هذه الثرواث قد حصل عليها قوم لايملكون عشر قدرته على تقديسه للنظام وتكريس نفسه للثروة — اتضح أن لودفيج جمع فى بضعة أسابيع أكثر مما جمعه هنريش طوال حياته كرجل أعمال — وآخر شطحة تناهت فى إيلامها : لقد وعد ألا يشرك فى رعايته الحالية لشقيقاته أحدا ، وأمل أن يبعث إلى هنريش « حوالة بمبلغ ضخم » فى الخريف .

www.ibtesama.com/vb

ولم تصل الحوالة قط ، وبدلا منها وصلت قصاصة من إحدى صحف سكرامنتو تذكر « أنه فى اليوم الخامس والعشرين من مايو عام ١٨٥٠ مات بالتيفوس فى مدينة سكرامنتو مستر لويس شليمان ، فى سن الخامسة والعشرين ، وهو ألمانى الجنسية ، وقدم حديثا من نيويورك » ، ووصل النبأ إلى هنريش فى منتصف أغسطس ، وتسلم مع القصاصة خطابا قصيرا لم يذكر أكثر من أن لودفيج قد خلف ضيعة كبيرة .

وظل هنريش بقية العام يشرف على أعماله ، غير واثق مما هو مطالب به ، وكان يجثم على صدره فزع شديد من الموت ، وقد هزه موت شقيقه هزاً عنيفا ، وكى يخفف وقع الحزن على شقيقاته كتب إليهن خطابا غريبا ذكر فيه أنه رأى أخاه فى حلم وقد فارق الحياة ، واستطرد يقول « أنا ، الذى لم أبك منذ عشرين عاما ، ولم تهزنى قط مثل هذه الشئون ، رأيت نفسى أبكى ثلاثة أيام دون انقطاع ، وكل هذا كان مبعثه حلم » وبعدذلك بأيام قليلة كتب أن لودفيج قدمات فى سكرامنتو مخلفا ثروة كبيرة .

وفى نهاية العام كان قدوصل إلى قرار ، فبدافع من الشعور بالواجب الأخوى ، سيذهب إلى حقول الذهب ليجمع ثروة ، مقتفيا آثار شقيقه ، وهو سيبدأ العمل بالمال الذى خلفه شقيقه ، ويثرى هناك أسرع كثيراً من سنت بطرسبرج ، وسيقيم نصبا لائقا بقبر أخيه ، ويبقى فى أمريكا بقية حياته ، ولم يكن ثمة ما يقيده ، فما من ارتباطات وشيكة بسنت بطرسبرج تحجزه هناك ، على الرغم من أنه كان لا يزال معجبا بإكاترينا ليشين ، وأنه جال بخاطره أحيانا أنه قديعود إلى روسيا ويتزوجها ، ولكن فقط إذا ما جمع ثروة تخلب لبها ، ولم تطل إقامته كثيراً بمكان واحد طوال حياته ، وقد كان يظن أن باستطاعته أن يثبت أقدامه بسنت بطرسبرج ، ولكنه كان مخطئاً ، فعزم على أن يبدأ حياته ثانية ، ومن ثمة راح يضرب فى آفاق الأرض مرة أخرى .

وفى العاشر من ديسمبر عام ١٨٥٠ أقام آخر مأدبة لصديقيه التاجرين ملين

www.ibtesama.com/vb

وليشين ، وودع سنت بطرسبرج ، وكان الجليد قد تجمد وهبت ريح ثلجية عبر ميدان القديس اسحق ، فرافقه إخوانه حتى مكتب البريد حيث كانت الزلاجات تبدأ رحلتها الطويلة إلى ألمانيا ، وحين مروره بقصر الشتاء الأبيض المتألق ، وديوان البحرية ، وتمثال بطرس الأكبر فوق جواده ، حياها جميعا كما لو كان لا يرقب رؤيتها مرة ثانية ، وفى تلك اللحظة لم يستطع أن يتكهن بالكوارث التى ستحدث له قبل أن يقف على كثب من قبر أخيه بالطرف الثانى من العالم .

وكما هى العادة ، كان يحتفظ بمدونة يومية ، وكثيرا جدا خلال أسفاره كانت المدونة تبدو كثبت زمنى مطول ، فحيث كان يمكث كان يلاحظ مواعيد القطارات ، ومقدار ما دفعه لحجرته بالدور السادس ، والمبالغ التى استبدلها فى المصرف ، وأسماء رجال الأعمال الذين نالوا إعجابه ، وإن المرء ليتساءل متحيرا عن المتعة التى كان يجدها فى تدوينه صفحات لاحصر لها بأسماء محطات السكك الحديدية التى مر بها ، فكتب فى اليوم الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٠ ما يلى : —

« فى الساعة السابعة صباحاً تناولنا وجبة الفطور فى البنج ، وفى الساعة الحادية عشرة مررنا بمـــارنبرج وفى الرابعة بعد الظهر ذهبنا إلى ديرشو على قنطرة طافية عظيمة فوق نهر الڤستيولا ، وفى الثامن عشر من ديسمبر وصلنا عند الظهر إلى ولدنبرج ، حيث تناولنا وجبة غذاء رديئة ، وفى الساعة الواحدة قمنا بالسكة الحديدية ، فوق ستاجرد إلى ستتن ، التى وصلنا إليها فى الساعة الخامسة والنصف مساء . وفى الساعة السادسة والنصف استأنفنا رحلتنا بالسكة الحديدية ، ووصلنا إلى برلين فى الساعة التاسعة والنصف مساء » .

* * *

ومن دواعى الغبطة أنه لا يكتب دائما على هذا النحو ، فقد تضمنت مدونة رحلته إلى أمريكا التى كتبها بالإنجليزية شطرا من أجود كتاباته ، ولم يكن

www.ibtesama.com/vb

فى النية نشرها أوأن يطالعها إنسان سواه ، ولـكنها كتبت بعناية ، وكانت روايته تتسم أحيانا بأمانة معذبة أصيلة ، تيسر لنا مشاركته فى ضروب خبرته ، فهو يستهل المدونة ، ولازال كما هو ، رجل الأعمال ذا الرغبة العارمة فى حيازة الثروة ، التى وعد نفسه بها ، وهو يعالج شئونه فى تباه ، فيعمل الشىء القويم فى الوقت المناسب ، مع شدة الثقة بنفسه ، وفى الوقت الذى تنتهى فيه المدونة ، تـكون خوافى الخبرة البشرية الفجة قـد هزته هزا عنيفا : فالزوبعة والضجيج والمرض وضعت أنفه فى الرغام ، لقد لاقى الأهوال وأصبح رجلا .

وما من أحد يقلب صفحات المدونة عائداً إلى مستهلها ، يستطيع أن يصدق أنه على وشك أن يطالع وثيقة إنسانية يمكن مقارنتها بصفحات « قلب الظلام » لـكنراد ، وحين وصل شليمان إلى أمستردام ، زار ب . هـ . شرودر وشركاءه ، وحصل على خطابات تقديم إلى الوكالات والمصارف فى أمريكا ، وسار على نهج رجال الأعمال المستقيمين ، وفى الثالث والعشرين من ديسمبر ، وكان يوم أحد ، وصل إلى لندن ، وأقام مع « مستر كيزار ، فندق رويال ، قنطرة بلاك فرايرز » وفى عشية عيد الميلاد ، خصم الحوالات المالية المسحوبة على لندن والتى كان قـد استحضرها معه من سنت بطرسبرج ، وباع ذهبه لمصرف انجلترا ، وبعد الظهر زار قصر البللور ، الذى أبهجه — هذا مثال واحد آخر على ما حققته انجلترا من تقدم فى التصنيع لايعتوره الشك — وحضر الخدمات الدينية يوم عيد الميلاد بوست منستر آبى ، ويبدو أنه قضاه وحيدا غير مبتهج ، فهو يسجل فى مدونته أنه شاهد فى اليوم السادس والعشرين من ديسمبر « ممثل المآسى الشهير مكريدى الذى قام بالتمثيل لآخر مرة قبل انسحابه من المسرح » ، وهذا تسجيل محير لأن مكريدى قضى أجازة عيد الميلاد بأكملها مع أسرته بشربورن ، ولم ينسحب من المسرح إلا بعد ذلك بشهرين ، فقد أقيم المهرجان ، بمسرح الأمير ، فى جو من الانفعال البالغ ، وكان د يكنز بلوار ـ ليتون بين الحاضرين ، فى اليوم السادس والعشرين من فبراير عام ١٨٥١ ، وفى اليوم التالى للحفل الموهوم استقل القطر

www.ibtesama.com/vb

إلى ليفربول ، وأقام كما اعتاد دائما بفندق ادلفى الضخم ، الذى لا بد أنه كان يذكره بفنادق ألمانيا المتينة البناء ، ثم أتم ترتيباته للسفر إلى نيويورك فدفع مبلغ خمسة وثلاثين جنيها أجرة السفر ، وراح يطوف حول ليفربول ثم ذهب للفراش ، وهو لا يعلم أنه سرعان ما ينجاب قناع رجل الأعمال رابط الجأش وهو القناع الذى كان يحب دائما أن يريه للعالم ـ ويتمزق شذر مذر .

وكان المركب البخارى « أتلانتيك » حمولة ثلاثة آلاف طن ، الذى أبحر عليه إلى نيويورك فى اليوم التالى ، من أسرع المراكب البخارية التى تشق عباب المحيطات فى ذلك العهد ، وهبت عليهم زوبعة بعد إقلاعهم من ميناء ليفربول بثمانية أيام ، فحطمت موجة هائلة عجلة القيادة بقوة تسببت فى كسر الصارى الرئيسى ، ووقعت السفينة تحت رحمة الأمواج ، فتعطلت الآلتان ، وهم فى منتصف المحيط الأطلسى ، على بعد ألف وثمانمائة ميل من ليفربول ، وألف وأربعمائة ميل من نيويورك ، ومع هبوب ريح غربية شديدة ، اعتزم الربان أن يتجه صوب الساحل الأمريكى ، ويبسط الشراع الرئيسى والذى يعلوه ، مؤملا أن تدفعه الريح عبر المحيط ، وجاء بمدونة شليمان أن « الأشرعة بدت كمناديل اليد » ولم يوافق أى مسافر على ما ارتآه الربان من أن يمخر عباب المحيط ضد مهب الريح ـــ مفضلين العودة إلى انجلترا ـــ وثارت مناقشات طويلة ، ألمعوا فى أثنائها للربان إلى أن السفينة قد تنقلب إذا استمر فى مقاومته للعاصفة ، وأنه من الأسلم أن يستدير مبحرا إلى أقرب ميناء ، وفى غمرة من الانفعالات ، تبدد دوار البحر بطريقة عجيبة ، ومن عجب أن شليمان وجد نفسه رابط الجأش ، بل وبه بعض الميل إلى التسرية عن نفسه بمسلك المركب البخارى ، ماخر المحيطات الشهيد ، الذى أبحر عائدا أدراجه بأشرعته التى يرثى لها .

وبعد ستة عشر يوما رست السفينة فى كونيز تاون ، وسرعان ما أخذ شليمان طريقه عائدا إلى ليفربول عن طريق دبلن ، حيث اتصل به أن فى أمستردام بعض أعمال هامة عليه أن يصرفها ، فخف إليها ولكنه عاد إلى ليفربول ثانية فى اليوم

www.ibtesama.com/vb

الأول من فبراير ، مستعدا للإبحار إلى نيويورك على المركب البخارى « إفريقيا » ، ولم يحدث خلال هذه الرحلة ما يعكر صفوها .

وقد أحب نيويورك — « وهى مدينة روعى النظام الدقيق فى تشييدها ، وهى جميلة ونظيفة ، وبها عدد كبير جداً من المبانى الرشيقة على الرغم من ضخامتها » — على الرغم من شعوره أنها لا تقارن بالعواصم الأوربية ، ولم يجد سوى القليل فى نساء نيويورك يستهوى لبه ، وجاء فى مدونته « أنهن فى سن الثانيه والعشرين يبدون ذابلات طاعنات فى السن كما يبدون جميلات متناسقات وهن فى سن السادسة عشر والثامنة عشر » ، وقد شكى من ميلهن إلى التظرف والتدلل ، كذلك أبغض الطرق الحديدية ، وقد علق بصرامة بعد رحلة إلى فيلادلفيا : « لقد مدت الطرق الحديدية الأمريكية لجمع المال فحسب ، دون أقل اعتبار لتهيئة وسائل الراحة للمسافرين » ، وبعد ذلك استغل مبالغ ضخمة فى الطرق الحديدية الأمريكية .

وفى واشنجتن زار الرئيس فلمور ، وقد كتب فى يومياته « لقد استفتحت بتقرير رغبتى الصارمة فى رؤية هذا الإقليم الغربى الجميل ، والتعرف إلى عظماء الرجال الذين يحكمونه » ، وعقب خروجه من حفلة ساهرة بالبيت الأبيض ، أقلع سراعا على ظهر سفينة إلى برزخ بنما ، الذى كان فى ذلك الحين أقدم طريق إلى الغرب الأقصى ، ولم يكن ثمة طريق حديدى إلى بنما ، وكان الباحثون عن الذهب يسافرون فى قوافل من البغال عبر البرزخ ، حيث كانت الحمى الصفراء متفشية ، واللصوص يغشون الغابات المحيطة ، وكان شليمان يسير وهو مسلح بمسدس وخنجر طويل ، وقد شاهد التماسيح بنهر شاجرس كما رأى فراشا فى حجم الحمام ، وكانت أول مرة يضع فيها قدمه بالأقطار الحارة وقد أدى للأهالى إعجابه النافر على النحو التالى : —

« إن برزخ بنما هو جنة عدن فسيحة ، حيث يبدو أن أخلاف آدم وحواء ،

www.ibtesama.com/vb

يحتفظون بطبائع أسلافهم البدائيين وعاداتهم ، لأنهم يسيرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، ويطعمون ثمار أشجار المناطق الحارة ، التى تتدلى قطوفها حواليهم فى وفرة وسخاء ، وأبرز صفاتهم كسلهم الفظيع ، الذى يصرفهم عن أن يشغلوا أنفسهم بأى شىء ، إنهم لا يسعدون حقا إلا إذا استلقوا فى أكواخهم أو راحوا يأكلون ويقصفون ؛ إنهم قوم تستبد بهم الأخيلة والأوهام .

* * *

وسواء استبدت بهم الأخيلة أو لم تستبد فقد كان يخشاهم ، لا لكسلهم فحسب ، فعظام الكثيرين من الباحثين عن الذهب ، الذين قتلهم هؤلاء الهنود ؛ كانت متناثرة فى درب البغال ، ولم يكن أسعد حال ، حين وصل إلى مدينة بنما ، واكتشف أن السكان الأسبانيين كانوا يعانون من الكسل نفسه ، وكانت لهم ، إلى جانب ذلك ، تلك الرذائل التى نسبها إلى فتيات نيويورك ، وكتب بأسلوب مختصر مفيد : « إن الصفات التى يتسم بها الأسبانى بهذه البلاد ، هى ميل شديد للصغار واللهو ، وكسل مفسد ، وخفة متحلله فى الطباع » ولم يجل بخاطره أنه فى مناخ المنطقة الحارة تصبح الأطماع الكبيرة أحيانا تحت رحمة الطقس .

ولكن على الرغم من نفوره من كل شىء فى بنما ، فمن عجب أنه كان مغتبطا ، فالسفرة أوشكت على ختامها ، وفكرة البحث عن الذهب بكليفورنيا وحيازته شرحت صدره ، وإذ كان مضطرا لانتظار السفينة بضعة أيام ، فقد راح يسلى نفسه بزيارة مدينة بنما القديمة ، التى دمرها مورجان وقراصنته ، والآن غطت الغابات نصف مساحتها ، وهذه أول مرة وجه فيها انتباهه إلى الأطلال منذ رحيله عن أنكر شاجن ، وعلى الرغم من أنه لم يبد أى انفعال خاص — إن أكثر ما حيّره هو الطريقة التى تغلغت بها جذور الأشجار خلال ثنايا الأسوار القديمة — فلا بد من اعتبار هذه الزيارة إلى المدينة القديمة أول تنقيب له فى علم العاديات ؛ وقد لاحظ أن الدليل كان غبيا ، وظهر أنه كان لا يعرف شيئا قط عن الأطلال ، وكانت الرحلة بأكملها مضيعة للوقت .

www.ibtesama.com/vb

وأقلع إلى كاليفورنيا فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٨٥١ ، على ظهر المركب البخارى « اوريجون » وأبغض كل لحظة من الرحلة ، وقد اشتكى مر الشكوى من الطعام ، فلا ثلج ، ولا لحم طازج ، واقتصر الأمر على لحم الخنزير المقدد ولحم البقر المعلب ؛ وكان يميل إلى أن يستحم بماء البحر ، ولكن خدم السفينة كانوا لا يتعاونون بطريقة غير مألوفة ، وبعد الإقلاع من بنما بأسبوع رست السفينة فى اكبولكو ، وقد استبدل بارتيابه الشديد بالأسبانيين ارتيابا أشد بأهالى المكسيك — كانوا جميعا منافقين ، جهلاء ، متغطرسين ، ولم تكن اكبولكو ذاتها سوى حشد من العشش « مثل قرية أفريقية » ، وكذلك لم يجد قط ما يدفعه إلى الثناء على ميناء سان ديجو ، الذى عزله كقرية صغيرة ، وفرادى من المنازل الخشبية حول خليج مكتظ بالأعشاب الصفراء ، وإذ كره الأرض ورفاقه المسافرين فقد عكف على قراءة علم الفلك ، وقضى ساعات طويلة من الليل يرعى فيها النجوم ، ولعله كان سيعجز من فرط الغضب لو لم يصلوا سراعا إلى الباب الذهبى ؛ وقد أبهجته سان فرنسيسكو ، ولكن وقته لم يتسع للبقاء فيها ، ولذلك فقد غادرها فورا إلى سكرامنتو ، للبحث عن قبر شقيقه .

وكانت سكرامنتو لاتزال فى بداءتها ، وإذ راح يطوف فى أنحاء هذه المدينة الخشبية الغريبة ، التى كانت تدين بوجودها لحقول الذهب المجاورة ، ساوره نفس الشعور الذى غمره بقوة عجيبة عندما زار سنت بطرسبرج للمرة الأولى ، فهنا ثروة ، لم يحلم بها أحد ، دانية القطوف للطالبين ، ولكنه لاحظ أيضا أن عدد القبور فى الساحة المعدة لها يربو على مجموع عدد سكان المدينة ، وقد عثر على قبر شقيقه ، ولم يكن فوقه شاهد ، ولذلك أعطى خمسين جنيها لمتعهد محلى لصنع « نصب جميل من الرخام للقبر » وسأل عن الثروة التى خلفها شقيقه ، فعلم أن شريك لودفيج فر بها ، وقام ببعض التحريات لمعرفة ما إذا كان فى استطاعة رجال الشرطة أن يقتفوا أثر الشريك ، فانتهى إلى أنه لا جدوى من محاولة مطاردته ، إذ اختفت الثروة وتبدد أثرها شعاعا .

www.ibtesama.com/vb

وحين وصل لودفيج إلى سكرامنتو فى يوليو عام ١٨٤٩ ، كانت المدينة بأكملها تتألف بالضبط من مبنى واحد ذى هيكل خشبى ، وعدد قليل من الأكواخ ، ونمت فى مدى سنتين حتى أصبحت مدينة يسكنها ١٦٠٠٠ نسمة ، مع احتمال استمرارها فى الامتداد بنفس السرعة ، وقد أحب شليمان المدينة ، فراح على غرار طريقته المعتادة ، يتفحص طاقاتها الكامنة ، بقيامه برحلات بالمناطق المحيطة بها ، فزار سترفيل ، وحقول ذهب نهر يوبا ، ومدينة نيفادا ، التى وصفها بأنها « مكان حقير بالغ القذارة وسط غابة من الصنوبر » وكان يبحث دائما عن أناس يشاركونه اهتمامه باللغات ، ولشد ماسره ، وهو فى رحلة إلى وادى سونوما ، مقابلته لأستاذ جامعى يدعى ريجر ، كان يتكلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والبرتغالية والهولندية ، وكان من دواعى غبطته أن يقضى نصف الليلة مع غريب يستطيع أن ينتقل من لغة إلى أخرى بنفس السهولة الميسرة له .

وعلى الرغم من أن سكرامنتو أبهجته وخلبت لبه ، فقد ظل مقلقل الرأى فيما يتعلق بمستقبله ، وقد أقرض مبالغ صغيرة على رهونات قصيرة الأجل ، ولكن فيما عدا ذلك لم يبد أية رغبة فى الاستقرار هناك ، وطالما فكر فى القيام برحلة طويلة إلى الشرق الأقصى ، وخطرت على باله ، خلال لحظات ضعف ، فكرة العودة إلى ألمانيا عن طريق المحيط ، مستقلا مركبا من سان فرنسسكو ، يزور به جميع موانى الصين والهند ومصر ، ثم يخترق إيطاليا بالقطار ، ولكن هذه اللحظات من الضعف انقشعت ، وحين تبددت غمرة الانفعال لوجوده فى بلاد غريبة ، شرع يفكر جديا مرة أخرى فى الثروة التى كانت بين يديه دانية القطوف ومن ثمة مر إبريل ومايو فى تحريات أولية ، وطلع عليه يونية مرة أخرى وهو فى سان فرنسسكو يعقد المؤتمرات مع السادة وكلاء روتشيلد وغيرهم من رجال الأعمال ، بينما راح يعد نفسه كشار للتبر من مراكزه الرئيسية فى حنايا وطرق سكرامنتو الأمامية .

www.ibtesama.com/vb

وكان مشتركا بهذه المؤتمرات فى اليوم الرابع من يونية عام ١٨٥١ ، وعاد إلى حجرته بالفندق بعد يوم مرهق حينما اندلعت اللهب بكل المدينة ، وذلك هو مساء حريق سان فرنسسكو الشهير ، وقد حاصرت النيران شليمان بفندقه أسفل المدينة ، وإذ أيقظته أجراس التحذير ، أسرع بارتداء ملابسه وراح يعدو فى الطريق ، وثمة زوبعة كانت تهب فتزيد من أوار النيران ، وظل بضع دقائق يشاهد المنازل من حوله تذوب فى اللهب ، ووجد نفسه معتليا تل المبرقة ، « لقد امتزج قصف العاصفة ، بقرقعة البارود ، وارتطام الأسوار الحجرية حين سقوطها ، وصراخ الناس ، والمنظر العجيب لمدينة هائلة تحترق فى ليلة ظلماء ، فأسفرت عن مأساة تناهت فى بشاعتها » هكذا دون فى اليوم التالى وألسنة اللهب لا زالت تندلع فتزيغ بصره ، وطارت إشاعة مفادها أن مشعلى الحرائق الأجانب هم المسئولون عن هذا الحريق ، ويسوق شليمان فى أسلوب عابر أن كثيرين من الأجانب وخاصة الفرنسيين قتلهم سكان سان فرنسسكو بتهمة إشعال النار ، ولشد ما أدهشه برود الأمريكيين ، الذين راحوا يعيدون بناء مدينتهم ، قبل أن يبرد رمادها أو ينطفىء لهيبها ، وقضى طوال الليل فوق تل المبرقة ، وفى الصباح رحل إلى سكرامنتو .

ولخوفه من النار ، استأجر مكتبا بالمبنى الحجرى الحديدى الوحيد الذى يقاوم النيران بسكرامنتو ، ولخوفه من السرقة اشترى خزانة ضخمة من الحديد ، وراح يعمل ، وهو منتصب أمامها ، من السادسة صباحا حتى العاشرة مساء ، مع مساعدين ، أحدهما أسبانى والآخر أمريكى ، فلا ينتهون من العمل إلا وهم فى حالة إعياء تام ، وانهالت العروض على كليفورنيا من جميع أنحاء العالم ، وهكذا وجد نفسه فى يوم واحد يتكلم اللغات الثمانية التى يعرفها ، وثمة بعض لغات لم يكن يعرفها ، منها لغة الكنكا التى يتخاطب بها سكان جزائر سندوتش الذين ظهروا فى سكرامنتو بطريقة غامضة ، وفى أوقات فراغه النادرة كان يتفقد هنود كليفورنيا ، وكانوا صغار الأبدان ، لهم لون النحاس الأحمر ، قذرين إلى أقصى حد ، ويعانون من مرض الزهرى ، ولقد قال عنهم « إنهم يعيشون كالنمل فى خرائب الأرض » .

www.ibtesama.com/vb

لقد حلم يوما ما بالثروة ، والآن دانت الثروة له فى أشهر قليلة ، وثمة أيام كان يتخلل يديه إبانها مازنته مائة وثمانون رطلا من الذهب ، وكانت ثروته تزداد كل أسبوع عما قبله ، حتى أوشك أن يخشاها ، وكان كمساعديه يتجول وهو مسلح بمسدس صغير ، وقد كتب فيما بعد أنه لم يشعر بخوف ما من الأوغاد الذين صادفهم خلال العمل ، إذ كان فى استطاعته دائما أن يقهرهم بذكائه ، ولكنه يبالغ فى توكيد ذاته ، ويكثر من تباهيه بحنكته ، وثمة أيام كان يبدو أنه يعيش خلالها فى فزع مميت من الذهب الذى كان يأتيه سهلا ميسرا ، وكان يذكر أحيانا أنه قد يموت متأثرا بحمى التيفوس ، مثل شقيقه ، وأن هذه الساعات الطويلة من العمل الشاق لن تسفر عن أى شىء .

وكان لديه من الأسباب ما يخيفه ، ذلك لأنه فى أكتوبر كان مستلقيا على ظهره ، يقىء ويهذى كالمجنون ، وقد غطت بدنه بقع صفراء ، بينما راح الطبيب يجرعه الكينين والكولوميل ، وهما العقاران المعتادان لمعالجة الحمى الصفراء ، وفى أثناء غيابه ، قام الكتبة بالعمل ، وراحوا يسرقون دون وازع من ضمير أو رقيب ، وعندما عاد إلى العمل ، ركبه الخوف من جديد ، وفى خطاب صريح إلى صديق بسان فرنسيسكو ، وصف التعاسة والشعور بالوحدة اللذين يلازمان حيازة الثروة فقال :

« لشد ما عانيت هنا خلال الأسبوع ، وما من عبد زنجى كان يكد ويشقى أكثر منى .

بيد أن هذا كله هين إذا قورن بخطر النوم فى الليل وحيدا ، مع أكداس هائلة من الذهب ، وإنى لأقضى الليل دائما فى رعب محموم ، حاملا بكل يد مسدسا محشوا ، وكانت نأمة فأر أو جرذ تطير لها نفسى شعاعا ، وما كان باستطاعتى أن أتناول الطعام سوى مرة واحدة ، وذلك حوالى الساعة السادسة والنصف مساء ، وكنت مضطرا أن أنسى تماما ما عدا ذلك من مطالب الطبيعة ، وفى كلمة واحدة كان الوقت عصيبا جدا » .

www.ibtesama.com/vb

وما كاد يتعافى من نوبة من الحمى حتى أصيب بها ثانية ، وفى يناير عام ١٨٥٢ ذهب للاستشفاء فى وادى سنتا كلارا ، رجلا سقيما ، سليب الهمة ، متخما بالهواجس ، ذلك لأن طبيبه أنبأه بأنه يماثل شقيقه فى تكوينه البدنى ، وأنه من المحتمل أن يلاقى حتفه على النحو الذى لاقاه ، ولكنه أدرك أنه صلب المراس وأنه يملك طاقة دافعة لحيازة ثروة قبل رحيله عن سكرامنتو ، ومن ثمة عاد إلى عمله فى مستهل شهر فبراير ، وراح من جديد يستيقظ فى الخامسة صباحا ، ويقف خلف نضده ، يزن التبر ، ويصدر الحوالات المصرفية ، ويخاطب الباحثين عن الذهب بثمانى لغات — رجل أعجف مبتسر ، حسن التصرف ، له صوت غريب يصك الأذن ، ويبدو فى إهاب الدارس الذى آلى على نفسه أن يحل مشكلة الثروة ويتحكم فيها لخدمة أغراضه ، على الرغم من عدم تأكده من هذه الأغراض ؛ ودعا نفسه أمريكيا ، فإذا تحدث قال « حقول ذهبنا » و « قبورنا » وأحيانا كانت تساوره فكرة الإقامة بأميركا بقية حياته ؛ وطالما وجد نفسه يحلم بضيعة فى ألمانيا ، على الرغم من علمه بأنه لم يكن على دراية بأصول الفلاحة ، لقد ألقى بروسيا وراء ظهره ، وراح يعيش ، وهو جالس فوق ذهبه المكدس ، حياة قنوط واستسلام ، غير منسجم مع نفسه ، وغير واثق إلا من أمر واحد ، وهو أن يكون ثروة أو يهلك فى سبيلها .

وفى نهاية شهر مارس كان قاب قوسين أو أدنى ، إذ دهمته الحمى ثانية ، ومرة أخرى غطت بدنه بقع صفراء ، وكان قد أعطى تعليمات للكتبة عنده — حالما يجدونه ، غير قادر على مواصلة عمله ، يدثرونه ويرسلونه فى مركب بخارى إلى سان فرنسسكو — وبعد ذلك بسبعة أيام ، وفى اليوم السابع من أبريل ، حسم الأمر ، وإذ تعافى من مرضه بمعجزة ، زار مصرف روتشيلد بسان فرنسسكو ، فرتب الأمر لنقل حساباته وتصفية أعماله ، بعد أن أحرز الثروة ، وآخرون أحرزوا ثروات أكبر من مناجم الذهب بكاليفورنيا ، ولكن قليلين هم الذين أحرزوها بمثل هذه السرعة أو بمثل هذا الخطر القليل ، ففى مدى تسعة شهور جمع أربعمائة ألف دولار ، ولم يذهله قط حسن طالعه المذهل ، فقد تراءى له أن هذا هو جزاؤه

www.ibtesama.com/vb

الحق ، حصله بكموفه المنكب على التفاصيل ، ونزعته الصارمة للعمل الشاق ، ولكنه سيتعلم خلال الأعوام القادمة أن الآلهة قد تعاقب أحيانا أولئك الذى اختصتهم بحظوة بالغة .

وقد أعجب بالأمريكيين ، ولكنه رأى فيهم غرابة الأطوار ، وملامة الطباع ، وانعدام فتنة نسائهم ، ومن ثمة فقد عقد العزم الآن على أن يقضى بقية حياته بين الروسيين ، الذين كان يحترم فضائلهم الاجتماعية ، والذين كانت تبدى نساؤهم الوقار الذى ينشده ، وستمكنه ثروته أن يعيش فى أبهة كبارون بموسكو أو سنت بطرسبرج ، فانتوى أن يعود إلى روسيا على هذا النمط ، وقد دفع ستمائة دولار أجرا لغرفة فخمة بالمركب البخارى الذى حمله من سان فرنسسكو إلى بنما ، وسيعبر البرزخ ، ويستقل سفينة إلى نيويورك ، ومنها يبحر إلى روسيا فى غبطة المتنعمين .

وجاء أول إنذار من الآلهة فى خليج تهونتبك ، بعد الإقلاع من سان فرنسسكو بسبعة أيام ، إذ حملت السفينة عاصفة هوجاء حتى أوشكت على الغرق ، وجاء الإنذار الثانى فى مدينة بنما ، حين وقعت محاولة لسرقة حقائبه ، — جلس فوقها وهو عابس ، وقد حمل مسدسا فى يد ، وخنجرا فى اليد الأخرى — وكانت سكة حديد بنما قد امتدت بضعة أميال قليلة ، بعدها كانت الرحلة عبر البرزخ تخترق درب البغال .

وكان قد اختار أسوأ فصول العام للقيام برحلته ، فلم ينقطع المطر ، وهجرهم الأدلاء ، وأعوزهم الطعام ، حتى اضطروا أن يعيشوا على زواحف العظايا الكبيرة يأكلونها دون طهو ، وهاجمتهم العقارب والأفاعى المجلجلة ، حتى باتت مفازة للجثام والفزع ، وعانى آلاما مبرحة من جرح متسمم فى ساقه ، ولم تكن هناك ضمادات أو عقاقير ، وظلوا أربعة عشر يوما يشقون طريقهم بكل عناء داخل الغاب ، وقد التصقت ثيابهم بجلودهم ، وهم فى رعب من هجمات الهنود ، ولاخرائط

www.ibtesama.com/vb

معهم ، وما من سبب يدفعهم إلى أن يؤملوا فى الوصول إلى كولون سالمين ؛ وكانوا يصطادون القرود ، ويسلخونها ، ويأكلون لحمها ، ويتشاجرون بعنف فيما بينهم ، ومات البعض بالدوسنطاريا ، والبعض الآخر بالحمى الصفراء ، فتركت جثثهم على جانبى الطريق تنهشها سباع الغاب ، وكان المطر لا يزال منهمراً ، مطر بارد قارس ، امتص قواهم ، وأرخى عليهم صورة الغرق ، يتخبطون فى أعماق البحر .

وأسوأ ما كان يعانيه شليمان ، أنه كان لا يثق بأحد قط ، ومن ثمة جافاه النوم ، فبخنجره ومسدسه كان يقف دائما على حراسة متاعه : قضبان الذهب ، حوالات روتشيلد ، كتب تزكيته إلى كبار التجار بكافة أنحاء أوربا ، وهو رجل قلما كتب عن عواطفه فى وضوح ، ولكن عاطفته تطل أحيانا من ثنايا ما يكتب ، وهذا ماحدث حين وصف العاصفة قرب تكسل ، وكذلك أيضاً ، فى فقرة قصيرة جاد بها ، حين وصفه لعذاب الرحلة عبر البرزخ .

« لقد أصبح الموت أمرا مألوفا بيننا حتى فقد شوكته ، وحتى لقد ابتدأ يستهوى ألبابنا ، ويجعلنا نتطلع إليه كمنجاة لنا من العناء ، ومن ثمة كنا نسخر ونسلى أنفسنا حين نرى تقلصات المحتضرين ، وكانت الجرائم تقترف بيننا ، جرائم بشعة منكرة ! حتى إننى الآن ، من فرط بشاعتها ، لا أكاد أتخيلها ، حتى يقشعر من هولها بدنى » .

* * *

ولم يفصح قط عن هذه الجرائم التى ارتكبت ، أو ما إذا كان هو الذى ارتكبها ؛ اغتصاب ، قتل ، أكل لحم بشرى — ليس ثمة ما يوضح الأمر — وفى الأعوام التى أعقبت ذلك ، كان كلما كتب عن حياته ، مر سراعا على هذه السنين التى قضاها فى أمريكا ، ولم يشر قط ثانية إلى رحلته عبر برزخ بنما ، وقد صنع كل ما فى استطاعته كى ينسى تلك الأربعة عشر يوما المرعبة ، وأصبح أشد قسوة وأكثر عنتا مع نفسه ومع الآخرين ، وكانت شقيقاته دائمات الشكوى

www.ibtesama.com/vb

من برودة ، ومن نزعة عدم الاكتراث التى كان يواجه بها العالم ، والآن أصبح أكثر برودا وجمودا وصرامة ، وأشد كلفا بالثراء ؛ وبطريقة عجيبة أصبح شيئا فشيئا ، كأبطال الإغريق الذين هجموا فى أعماق مخيلته ، فهم أيضا كانوا يسخرون ويتفكهون لرؤية تقلصات المحتضرين ، وطاردوا الثروة مثله بنهم، وجفاء همجى .

ومن ثمة أخذ طريقه عائدا إلى أوربا ، متوقفا فى نيويورك فترة تكفى فقط لتضميد جرحه ، كما توقف فى لندن كى يكوى الغنغرينا بنترات الفضة ، وبعد ذلك عاد إلى مكلنبرج لبضعة أسابيع ، مجددا علاقته بأصحابه القدماء ، ومتباهيا بثروته ومقدما هدايا ثمينة لعمه ووالدهو شقيقاته ، وكان قد هجر فكرة شراء ضيعة والإقامة بها ، فهو سيستقل بقصر ريفى، أو فى القليل بشقة فسيحة ، ويتزوج فتاة روسية من أسرة كريمة ، ولعله يرتفع يوما ما إلى مرتبة النبلاء ، وقد بلغ الثلاثين من عمره ، وكون ثروته ، ولم يعد يخشى أحدا ، وإذ هو عائد فى الزلاجة إلى سنت بطرسبرج ، حسب نفسه أسعد رجل فى العالم ؛ كان يكفى أن يرفع أصبعه ، وكل شىء تخيله فى أحلامه خلال أيام فقره المدقع بفيورستنبرج وأمستردام — كتب ، خمر ، نساء ، خدم ، منازل — كان يناله مضاعفا ، ولم يعرف ، ولا استطاع أن يتكهن ، أن ثروته ستظل سبعة عشر عاما طوالا كالعلقم والصاب فى فمه

www.ibtesama.com/vb

كبير التجار

كان فى ظاهره رجلا مستوعبا شئون العالم ، طرازا أصيلا لرجل الأعمال الناجح ، بنظارته ذات الإطار الذهبى ، ورداءه الطويل المطوق بفرو استراخان الأسود ، وكان يشذب شاربه على الطراز التترى ، ويحمل عصا من الأبنوس ، ويستقل عربته الخاصة ، وكان بيته الفسيح المطل على شارع من أحسن شوارع سنت بطرسبرج ، ويتكون من حجرتين للاستقبال ، وسبع حجرات للنوم ، وخمس حجرات أخرى ، ومطبخ ، واسطبل ، ومخزن للمئونة ، وحظيرة للعربة ، وكان بمخزن المئونة أفخر الخمور ، وبالاسطبل ثلاثة جياد مطهمة كثيرة الثمن ، وكان الأمراء والتجار يتلهفون للحصول على دعوة إلى منزل رجل الأعمال المغامر الذى كان الجميع يعتقدون أنه كون ثروة طائلة من مناجم الذهب بكاليفورنيا وكان يبدو فى إهاب المتسيطر ، وكان مثقفا ، حلو الشمائل ، وكان يصرف المال بلا حساب — ألم يصرف ألف روبل ليؤثث حجرة واحدة للضيوف ؟ — وكانوا يعتبرونه فى سنت بطرسبرج أوفر الرجال حظا ، وأكرم الرفاق صحبة ، وأحد الجديرين برئاسة الغرفة التجارية .

بيدأن الرجل ، الذى فى أعماقه، كان قليل الشبه جدا بالصورة التى يبديها للعالم ، فالنيران تضطرم فى داخله ، ونزعة الجنس تكاد أن تصيبه بالخبال ، وفوق كل هذا كان يريد زوجة وأطفالا ، فلم يقع اختياره ، من بين جميع نساء روسيا ، إلا على فتاة سليطة ، جامدة العواطف ، تزوجته لماله فحسب،وهجرت فراشه ، ولم تكف عن تقريعه ، ومضت فى حياتها كما لو كانت ترقب موته كى ترث ثروته ، فكان يشكو دون انقطاع ، فى خطاباته لوالده وشقيقاته ، فى نبرات تفعمها الحيرة والذهول مستبشعا زواجه بامرأة تحتقره .

ولعله لم يكن ثمة محيص من ذلك ، ولعله كان متخما بالثروة ، حتى ليصعب

www.ibtesama.com/vb

أن تتزوجه امرأة لمحاسنه الخاصة ، وكانت إكاترينا ليشين قد رفضت الزواج به وهو تاجر ثرى ، ولـكنها قبلته الآن بعد أن فاق ثراؤه أحلام أشد الناس جشعا ، فزارها فى اليوم الذى أعقب وصوله إلى سنت بطرسبرج ، واستمر فى زيارتها خلال الأسابيع التالية ، وكان يوحى إلى نفسه أنه يحبها وسيظل دائما يحبها ، فهى حائزة على كل الفضائل : طيبة ، لطيفة ، بسيطة ، يقظة ؛ وكانت توقر نفسها ، سـواء عند استقبالها للمترددين على منزلها ، أو فى الحفلات التى يقيمها التجار الأثرياء ، وقد هام بها ووعد ألا يدخر وسعا فى سبيل إسعادها ؛ وفى يوم زفافه ، الثانى عشر من أكتوبر عام ١٨٥٢ ، كتب إلى أسرته يقول : —

« أصبحت اليوم زوج إكاترينا ليشين السعيد ، وهى سيدة روسية ، ذات مواهب بدنية وعقلية عظيمة ، وزوجتى صبية موفورة الطيبة والبساطة والبراعة والـكياسة ، ويزداد حبى واحترامى لها مع طلوع كل يوم جديد ، ولاغتباطى الـكبير بزواجى ، استقر منى العزم على أن أجعل من سنت بطرسبرج موطنا لى بقية أيام حياتى . »

* * *

وما من أحد قط استهل زواجه بمثل هذه الآمال العريضة ، أو أسف لها بمثل هذه السرعة ، وبعد أسابيع قليلة كتب إلى شقيقاته أن زواجه كان خطأ وقع فيه ، وأنه على وشك أن يصاب بالجنون ، فقد كان يؤمل أن يجد عند زوجته دفئا وحرارة ، ولـكنها تلقته بالجفوة والبرود ، وقد كتب ما يلى : « هناك قوم فاترون ، تحتدم عواطفهم بلهيب هادئ يكاد ألا يحس ، أما أنا فغريزتى عارمة ، تتحول إلى نار آكلة ، حين تصدنى العقبات عن تحقيق ما أشتهى ؛ أنا أعلم أن الرغبة الجامحة ، والصبابة اليائسة قد تسوقان المرء إلى الجنون . . . . . »

وقد هزته الصدمة هزا عنيفا ، حتى حرر إلى أصدقائه سلسلة من الرسائل الخاصة ، يسألهم فيها النصح والمواساة ، فلم يواسه إلا الأقلون ، وقد حثه صديق

www.ibtesama.com/vb

من أمستردام على أن يذكر أنه حتى إذا كانت إكاترينا قد تزوجته دون حب ، فهى فى القليل قد ضحت نفسها فى سبيله بهذا الزواج ، ولعلها ليست سيئة برمتها ، أو لعل شحه أفزعها ، فإن سخا عليها بادلته عواطفه ، وكتبت إليه شقيقاته بنفس النغمة ، مبينات له ، دون أن يضمرن السوء ، أن برود المتزمت قد يكون هو السبب فى برود زوجته ، ولذلك فعليه أن يتعلم أن يكون إنسانى النزعة ، دافئ العاطفة ، وأن يمنح الآخرين من ذوب قلبه ، ولكن لم تكن هناك مدرسة يستطيع أن يتعلم فيها فن التعاطف الإنسانى ، ولذلك ألقى بكل جارحة من نفسه فى دنيا العمل ، فهو سيد فى هذه الدنيا ، يعرف تماما كيف يسلك ، وماذا يرتقب منه .

وكان مقامراً بطبيعته ، فحين عودته إلى روسيا ، وضع كل ثروته فى تجارة النيلة ، وتحكم فى سوقها ، وكان مركزه الرئيسى فى سنت بطرسبرج ، ولكنه أسس بعد زواجه بأسابيع قليلة مكتبا فرعيا فى موسكو ، وولى صديقه الكسى ماتفييف لإدارته ، واستمر يعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، وأحيانا أربع عشرة ساعة ، وكان لا يرى زوجته إلا لماما ، مفضلا أن يمكث فى مكتبه ، أو أن يطوف حول روسيا ، عن أن يواجه سخطها ، ولم يبد أى اهتمام بالفنون ، فالعمل كان أفيونه ، وكان يحذر نفسه بانتظام ، وإكراه ، ودون متعة سوى المتعة التى تغمره حين يرسل لوالده نسخا من « صحيفة الشحن البحرى » ، وكانت الصحيفة تذكر أسماء السفن القادمة والراحلة ، وأصحابها ومرسلى الودائع عليها ، مع احتمال تقديم قائمة طويلة بالسفينة المملوءة بصبغة النيلة ، والمقيد لحساب مؤسسة هنريش وشليمان وشركاه ، وقد ذكرت أمام اسمه ، بتقرير عام ١٨٥٣ ، ثلاث وثلاثون سفينة قادمة ، وثلاث سفن راحلة ، ولكن هذا ليس سوى جانب من القصة ، فآلاف من عربات الشحن كانت تفد إليه محملة ببضائعه من كونجسبرج وميمل ، وقد كتب إلى والده أن معاملاته النقدية وصلت إلى مليون روبل من الفضة فى الشهر الواحد ، وأنه لا نهاية لهذا — ثروة تكدست فوق ثروة ، وذهب فوق ذهب ، ولكنه لم يقترب من السعادة التى يصبو إليها — وكما ساورته الأحلام من قبل فى أن يختم حياته بضيعة فى مكلنبرج ، هكذا ترد الآن على

www.ibtesama.com/vb

خاطره فكرة العودة إلى أمريكا ، وشراء ضيعة هناك ، ولقد كتب إلى صديق له بأمريكا يقول : « أعتقد أننى سأجد متعة فى الحياة الريفية ، كما أنى أثق أننى سأجد ما يملأ فراغى ويشغلنى فى زراعة أرضى وتعهدها بالرعاية والنماء . »

بيد أنه كانت تعوزه غرائز الفلاح ، الذى يلقى البذار فى الأرض ، ويرقب الثمر فى صبر ، كان فى عجلة دائما ، يواصل العمل دون أن يلتقط أنفاسه ، ويسخط إذا مرت لحظات من النهار لا يجد فيها عملا ، وقد كتب إلى والده عن هذه الفترة خطابا صريحا فقال : « لا أستطيع اتباع نصيحتك الكريمة ، بالتقاعد عن العمل ، والخلود إلى حياة هادئة ، لقد اعتدت حياة العمل المتواصل الشاق ، فإذا أنا لجأت إلى البطالة ، مهما كانت الظروف مواتية ، انتهى بى الأمر إلى مستشفى المجاذيب . » ، وكان من الجنون قاب قوسين ، ويعلم ذلك فهو عبقرى فى الشئون المالية ، متوفز الأعصاب ، غريب القسمات نحيلها ، يطلق أحيانا صيحات غاضبة ، ويكتب إلى وكلائه ، فى كل بقاع الأرض ، فى أسلوب شيطانى مغيظ ، لعدم تنفيذ أوامره فوراً ، وقد لاحقه حلم بالفرار إلى أمريكا خلال السنوات الأولى من زواجه .

ولكن أن يحلم رجل بأمريكا ، بينما هو يعيش بروسيا ، فى منتصف القرن الماضى ، أمر يثير الشر ، وكانت أمريكا شبيهة بأسطورة الأطلانطيد ، مكانا تتوافر فيه الحرية التامة ، حيث لا يعانى الناس قط من أغلال الحكم البيروقراطى الذى يثير السخط ؛ وفى «الجريمة والعقاب » يسوق دستويفسكى (Destoevsky) قصة سفيدريجايلوف ، الذى كان يحلم دائما بالذهاب إلى أمريكا ، فنرى سفيدريجايلوف متسكعا ، يلفه ضباب سنت بطرسبرج الأصفر القذر ، فى يوم شتوى متخذاً طريقه فوق الأرصفة الخشبية المغطاة بالطين الزلق ، وعلى حين بغتة برز من وسط الضباب رجل ضئيل البدن ، غريب المنظر ، ملتف بمعطف عسكرى رمادى اللون ، وعلى رأسه خوذة نحاسية من طراز اخيليس ، وكان واضحاً أنه

www.ibtesama.com/vb

الحارس الخارجي لأحد الأبنية الرسمية الكبيرة ، يتطلع سفيدريجايلوف واخيليس كل منهما إلى الآخر شذرا .

يقول اخيليس Achilles : «ليس ثمة ما يستدعى وجودك هنا . »

يجيب سفيدريجايلوف : « حسنا ، عم صباحا — هذا صحيح . »

« إذن علل تصرفك » .

« إنى مزمع على الرحـــيل » .

« إلى أين ؟ » .

« إلى أمـــريكا »

« إلى أمريـــكا . . أه ؟ » .

يخرج سفيدريجايلوف مسدسه ، ويصوبه ، فيرفع اخيليس حاجبيه .

يقول اخيليس: «عليك ألا تفعل مثل هذه الأشياء هنا ؟ أية دعابة تسوقها ؟ »

« الأمر على ما يرام — »

« أؤكد لك أن الأمر ليس على ما يرام »

يقول سفيدريجايلوف : « أوه — لم يقع أى ضرر ، فهذا مكان صالح كغيره ، وإذا وجهوا إليك أى سؤال ، فأخبرهم أنى كنت ذاهبا إلى أمريكا . »

يلصق سفيدريجايلوف المسدس إلى صدغه الأيمن .

يعترض اخيليس قائلا : « إن الواجب يقتضيك ألا تفعل هذا ، فليس هنا المكان المناسب إطلاقا . »

بعد ذلك يجذب سفيدريجايلوف الزناد :

هذه هى قصة دستويفسكى التى كتبها بعد ذلك بسنوات قليلة ، وعلى الرغم

www.ibtesama.com/vb

من أن شليمان لم يبد أى اهتمام بالأدب الروسى ، أو بالفورات الغريبة فى جو روسيا الروحى ، فلم يكن خالصا من شوائب الطبع الروسى ، ولعله ازداد تشبثا بهذا الطبع لاعتقاده بأنه كان يحس ، كما يحس الروسيون ، حنينا جارفا نحو حرية أمريكا ، التى كان قد اختبرها بضعة شهور فى كليفورنيا ، وأصيب مثلهم بانتكاس مفاجىء من الحرية ، وباحتقار للطرائق الأمريكية ، تلك الأحلام عن أمريكا ، التى تأتى عرضا فى خطاباته ، تحمل بذور المأساة فيها .

وفى غضون ذلك قيده العمل لا يتحول عنه أو يريم ، فالقلق كاد يذهب بعقله ، وهو مبغض لزوجه ، مستاء من وكلائه ، فوجد الأمن فى عكوفه على سجلاته ، وكلما ازداد ثراء قل انتفاعا بثروته ، ولكن العمل كان الهواء الذى يستنشقه ، والنجم القطبى الذى يسير على هديه ، فكل ما يتطلع إليه بعين الاعتبار ، لابد له من ربح — وليس ثمة قانون آخر ، وفى فترات نادرة كان يسمح أن يسرى عن نفسه بتحرير خطابات إلى والده وشقيقاته ، مقدما إليهما حكما أخلاقية ، ومستحثا لهما على معيشة الوقار التام ، ولابد أن خطاباته كانت تجعلهم يصرون بأسنانهم حنقا ، ولكنهم كانوا دائما يزجون إليه الشكر على المبالغ الصغيرة التى كان يرسلها ، وأرسل إلى أبيه يقول :

« أرسلت ببريد اليوم تعليمات لإيداع مبلغ خمسمائة تالر لحسابك ، ولدى آمال كبار بأنك ستستخدم هذا المبلغ فى تدعيم نفسك بعنوانك الجديد فى دانزيج بالصورة اللائقة بوالد هنريش شليمان .

وبوضعى لهذا المبلغ تحت تصرفك ، يلزمنى أن أصر على مطالبتك بأن تحتفظ فى المستقبل بخادم محترم وخادمة مثله ، مع المحافظة على نظافة منزلك ، وتهيئة المستوى اللائق به ، وإنى لأتوقع أن يكون كل مالديك من أطباق وصحون وأقداح وسكاكين وشوك نظيفة لامعة ، ومن الواجب صقل خشب الأرضية ثلاث مرات كل أسبوع ، وأن يكون على مائدتك طعام يليق بشخص له مركزك فى الحياة .

www.ibtesama.com/vb

وكان مبلغ الخمسمائة تالر زهيدا حقيرا إذا قورن بأكداس المال الذى كان يكسبه فيثما أقبل أو أدبر كان الحظ يتبعه ، وقد سمع أن قيصر روسيا كان على وشك إصدار قانون تشريعى جديد ، فسرعان ما طرأت على ذهنه فكرة أن القانون سيطبع على ورق من صنف فاخر ، ويوزع فى آلاف النسخ ، ومن ثمة فقد خصص ركنا بأوسع الصحف انتشاراً وعرض بيعه للحكومة ، فقبل عرضه ، وفتح فروعا فى مائة ناحية مختلفة ، والمال ينهال عليه كل حين .

وأحيانا كانت تمر لحظات من التوتر ، ففى شتاء عام ١٨٤٥ كان عائدا إلى روسيا بعد حضوره مزادات بيع النيلة فى أمستردام ، وكانت حرب القرم قد نشبت ، فراحوا يحاصرون الموانى الروسية ، وأصبح لزاما أن كل البضائع المزمع إرسالها إلى بطرسبرج ، تشحن عن طريق كونجزبرج وميمل ، وبعد ذلك ترسل عن طريق البر ، وكان وكيله بأمستردام قد شحن إلى ميمل مئات من صناديق النيلة وكميات ضخمة من بضائع أخرى ، ووصل إلى كونجزبرج فى الثالث من أكتوبر ، وأقام كعادته بفندق قرب البوابة الخضراء ، وفى صباح اليوم التالى تطلع من النافذة ورأى ، كما سبق أن رأى مراراً ، الكلمات المدونة بحروف ذهبية كبيرة على البرج : —

يتغير وجه الحظ كما يتغير وجه القمر ،

يعظم ويتضاءل ولا يعرف كيف يظل ثابتا .

ولأمر ما انخلع قلبه من هذه الكلمات المنذرة بالويل والنحس ، وقبل ذلك بسنين كان قد ذكر لوالده هذه الكتابة العجيبة ، وأحيانا كان والده يستشهد بها معه ، ولكن الكلمات برزت أمامه هذه المرة بقوة عجيبة ، فوقر فى ذهنه أن أمراً بشعا قد حدث ، فخف إلى تلسيت ومنها إلى ميمل ، وعلم وهو بعربة المسافرين أن النيران قد دمرت خلال الليل ، مساحات هائلة من ميمل ، وعند وصوله كان الدخان مخيما فوق المدينة ، وأطلال المخازن لا تزال تضطرم ،

www.ibtesama.com/vb

وإذ هو موشك على الجنون لظنه أنه قد فقد مئات صناديق النيلة واعتقاده بأنه قد حل به الخراب ، راح يبحث عن وكيله ، فأشار هذا ببساطة إلى الخرائب المنبعث منها الدخان ، وهز كتفيه .

وكان شليمان يندعر بسهولة ، فكلما عانى من خسارة ، ظن أنه على شفا الإفلاس ، ويقول لنفسه إنه لا مناص من أن يشرع فى العمل ثانية من بدايته ، وفى حالته الذهنية المرتبكة راح يضع المشروعات ، فهو سيكتب إلى شرودر وشركاه ، ويطلب إليهم أن يضمنوه ، ويبيع منازله وضياعه ، ويعيش بما يسد الرمق ، ولقد فعل كل هذا من قبل وظفر ، وأنبأ نفسه بأنه قد فقد كل شىء ، وأنه سيعود فوراً إلى سنت بطرسبرج ، ويحاول تسوية شئونه ، وقضى ذلك اليوم كله وهو يرتعش فرقا من فرط تعاسته العصيبة ، وقد تعطل فى قلبه كل حس ، فلم يبق به سوى الشعور بخسارته .

وكان يئن شاكيا خسارته إلى جمهور الواقفين حول عربة المسافرين فى ذلك المساء ، وإذ كان على وشك أن يستأنف رحلته إلى سنت بطرسبرج ، هز شخص كتفه برفق ، وقدم الغريب نفسه على أنه رئيس كتبة مؤسسة ماير وشركاه ، وهم وكلاء شليمان فى ميمل ، وقال إنه لم يفقد شىء من الصناديق المعبأة بالنيلة ، وكانت المخازن ممتلئة حين رست السفن فى ميمل ، وقد أنشئت ، على عجل ، بعض مخازن خشبية على بعد منها ، وهذه المخازن لم تمسها اللهب ، فراح شليمان فى غمرة من الانفعال الشديد لحسن طالعه ، حتى ظل بضع دقائق لا ينبس ببنت شفة ، ومرة أخرى ، على نحو ما بدا له ، أنقذه القدر الإلهى ، وقد ادلهمت من حوله الخطوب ؛ كان هو الوحيد الذى نجا من الخراب الشامل ، ورأى الحق سبحانه يختصه بالرعاية ، فابتهج كطفل صغير .

ولم تعد هناك حاجة لأن يعجل بالذهاب إلى سنت بطرسبرج ، وبدلا من ذلك مكث فى ميمل ، وأشرف على بيع بضائعه بأرباح طائلة ، متداولا ماله مرة بعد مرة ، وعاقدا صفقات بشروط كانت تذهله أحيانا ، كانت فى يده لمسة الملك

www.ibtesama.com/vb

ميداس الذهبية ، ولم يكن ثمة من وازع يعصمه عن أن يلعب دور انتهازى الحرب — كان يبيع النيلة والأصباغ الأخرى ، ولكنه إلى جانب هذا ، كان يباشر تجارة أملاح البوتاسيوم ، والكبريت ، وفلز الرصاص ، لاستخدامها فى صناعة مسحوق البارود والرصاص ؛ لقد سبق أن جمع ثروة من حقول الذهب بكاليفورنيا ، وجمع أخرى من حرب القرم ، وفى عام ١٨٥٥ قدرت ثروته بمليون دولار .

وابتسم له الحظ فى نواح أخرى ، فلأول مرة نعم بصلات هنيئة فى منزله ، وقد جعلت ثروته المتزايدة الطائلة إ كاترينا أ كثر انقياداً وأشد وداداً ، وفى ذلك العام أنجبت له مولوداً دعاه سيرجى Sergey وقد احتوته غمرة من عرفان الجميل لزوجته ، استمرت بضعة أشهر عجلى ، فاشترى ضيعة قرب المقر الصيفى لقيصر روسيا فى بترهوف Peterhof وأهدى زوجته مجوهرات ، ووعدها بقضاء عطلة فى جنوب فرنسا ، وكان قد تعلم خلال فترات متفرقة عام ١٨٥٤ اللغتين البولندية والسويدية ، وعام العجائب هذا ، الذى يسر له ثروة ثانية ، ومنحه غلاماً سرياً ، كان سيكلل بهبة أخرى ، هبة اللغة اليونانية ، التى كثيراً ما تردد فى أن يتعلمها خشيته أن تستولى على لبه بسحرها .

ومنذ أن سمع الطحان المخمور وهو يتلو مائة بيت من أشعار هو ميروس بحانوت البقال فى فيورستنبرج ، نوى فى نفسه أن يتعلم اليونانية ، ولشد ماعانى من ضروب الشقاء حين اضطر أن يترك المعهد بنيو سترليتز ، حين أشرف على الالتحاق بفرقة اللغة اليونانية ، ومع مر السنين جمع مكتبة من المؤلفات المتعلقة بهوميروس وأبطال اليونان ، فى عدة لغات ، ولكنه تعمد أن يتجنب الكتب المدونة باللغة اليونانية ، خشية أن يهمل كل شىء عداها ، حتى يستطيع أن يتلو عن ظهر قلب أسفاراً برمتها من هوميروس ، والآن يستطيع أخيراً أن يتحمل تكاليف التصريح لنفسه بهذا الترف الكبير : ولكنه ، بصفة خاصة ، لم يسمح للغة اليونانية أن تقحم نفسها كثيراً فى عمله .

www.ibtesama.com/vb

وكان يشتغل بمحل عمله كالمعتاد ستة أيام أسبوعياً ، ويحبس نفسه بمكتبه يوم الأحد من كل أسبوع ، أحياناً بمفرده، وأحياناً مع مدرس، وبعد ستة أيام أحد من النشاط الذهنى الهائل ، تيسر له أن يكون جملا مركبة طويلة باللغة اليونانية القديمة ، وسرعان ما كتب أيضاً باللغة اليونانية الحديثة ، وتفجر الينبع ، فقد خلب لبه جمال هذه اللغة وصفاؤها ، التى فاقت فى روعتها ما كان يتوقعه ، وقد فاض ابتهاجه حتى أرسل إلى معلمه الأول بنيو سترليتز خطاباً وبرفقته مختصر لحياته كلها باللغة التى كان يتكلمها هوميروس ، مؤكداً أنه حتى فى أحلك لحظاته « كانت ترفعه الأشعار المقدسة السداسية الوزن ، وموسيقى سوفوكليس » وقد كتب يقول «لابد أن أذهب إلى بلاد اليونان وأعيش هناك ! إنى لأعجب كيف تستطيع لغة أن تكون أصيلة تليدة بهذا القدر ! لست أعرف ما يجول بخاطر الآخرين ، ولكن يبدو لى أن لليونان مستقبلا عظيما ، ولا يمكن أن ينأى اليوم الذى يرفرف فيه العلم الهلليني فوق سانكتا صوفيا ! والذى يدهشنى أكثر من أى شىء آخر ، هو أن اليونانيين ، بعد ثلاثة قرون من الحكم التركى ، لازالوا يحتفظون بلغتهم القومية دون أن تمس » .

وكالمعهد به دائما، تفاقمت حماسته ،فلم يقنع بمطالعة سوفوكليس فى لغته الأصلية، بل التزم بترجمة سوفوكليس إلى اليونانية الحديثة ، ولابد أن يطالع كل شىء كتبه أفلاطون ، وكل خطابة ألقاها ديموستنيس ، وملأ كراسة تلو كراسة بكلمات وجمل ومحادثات مع نفسه ، وأحاديث طويلة ، وفى المساء ، بفندق فى نيزنى نوفجورود ، جلس وراح يصف ، بلغة الأدب اليونانى القديم ، ماخلفه السوق الشهير على نفسه من أثر ، وبعد ذلك أخذ يسرى عن نفسه ، بكتابة ثبت بأغلاطه : فرقه، وتعلقه الملتاث بالمال ، قسوته التى كان هو أول من أدركها، رغبته الغريبة للفرار — إلى مكلنبرج ، إلى أمريكا ، وحتى إلى الأقطار الاستوائية، حيث يحتمل أن يصبح مثل المواطنين هناك ، الذين لا يهتمون بالمال ، مادامت ثمار الموز والبرتقال تنمو على أشجارها ، وكان يكتب أكثر خواطره حرمة وخفاء

www.ibtesama.com/vb

باللغة اليونانية ، فهى لغة ظل يعتقد إلى نهاية حياته ، أنها من فرط روعتها كانت تتخاطب بها الآلهة ، ولكن اللغة اليونانية ، بدلا من أن تهدىء روحه ، زادته حدة وانفعالا ، فعاش لأيام الأحد تلك ، وكذلك لتلك الأيام الأخرى ، التى كان يلجأ فيها ، كى يفر من زوجته ، إلى الطواف فى روسيا ، من سوق إلى آخر ، ومعه دائماً حقيبة سفر مليئة بالكتب اليونانية .

وهذه المذكرات ، المدونة فى خمس وثلاثين كراسة ، خلال عامين ، تضم بين دفتيها أكثر تعليقاته عن نفسه صراحة وإفصاحا ، فهنا يفسح رجل الأخلاق المتزمت المجال لمعلق من أتباع رابيلى الحكيم الفرنسى ، الذى لا يتورع عن أن يسمح لامرأة جميلة أن تستريح على ركبته ، حين ارتحاله بعربة المسافرين ، أو أن يتبادل قصص المغامرات مع غيره من رجال الأعمال ، بسوق نيزنى نوفجورود الصيفى العظيم ، الذى حضره عاماً بعد عام ، فى بطرسبرج كان الرجل صاحب الأملاك ، السليط اللسان ، ذا الصوت الحاد ، والنزوع الجارف لجمع الثروة ومضاعفتها ، أما فى نيزنى نوفجورود فكان يرق ويلين ، ويشرب الخمر حتى ينتشى ، ويمزح مع النساء ، ويسلك مثل جميع التجار الذين يذرعون السوق ويطوفون بكل أرجائه .

ومع مر الأيام أصبحت نظرته إلى العالم ذات مزاج يونانى ، فأصبح نصيراً متعصباً لمطالب اليونانيين فى القسطنطينية ، وهو موقف لم يكن من شأنه أن أن يقربه إلى قلوب الروسيين الذين كانوا أيضاً يطالبون بالقسطنطينية ، وظل بضعة شهور يبحث عن يونانى يتكلم الروسية ، قائلا إنه لا يسره شىء قدر استخدامه ليونانى ، فاهتدى إلى معلم خاص يدعى ثيوكليتوس ڤيمبوس ، وهو كاهن بالكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ، كان يدرس فى سنت بطرسبرج ، وكان ڤيمبوس رجلا مخلصاً ودوداً ، يتكلم اليونانية بأنقى النبرات الأثينية ، وكان هذا المعلم من القلائل الذين استطاعوا أن يخترقوا طبيعة شليمان المتحفظة ، وسرعان ما أخذ الغلاف الحديدى الصلب يتحطم ، وبمساعدة ڤيمبوس وعدد قليل آخر

www.ibtesama.com/vb

من الباحثين الذين كانوا يترددون على سهرات يوم الأحد المقامة بمسكنه المسيح ، أخذ ينفى من ذهنه فكرة الفرار إلى مكان قصى من العالم ، منبئاً نفسه أنه لا مفر من أن يكون أوربيا ، وأنه سيهجر تجارته بأسرع ما يمكن ، ويكرس نفسه لحياة الدراسة والبحث .

وهكذا مرت الأسابيع ، بينما كان يحارب فى أعماق نفسه أهواءه المتعارضة ، كان متقلبا كدوارة الريح ، تارة يقول لنفسه إنه لا يجسر على هجر تجارته ، وأخرى يقسم بآلهة اليونان العظيمة ، أن حياته شقية لا معنى لها ، وأنه المثل الحى للبخيل الخسيس — كلا ، إنه لأفضل من كل هذا أن يتسلل مبتعداً عن سنت بطرسبرج ، ويدرس بإحدى مدن ألمانيا الجامعية العظيمة ، ولكن أيقبل هناك ؟ إنه لم يحصل على درجات أودراسات رسمية ، إذن فأين ؟فى مثل هذه اللحظات من الشك والحيرة كان يجد نفسه قد ارتد ثانية — سيمتلك ضيعة ويكرس بقية حياته للأبحاث العلمية — وفى عام ١٨٥٦ كتب إلى صديق ينبئه أنه يبحث عن ضيعة محاذية للراين ، ولكنه قبل ذلك بأسابيع قليلة كان قد كتب إلى صديق آخر يخطره بعزمه على أن يرى العالم ، لأنه لم ير سوى القليل منه ، وأنه أخذ يفكر فى اتخاذ الكتابة حرفة له .

والواقع أنه لم يكن على بينة مما يجول بخاطره ، أو مما يعوزه ، أو من الطريق الذى يسلكه ، وعلى الرغم من بعض الخسائر وقليل من الديون السيئة ، كان قد جمع ثروة ثانية من الحرب ، وكان يحس شعوراً متزايداً بالذنب ، فكتب فى مذكراته اليونانية يقول: « أعلم عن نفسى أنى مقتر شحيح ، ولا بد لى من أن أكف عن التكالب على المال ، فطوال الحرب لم أكن أفكر إلا فى المال » ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يكاد يستطيع أن يتذكر فترة لم يرد المال فيها على خاطره . فأبغض نفسه ، ورضى عن نفسه ، وزاول عمله مؤملا أن يأتيه الحل من مكان خارج نفسه ، فلم يأته شىء ، ومن ثم كان يغذى تعاسته بنفسه .

ووضع خططا للتقاعد عام ١٨٥٧ ، ولكن الفقر المالى الذى جثم على صدر

www.ibtesama.com/vb

أوربا خلال الشهور الأخيرة من العام ، أمسك بتلابيبه فى اللحظة التى أوشك أن يهجر فيها عمله ، وكان ، كعادته ، قد اتسع فى أعماله إلى أقصى حد ، فهناك كمبيالات مستحقة بلندن وباريس وهامبورج وامستردام ، تصل فى مجموعها إلى ثلاثة ملايين تالر ، وكنائب عن نفسه ، استغل جميع رأس ماله فى التجارة ، فرأى نفسه فى الحضيض ثانية ، وأفلست المؤسسات الأجنبية ، وشاب شعره ، وكاد القلق يفقده حجاه ، محاولا أن يطفو فلا يبتلعه اليم ؛ وبتقليبه فى الأرقام ، وركوبه لكل عسير من الأمور ، وإشرافه على كل كبيرة وصغيرة من أعماله ، نجح فى أن يظل قائما على قدميه ، والواقع أنه لم يتعرض قط لأى خطر كبير ، وعلى الرغم من ذلك أثرت فيه أهوال ذلك الشتاء أثراً عميقاً ، وظل بعد ذلك بشهور ، والدمع السخين ينهمر من عينيه كلما تذكر كيف ظل مستيقظاً خلال الليالى الطويلة ، وهو يقارع ببراعته المالية براعة أصحاب المصارف الأوربية .

وفى ربيع عام ١٨٥٨ حين تحقق أنه لم يعد ثمة ما يدعو للهلع ، مع سلامة ثروته كما كانت ، قرر أن الوقت قد آن لزيارة بلاد اليونان ، فعلاقاته بزوجه لم تكن أسوأ مما وصلت إليه ، وكانا يبحلقان ببرود ، عبر المائدة ، أحدهما فى الآخر ، ولا يتبادلان أكثر من عشر كلمات فى الأسبوع ، وعلى الرغم من ذلك أنجب منها طفلا آخر — وكتب بوحشية يقول : « لقد اختلسته منها » ، وحين حل فصل الصيف قرر أنه لم يعد فى استطاعته أن يتحمل زوجته أكثر من ذلك ، ومن ثم خرج بمفرده فى رحلة لارتياد جميع الأقاليم التى كان يرغب فى رؤيتها ، منتويا أن يوجه عناية خاصة لأثينا وايثاكا ، جزيرة أوديسيوس (Odyseus) ؛ ولم تكن طراودة محط أحلامه ، بل جبل ايتيوس (Mount Aetios) ، حيث أقام أوديسيوس قصره ، ولعل مبعث ذلك أنه رأى نفسه جواب آفاق مثل بطله ، وهو يبحث عن موطن ومنزل .

فستهل سفرته بالذهاب إلى السويد والدنمارك ، وكان قد تعلم اللغتين السويدية والدنماركية عام ١٨٥٤ لأغراض تجارية ، ولكنه لم يمكث بهذين الإقليمين

www.ibtesama.com/vb

سوى أيام قليلة ، فلم يكن ثمة ما يتعلمه فيهما سوى القليل ، بعد ذلك قام بزيارة قصيرة لألمانيا ، ومنها إلى إيطاليا ، وكان متهيباً بعض الشيء أن يزور اليونان رأساً ، وقرر أن يرجيء تحركاته ، فهو سيرى ما لدى مصر لتعرضه عليه ، قبل أن يلقي بنفسه قلباً وقالباً فوق البلاد التي خلبت لبه أكثر من أي مكان آخر ، وكسائح عادي مخر عباب النيل في دهبية ، حتى وصل إلى الشلال الثاني ، وتعلم العربية خلال الرحلة ، ومن القاهرة رحل إلى أورشليم في قافلة ، عن طريق مدينة بترا (Petra) ذات الصخور الوردية ، ولكنه لم يجد متعة كبيرة في أورشليم ، وسرعان ما قصد أثينا ، عن طريق سميرنا (Smyrna) وجزائر كيلاديس (Cyeladea) وفي الأعوام التي تلت ، كان يحلو له أن يذكر أنه في فترة ما خلال هذه الرحلة ، تنكر في زي بدوي ، واختتن ، واخترق مدينة مكة المكرمة ، ولكنه لم يشر قط ، في مذكراته الضخمة ، إلى زيارته لمكة ، ويبدو أنه تخيل الرحلة من أساسها .

ولكنه لم يتخيل أثينا ، فقد نزل في أفخر فنادقها ، وارتقى الأكروبول واغتبط أشد الاغتباط ، فأثينا كانت كل ما يصبو إليه ، فهذه المدينة الزاهرة المتألقة ، كانت قادرة على أن تصفد أشباحه وتحبسها ، وبوساطة كتب تزكية من ثيوكاليتوس فيمبوس ، استطاع مقابلة باحثين يونانيين ، أثنوا عليه لنطقه السليم ، وأنصتوا موافقين حين أفصح لهم عن نيته في قضاء بضعة شهور بجزيرة ايثاكا ، وقد يضع كتابا عنها ، فعرضوا عليه المزيد من رسائل التزكية .

وكان على وشك الرحيل إلى الجزيرة ، حين تسلم برقية من سنت بطرسبرج ، تخطره بأنه قد أقيمت عليه دعوى ، بالمحكمة العليا ، من رجل أعمال أحل خلال أزمة عام ١٨٥٧ ، ولكنه بدلا من أن يسدد المبالغ المستحقة لشليمان ، قرر أن يقاضيه بتهمة التدليس ، وكان شليمان يعاني من حمى ، فأبرق إلى سنت بطرسبرج ، يستفسر عما إذا كان من المستطاع تأجيل القضية ، ولكن المحكمة رفضت التأجيل ، فانتهت مهمته ، كعالم هاو في العاديات ، بخاتمة مفاجئة ، حين هرول

www.ibtesama.com/vb

عائداً إلى سنت بطرسبرج ، مستبدلا بلاد اليونان بتعاسة زواج لا يطاق ، وعناء قضية أمام المحاكم ، وسيقضى خمس سنوات أخرى فى روسيا ، لصيانة ثروته .

وكسب القضية ، وكسب طفلا آخر من إكاترينا ، وكسب ثروة ثالثة ، وخسر نفسه ، كما خسر اهتمامه باللغات ، وأفزعته بلاد اليونان ، وكى يصل إلى أثينا قام بسياحة طويلة ، كما لو كان متهيباً أن يواجه المنظر بأكمله ، حتى يكون قد عجم عود نفسه بضروب فتنة البلاد الأخرى ومناظرها الطبيعية ، والآن كلما تحدث عن رحيله إلى الخارج ، لم يذكر قط بلاد اليونان — سيذهب إلى الصين وأمريكا الجنوبية — وران الكرى على قصر أوديسيوس عشر سنوات .

واسترد سمات رجل الأعمال ثانية ، فأصبح متعاليا ، متغطرسا ، يبعث برسائل جارحة إلى عملائه ، الذين سايروه لا لشىء سوى دقته فى الدفع ، واعتباره من أعظم مستوردى العالم ، وخلال ذعر مالى راح يوسع أعماله أكثر فأكثر ، وكان زيت الزيتون والنيلة هما محط نشاطه التجارى ، والآن راح يشتغل بالقطن والشاى على نطاق واسع ، وتشاجر مع كل إنسان ، وتشاجر مع إكاترينا على تربية وتعليم أطفاله ، وكان سيرجى صبيا يطفر ويتألق ، حتى أصبح قرة عين والده ، وكان الطفلان الثانى والثالث ، اللذان « اختلسهما » من الأم ، على حد قوله من الإناث ، فناتاليا ولدت عام ١٨٥٨ ، وتديزدا — بمعنى الأمل — ولدت بعد ذلك بثلاث سنين ، العام الذى عقد فيه أهم صفقاته ، وازدهرت أعماله ، وفى عام ١٨٦٢ـ٦٣ على الرغم من الانتقاضات فى بولندا ، التى أشاعت الفوضى بتجارة روسيا ، كان صافى ربحه من النيلة فقط ، أربعين مليون دولار ، بفائدة ستة فى المائة من رأس المال ، فكانت هذه الثروة الثالثة أعظمها جميعا ، فإذا ما استثمر هذه بطريقة مأمونة ، لم يعد باستطاعته الادعاء بتعرضه للفقر المدقع .

وكان دائماً يبت فى أمور ، وينكل عما يبت ، فقرر آنذاك الإقامة بدرسدن مع زوجته وأطفاله ، وأن يعيش كرجل أعمال متقاعد واسع الثراء ، له أملاك وأموال

www.ibtesama.com/vb

مثمرة بكافة بقاع الأرض ، واشترى منزلا بدرسدن ، وبعد ذلك بعث برسائل إلى زوجته يستعجل قدومها إليه ، فرفضت اللحاق به ، وذكرته بأنها لم تعد راغبة فى عشرته وله مطلق الحرية فى أن يختار لنفسه من تعاشره ، فهددها بالعودة إلى سنت بطرسبرج ، وكتب يقول . « بمساعدة رجال الشرطة ، وبقوة ساعدى ، سأنتزع صغارى الأعزاء من منزلى ، كى أستطيع أن أوفر لهم فى درسدن التعليم الألمانى الذى تنكره عليهم أمهم » ، وهكذا كتب إلى أحد كبار رجال الحكومة ، ويبدو أنه اندهش حين تبين له أن مطالبه لم تقابل بالعطف ، فقد نعتته زوجته بأنه طاغية مستبد متحلل الخلق ، وكان هذا كله ، فهو صاحب ملايين ، عاطل الفتنة ، أشيب له جبهة مقببة عالية ، وله عينان داكنتان رجراجتان ، لا تتألقان إلا حينما يتحدث عن المال فقط ، فهو يمثل كل ماتتقزز منه النفس وتشمئز فى المجتمع الروسى ، ولم يدرك أحد أو يتكهن أن هذا الرجل الضائع المقيت ، سيجد نفسه فى النهاية .

ولم يجد نفسه بسهولة ، وستمر أعوام عديدة قبل أن يهتدى إلى مفتاح نفسه فهو لايدرى أنه للقيام بعمل له قيمته ، يلزم الإنسان أن يروض نفسه على الرضوخ لسلطة عليا ، الرضوخ التام مع التواضع الخاشع ، ملقيا جانباً كل متاع هذا العالم عدا ما يساعده فى عملية الخضوع الكامل ؛ عرف النيلة والقطن ، وزيت الزيتون والشاى ، وعرف أسعارها فى أسواق العالم ، ولكنه لم يكن قد تعلم بعد ، حتى خطوات المبتدىء فى فن الحياة ، وهكذا راح يتخبط فى حمأة الرمال ، مدركا فى تعاسة ، أنه مبغض من الجميع ، دون أصدقاء خلص ، أجنبى عن نفسه ، مبغض لنفسه ، فريسة لأوهام غريبة ، وراح يسأل نفسه قائلا : « كيف أشقى إلى هذا الحد ، وقد كونت لنفسى ثلاث ثروات ؟ »

وكان يداين شخصاً يدعى ستيفن صولوفيف ، بمبلغ ضخم من المال ، وما كاد يتسلم هذا المبلغ فى شتاء عام ١٨٦٣ حتى عقد العزم على أن يهجر روسيا ، فباع تجارته ، وأودع بعض المال لحساب زوجته وأطفاله ، وأقسم ألا يعود قط ، ولم

www.ibtesama.com/vb

تكن لديه أدنى فكرة عما سيصنعه ، و يبدو أنه لزم الأسفار كى يفرق أحزانه وشقاءه ، دون تخطيط معين ، وفى غمرة من الذهول ، وفى فترات متفرقة ، كانت تطرأ على ذهنه فكرة تدوين انطباعاته خلال أسفاره ، ولكنه لم يكن مقدراً لكتاباته الخاصة ، وقد كتب مرة يقول : « كل أنابيشى تنهار كمنزل بغير أساسات » ، واستطرد ، فى الخطاب ذاته ، يقول عن نفسه : « واحد لن يكون أبدا سوى هازل يعالج المباحث العلمية » ، وفى رحلته التى طاف خلالها حول العالم ، ظل الهازل،يسوق تعليقاته الرشيقة الدقيقة عن العالم ، وكان لايزال هاويا .

وفى أبريل عام ١٨٦٤ كان فى تونس ، يتطلع ، وهو فاغر الفم ، إلى أطلال قرطاجنه (Carthage) ، وقام برحلة أخرى إلى مصر ، وبعد ذلك ذهب إلى الهند . حيث خانته موهبته فى تعلم اللغات — لم يبد أى اهتمام لتعلم اللغة الأوردية (Urdu)أو أية لغة هندية ؛ وزار سيلان ومدراس وكلكتا وبنارس وأجرا ولكنو ودلهى ، وشق طريقه حتى سفوح جبال الهملايا ، وازعجته حرارة الهند وعجيجها ، ولكنه سر من سنغافورة ، وأبهجته الرحلة القصيرة الجانبية ، التى قام بها إلى جاوة ، قبل ذهابه إلى الصين ، وكانت سياحة طويلة غير مقيدة ، وكانت آماله فى الصين رفيعة مترامية ، فهناك على الأقل باحثون عظام ، ومثقفون ذائعو الصيت .

وكان معظم الوقت شقيا وهو بالصين ، فكان يشكو من الطعام ،ومن وسائل الراحة ، ومن الغبار ، ومن الروائح الكريهة ، وقد كره بنوع خاص السفر بالعربات الصغيرة ذوات العجلتين ، ولا يذكر بالرضا فى مدونته سوى شخص واحد لاقاه فى الصين — الإنجليزى المغترب ، روبرت توماس ، الذى كان مبشرا وفقد إيمانه برسالته ، وأصبح مترجما صغيرا ، يعمل بالجمارك فى شيفو ، وتعلق به شليمان لأنه كان يعرف تسع لغات ،فهو يتكلم بطلاقة الروسية والسويدية والألمانية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والإيطالية واليابانية والصينية ، وقد تعلم توماس

www.ibtesama.com/vb

هذه اللغات بكتابة كلمات وجمل وتكوين قصص منها ، وهى طريقة لاقت استحسان شليمان ، الذى وصف ما علق بنفسه من أثر خلفه «هذا الرجل المتواضع الموفور الذكاء » فقال إنى لأغبط هذا الرجل وأحيى فيه عقلية نيرة مدهشة وشعوراً بالصلاح والتقوى ؛ وخيل إلى شليمان أن ثوماس كان يستطيع تحسين نفسه ، لو أنه فقط استخدم مواهبه بطريقة نشطة لتكوين ثروة وجمع المال .

وسرعان مايمم شطر بكين التى وصلها فى الثلاثين من أبريل عام ١٨٦٥ بعد رحلة شاقة ، من تيانتسين ، فى عربة ذات عجلتين ، وقد كره كل دقيقة من الرحلة ، فهو لم يستطع أن يجلس أو يقف بالعربة ، وقضى معظم الرحلة وهو منفرج الساقين فوق عريش العربة ، ووصل بكين فى المساء وهو حانق مغيظ ، وأعجب بالأسوار الحجرية الضخمة المحيطة بالمدينة ، ولكنه حين دخلها امتلأ فزعاً ، ولم تكن هناك فنادق ، فأقام فى دير للبوذيين ، حيث طلبوا منه اثنى عشر فرنكا أجرا للحجرة ، ولكنه بعد مساومات طويلة نجح فى تخفيضه إلى ستة فرنكات ، وقد استاء من كل شىء بالحجرة — فراش شمالى الصين المرتفع المصنوع من الآجر ، الأرضية التى تحولت إلى طين لأن الرهبان رشوها بالماء ، المقاعد الخالية من المساند ، والمناضد الصغيرة — وثمة عشر لفائف كانت معلقة على حوائط الغرفة ، ولأمر ماساورته فكرة فحصها بعناية ، فوجدها مغطاة بخط اليد الصينى المضبوط ، ويقول فى مدونته إن اللفائف كانت تحتوى على مقتطفات من إنتاج كونفوشيوس الأدبى ، وهى زينة لا يحتمل وجودها فى دير بوذى ، لما بين المذهبين من خلاف .

لقد كره الحجرة ، ولكن كرهه لانعدام الخدمة كان أشد وأنكى ، فقد طلب طعاماً ، ولكن الرهبان أكدوا له عدم تيسر الحصول عليه ، فستغرق فى النوم إذ أعياه الجوع ، وفى الخامسة صباحا أيقظه خادمه أتشون ، الذى أحضر له قصعة من الأرز الأصفر القذر ، وإبريقا مملوءاً بالشاى الأخضر ، وقدح للشاى ، فكاد شليمان أن يفقد صوابه من فرط جزعه ، فهو لا يستطيع أكل

الأرز دون ماح أو شرب الشاى دون لبن وسكر ، ونظر إلى الشاى وانتهى فى الرأى إلى أن أحقر عامل فى أوربا يعاف شربه ، ولتعذر الحصول على لبن وسكر ، أرسل أتشون كى يستحضر له ماحا للأرز ، ولعدم استطاعته استخدام ملاقط الأرز الصينية ، نجح فى التهام الأرز بالتقاطه من القصعة بأصابعه ، ياللقوم الهمج ! لقد راح يتساءل متحيراً ، كيف يستطيعون العيش دون ملاعق أو شوك أو لبن أو سكر ! .

وفى الساعة السادسة أرسل خادمه ليحصل له على جياد ، وقضى اليوم يطوف بأنحاء أجمل مدينة على الأرض ، مبغضا كل شىء رآه : الشحاذين ، وماتتقطى الخرق ، والرءوس المقطوعة بساحة الإعدام ، والمآتم البلهاء ، والمدينة المحرمة بأكملها ، التى بدت ، من نظرته المغرضة صوب أحد الأبراج المقامة على السور المحيط بالمدينة ، كما لو كانت ستتهاوى حطاما سحيقا ، لأن « أفراد أسرة منشو البلهاء » لم يعنوا بالمحافظة على المظاهر ، وزار المعابد ، وراح يحرق الإرم ويلعن الكهنة سرا ، لتركهم الآلهة المزخرفة تتفتت وتتهاوى ، ولاحظ أن المطارف الحريرية التى ترتديها الآلهة قد تهلهلت ، ونوافذ الورق قد تمزقت ، والمعابد نفسها قد ابتلعتها الكروم المتسلقة .

وكانت الإمبراطورة الصغيرة تزو هسى « Tzu Hsi » على العرش ، وثورة القائد الصينى هنج هسيوشوان (Hung - Hsiuchwan) (١٨٥١ — ١٨٦٥) لا تزال ناشبة فى وادى يانجتسى ، ولكن مدونته لا تكشف عن أدنى أثر لأى اهتمام بالأحداث الكبار الجارية فى الصين ، وقضى يوما واحدا فقط فى بكين ، وبدت له بكين كما لو كانت مدينة مطمورة ترقب التنقيب والكشف عنها ورسم صورة مدهشة لا تتفق مع أى تصوير آخر ساقه المؤرخون المعاصرون :

« هنا وهناك وجدت بقايا أحجار رصف من الجرانيت الأبيض ، وفى كل

www.ibtesama.com/vb

مكان أطلال مصارف قديمة ، وطنف أعمدة مهشمة ، وأجزاء من تماثيل مطمورة فى الطمى ، وكانت هناك قناطر فخمة كثيرة من الجرانيت ، ولكن نصفها خرائب ولذلك كان يستحيل المرور من فوقها — على المرء أن يسلك منعطفا فى الطريق لتفاديها — وكل هذه الأنقاض من أحجار الرصف وأطلال مصارف الماء والأعمدة والمنحوتات والقناطر ، كل هذا يبين أن بكين ، التى يسكنها الآن شعب سوقى متخلف ، وكان يقطنها يوما ما قوم عظام مبتكرون ، وقديما كان بها طرقات فخمة نظيفة ، مرصوفة بالأحجار ، والصروح العظيمة والقصور الجميلة ، أما الآن فليس هناك سوى المنازل البشعة القذرة ، والطرقات أشبه ما تكون بمسارب المياه المتسعة منها بالطرق العامة فى عاصمة عظيمة » .

وهكذا راح يحرق الإرم ، ويزداد حنقه مع كل دقيقة تمر ، بينما هطلت الأمطار ، وتعثر جواده وكبابه فى الطمى ، وقد قضى النهار بأكمله ، من السادسة صباحا إلى السابعة مساء ، مخترقا الشوارع المهجورة على صهوة جواده ، واختزن ملاحظاته فى رأسه الكبير ، وعزاها واحدة إلى الأخرى ، وتوصل إلى نتائج — وكل نتائجه تقريبا كانت خاطئة — فلم توجد فى بكين قط شوارع مرصوفة ، أو مصارف حجرية ، أما « الطنف المهشمة » فيحتمل أنها كانت قراميد منقوشة أسقطتها الرياح ، ولم تكن ببكين كلها قناطر من الجرانيت ، فقد ظن أن قصور « المدينة المحرمة » المتألقة خرائب ، فى حين أنها كانت مختفية فقط خلف غمر أخضر من أشجار الصيف ، ولم يكن ليدرك أو يعطف على ماعتاده الصينيون من إخفاء المنظر الداخلى الأنيق لمبانيهم بمظهرها الخارجى القمىء ، ولم يخطر بباله قط أن يلوم الطقس ، أو يعزوه إلى صخرة ، أو يستفسر من الآخرين ، ولذلك استمر حتى النهاية ، يصنع عجائب الابتكار المرتجلة على أساس نظرية المدينة ذات الأطلال ، الغارقة ببطء فى الطمى — ولو كان قد جاء فى يوم آخر لتحول التراب تبراً ، ولبدت القراميد الصفراء ضاحكة متوهجة فى أشعة الشمس .

وملاحظاته على بكين ذات مغزى ، فهى تبين أى ضرب من الرجال هو :

www.ibtesama.com/vb

فهو شغوف بالأطلال ، يراها حتى ولو لم تكن موجودة ، متسرع فى الحكم على الأشياء ، غير مدقق فى تحرى الأمور ، وبعد ذلك بأعوام قلائل ، حين يشتغل بالتنقيب عن طراودة ، سيبتكر نظريات بنفس الطريقة المتهورة .

ولم يكن ليفكر فى طروادة حين جاء إلى بكين ، إنما كان يفكر فى أطلال أعظم كثيراً ، ممتدة فوق مئات الأميال من الجبل والبيداء — سور الصين العظيم — فمنذ الطفولة وهو يحلم فى تسلق أحد حواجز السور العظيم ، ولم تكن الرحلة إلى الصين غير تمهيد لرحلة إلى السور العظيم ، فهناك ، إن كان ثمة مكان على حد ما أوعز إلى نفسه سيقف على سر الحياة الخالقة القديمة . التى اختفت من الأرض . منذ عهد بعيد . ومن ثمة خرج فى اليوم التالى مع خادمه . ميمما شطر كوبا كو (Kou - pa - Kou) المجاورة للسور العظيم . على حدود منشوريا . التى وصلها بعد ذلك بيومين . وكان منشرح الصدر . فالشمس مشرقة وقد سرى عن نفسه بارتداء عمامة عربية حول رأسه ، الأمر الذى استرعى أنظار القرويين على طول الطريق . وقد أبهجته فكرة مثوله فى حضرة ذلك السور الملكى . الذى يتهادى متبهنسا فى مسلك متعرج على امتداد ألف وأربعمائة ميل ؛ وضحك كل من سمع أتشون يذكر أن سيده قطع كل هذه المسافة الطويلة من أوربا كى يشاهد السور — كانت أفكوهة ضخمة . وقد انفرج وجه شليمان مبتهجا بوجوده وسط أولئك القوم الكرام المدهشين ذوى العيون الصافية . الذين يختلفون عن سكان بكين المنحلين .

كانت الشمس تلهب وجهه . والرحلة أنهكته . ولكن السور فتنه وأغراه فتلمس من يتطوع بمشاركته فى تسلقه ، ولكن حتى أتشون رفض أن يتسلق أقل أجزائه ارتفاعاً ، فاستقر رأى شليمان على ارتقائه بمفرده ، ووفقا لما جاء بمدونته ، كانت مهمة صعبة خطيرة ، لم يكن ليحاولها ، لو لم يبهره منظر ذلك السور المتأود الضارب عبر الجبال حتى اختفى فى الأفق ، واستحضر معه المقياس المدرج ، وحين وصل إلى السور قاس حجم القرميد — طوله ٦٧ سم ، وارتفاعه

www.ibtesama.com/vb

٢٥ سم . وسمكه ١٧ سم — وقاس ارتفاع الأسوار ، فإذا هى من عشرين إلى ثلاثين ذراعا ، والمسافة بين أبراج المراقبة حوالى ثلاثمائة ذراع ، وكان يؤكد أن القرميد يعود فى تاريخه إلى أسرة هان (Han Dynasty) ، قبل الميلاد بحوالى مائتى عام ، على الرغم من أن الواقع هو أن تاريخه يعود إلى أسرة منج (Ming Dynasty) ، التى حكمت الصين بعد الميلاد بحوالى ألف وأربعمائة عام، وكاد يهذى من فرط سروره ، بعد تسلقه إلى قمة السور ، وتطلعه من عل إلى أسفل قطاعاته .

ومكث فى البرج معظم فترة ما بعد الظهر ، فلم يكن ليكفيه الوصول إلى السور ، بل هو يريد فترة يستمتع فيها بالعالم المعتم الصغير الذى تحته ، وتذكر كل شىء كان قد طالعه عن الأبطال المدافعين عن السور ، الذين صدوا غزوات البرابرة القادمين من أواسط آسيا ، وتذكر جميع المناظر العظيمة الأخرى التى شاهدها فى جاوه وسيبرانيفادا ، وأخيراً حين أخذ الظلام يسدل أستاره ، انتزع من السور بعناية قالبا من القرميد ، وبخيط غليظ نجح فى تثبيته إلى ظهره ، وبعد ذلك أخذ يهبط المنحدر منزلقا على بطنه ، وكان هذا أول عمل جدى قام به فى التنقيب ، وكان فخوراً حقا حين اكتشف أن قالب القرميد ظل سليما لم يمس حين وصل إلى كوبا كو ، وصاح يطلب الماء ليروى ظمأه ، فخف الفلاحون بأقداح من الماء ، وحين أراهم قالب القرميد ، ضحكوا حين تصوروا كل المشقة التى تحملها للمحافظة على هذا القالب الفريد ، وكتب بعد ذلك يقول : « أنا واثق أن أولئك القوم البشوشين الكرام ، الذى لبواطلبى للماء ، لم يتعاطوا الأفيون قط».

وبعد ذلك ببضعة أيام كتب فى مدونته ، يصف بإسهاب كل شىء كان قد حدث خلال الرحلة ، وقد قال إنه لا شىء فى العالم أثر فيه كمنظر السور ، المتهاوى الآن ، والذى كان حصن الصين يوماً ، وفى كلمات تفعمها النشوة والفخر يصف عواطفه وهو يتطلع من البرج المنعزل إلى العالم من تحته ، وإذا كان قد أسرف فى وصف قدرته على تسلق الجبال ، — فهو يدعى بأنه قد تسلق جبال

www.ibtesama.com/vb

الهملايا ، وقلل سييرانيفادا — فليس ثمة شك فى صدق عاطفته ، وهنا لأول مرة يستسلم كبير التجار ، معطياً المجال لعالم العاديات المتحمس :

« حين وقوفى فوق براكين جاوه ، وعلى مرتفات سييرا نيفادا بكاليفورنيا ، فوق جبال الهملايا المرتفعة ، وهضاب كورديلارس العظيمة بأمريكا الجنوبية ، وطالما متعت العين بمناظر رائعة ، ولكن لم يكن بها ما هو أروع من هذا ، لقد اندهشت وبهرت ، وامتلأت إعجاباً وتحمسا ، ولم أستطع أن أروض نفسى على النظر إلى هذا السور العجيب دون أن أنفعل ، فقد كان هذا هو حالى حتى فى طفولتى الباكرة والآن أراه ، أمام ناظرى ، أشد روعة مما رأيته فى خيالى مائة مرة ، وكلما ازددت تفرسا فى هذا السور العظيم ، بأبراجه الحصينة القوية ، المتسامقة إلى قلل أعلى الجبال ازددت تخيلاً أنه من نتاج عشيرة أسطورية من عمالقة ما قبل الطوفان .

وقد عرفت أن السور شيد عام ٢٢٠ قبل الميلاد تقريباً ، ولكنى لم أستطع أن أتفهم كيف شيدته أيد بشرية ؛ كيف تيسر لهم أن ينقلوا ويركبوا تلك الصخور العظيمة غير الملساء ، تلك الكتل الضخمة من أحجار الجرانيت ، وتلك الآلاف المؤلفة من الآجر والقرميد ، ولقد خطر ببالى أن هذا القرميد لابد قد صنع بالوادى المنبسط تحته مباشرة ، ولكن تشييد هذا السور ، الذى صد مثل هذه الغزوات العديدة ، من الأعداء فى الشمال ، احتاج إلى قوة هرقل نفسه .

واليوم يقبع السور العظيم مهجوراً مهملا ، وبدلا من الجنود بالأبراج المحصنة تهجع الحمائم هادئة بالأعشاش التى تبنيها ، وتتكاثر العظايا غير المؤذية بين الأزهار الصفراء وزهور البنفسج التى تعلن قدوم الربيع ، وما من أحد يستطيع أن ينكر أن هذا أعظم عمل أتمته يد إنسان ، والآن أصبح الأثر الجنائزى لعصر ولى عن هذه الأرض منذ زمن طويل » .

* * *

www.ibtesama.com/vb

وحين خط شليمان هذه الكلمات ، لم يكن قد وثق بعد ماذا ينوى أن يصنعه بحياته ، وكان حلم طروادة لايزال قصيا ، وعلى الرغم من زعمه بعد ذلك أنه لم يمر يوم منذ طفولته ، لم تساوره فيه فكرة الكشف عن المدينة المطمورة ، فمن المحتمل أن كشف طروادة جاء كنتيجة لعملية تبلور بطىء ، وفى نحو هذا الوقت كان يكتب إلى أصدقائه ، قائلا إنه كان دائماً يطمع ، حالما يجمع ثروة ضخمة ؛ فى أن ينصب نفسه كاتباً ؛ فيترك روسيا ؛ ويقيم فى مكان ما بأوربا؛وينمى علاقته بزملائه الكتاب — لم يستطع التفكير فى حرفة أكثر ملاءمة — ولعل الرحلة إلى الشرق الأقصى كانت تمهيداً ؛ لحياته ككاتب ؛ ذلك لأن كثيرين من كتاب عصره استهلوا حياتهم الأدبية بوصف لأسفارهم إلى البلاد الأجنبية ؛ ويبدو أن هذه المدونة التى حررها بعناية ، وضمنها مقالات وصفية على نمط مقالات أرنست رينان ؛ الكاتب الفرنسى ، كانت موضوعة على نية أن تكون أول تقدمة له فى سوق الأدب ؛ فهو يملك موهبة اللغات ؛ وطالما أعجب بالكتاب؛ ولم يخفق قط فى تحقيق أطماعه ، ولكنه فى الصفحات الافتتاحية من أول كتاب له ، وضعه وهو فى سن الثالثة والأربعين ، أعلن الموضوع الذى استبد بتفكيره خلال الأعوام الأخيرة من حياته — الخرائب المنهارة ، والأسوار الجبارة ، ومواكب الماضى المطمور — ومثار الدهشة أن يعلن الموضوع أولا فى بكين ، وفى مكان قصى بالصين ، لصيق بالسور العظيم .

وحين وقف على السور العظيم ، بطل كل اهتمام له بالصين ، فهو يصف رحلاته مختصرة متقطعة ، بأسلوب الزائر ، الذى يسرى عن نفسه بمشاهدة عادات الأقوام الهمجية الغريبة ، ولسبب ما وجه اهتماما خاصا إلى أقدام النساء الموثقة ، فراح يقول : « لقد فحصت بدقة أقدامهن مرات كثيرة ، ولم أطلع على أية تقارير لكتاب أوربيين تصف بدقة طريقة ربطها » ومن ثم يشرح بالضبط كيف تضغط الأصابع الثلاث تحت صفحة القدم ، وكيف تحصف النساء فى مشيتهن الغريبة ، وهو لا يقل ابتهاجا حين يناقش المسرح الصينى — العباءات المقصبة ، أصوات الممثلين

www.ibtesama.com/vb

الذكور العالية المصطنعة ، والأقنعة الغريبة ، والإشارات الأكثر غرابة — ويبدو أنه ابتهج حين حل الوقت لرحيله من الصين إلى اليابان .

وبهرته اليابان ، وأجود كتاباته التى دونها بسفره بعد ذلك تتعلق بالأيام الهنيئة التى قضاها هناك ، على الرغم من أنها كانت تمطر معظم الوقت ، ولم يكن هناك إنجليزى ودود مثل روبرت ثوماس ليقوم بمهمة المترجم ، فراح يسرى عن نفسه بطريقته الخاصة ، يشاهد المسرحيات القومية ، ويزور الحمامات العامة ، ويعجب بتودد النساء اليابانيات وثيابهن الحريرية الفضفاضة ، كذلك كان على أحسن العلاقات مع السفراء ، وكان يحمل بسلسلة ساعته قلادة عجيبة من المرجان ، وكان يبتهج حين تتزاحم النساء من حوله فى الحمامات لفحصها ، وكان يستهويه عدم تحشمهن ؛ وقد سر من الفنادق الصغيرة التى نزل بها ، ومن الانحناءات الدائمة ، والكياسة التى كانت تلاقيه حيثما أقبل أو أدبر ، فاليابان كانت ، بالنسبة له ، بهيجة وغامضة ، ويكاد المرء لا يصدق حقيقتها كما لو كانت من أساطير الحوريات ، وأسرف وتباطأ حين كتب عن خبراته القصيرة هناك ، كما لو كان يحاول تذكر مذاق كل لحظة .

ولحسن طالعه وصل خلال إحدى الفترات القصيرة التى ساد فيها السلام بين الميكادو ، وأنصار الشوجان ، قائد الجيش اليابانى العام ؛ وقبل هذا باثنى عشر عاما فقط كان الكمودور البحرى بيرى (CommodorePerry) قد أبحر صوب مضيق يبدو (yedo) وقدم مطالبه إلى إمبراطور اليابان ، دون أن يرتاب فى وجود إمبراطورين ، وقبل هذا بعام واحد فقط كانت الأساطيل المتحدة لبريطانيا وفرنسا وأمريكا وهولندا قد قصفت بمدافعها مينا شيمونوسكى ، للثأر من أمير تشوشو (Choshu) الإقطاعي الصغير ، الذى دأب على إطلاق النيران على السفن الأجنبية من مدافع حامياته على الساحل ، ولكن شليمان لم يكن شغوفا بالتاريخ المعاصر ، فقد تفتحت اليابان أمامه كمهرجان بهيج متألق ، وقد سر حين رأى موكب

www.ibtesama.com/vb

الشوجان الرائع مخترقا الطريق الإمبراطورى العظيم المسمى توكايدو ، فدون ملاحظات بارعة عن الحلل الرسمية الزاهية التى ارتداها القوم بهذا الموكب الهجمى المتألق .

هلّ العمال الوطنيون أولا ، يحملون متاعا ثقيلا ، على دعائم من الخيزران ، ثم فصيلة من الجنود ، فى حلل طويلة بيضاء أو زرقاء ، وسراويل سوداء أو زرقاء قاتمة مثبتة عند الكعوب ، وجوارب زرقاء قصيرة ، ونعال من القش ، وقبعات مزركشة من الخيزران ، وعلى ظهورهم حقائب العتاد ، ويحملون قسيا وجعابا ، وسيوفا وغدارات ، وكان ضباطهم يرتدون أقمصة موشاة صفراء ، ومعاطف سماوية اللون أو بيضاء ، تصل إلى ركبهم ، وهذه كانت مزينة بظلال ملونة خفيفة للدلالة على أنهم من النبلاء ، وكانوا يرتدون سراويل زرقاء ، مربوطة عند الكعوب ، وجوارب قصيرة زرقاء ، ونعال من القش ، وقبعات مزركشة سوداء ، ويحمل كل منهم سيفين ومروحة بحزامه ، وكانوا يمدون جيادهم بنعال من القش بدلا من الحدى الحديدية .

وفى أعقاب الضباط ، أقبل عمال وطنيون آخرون يحملون المتاع ، ثم أقبل كبار الضباط على صهوات جيادهم ، بنقوش غريبة حمراء على ظهور أرديتهم الفضفاضة الطويلة البيضاء ، وبعد ذلك أقبلت كتيبة من حاملة المزاريق ، ثم قطعتان من المدفعية ، ثم كتيبتان أخريان من المشاة ، ثم عمال يحملون صناديق كبيرة موشاة ، ثم حاملو حراب فى لباس أبيض ، وأزرق وأحمر ، ومرة أخرى قدم ضباط عظام ، على صهوات جياد ، وعليهم أردية طويلة بنقوش غريبة حمراء ، ثم فصيلة من الجنود ، فى حلل بيضاء واسعة ، يتبعهم مدربون للجياد يقودون أربعة جياد مزينة بأهداب سوداء ، وأربع عجلات للحمل موشاة بزخارف سوداء ، وخلف هذه علم ، على هيئة زهرة الزنبق ، من المعدن الموشى بالذهب .

وأخيرا أقبل القائد الأعلى للجيش (الشوجان) ، ممتطيا صهوة جواد أسمر جميل ، بلا حدوة من حديد ، بل بنعال من القش ككل الخيول الأخرى ،

www.ibtesama.com/vb

وكان جلالته يبدو فى سن العشرين أو نحو ذلك ، بطلعة بهية ، ولونه يميل إلى الدكنة ، وكان يرتدى لباسا أبيض موشى بالذهب ، وقبعة مذهبة مزركشة ، ويتدلى من حزامه سيفان ، وقد ركب بجانبه حوالى عشرين ضابطا عظيما فى لباس أبيض .

* * *

ولم يبد شليمان بعد ذلك قط مثل هذا الاهتمام الأنثوى العاطفى بألوان الأشياء ، كما أنه لم يكتب بمثل هذه الدقة والرقة ، وقد سره الموكب حتى إنه عاد فى اليوم التالى ، على صهوة جواد ، لمشاهدة الموقع الذى مر فيه الموكب ، ولشد ما أدهشه أنه وجد على كثب من حيث كان واقفا ، ثلاث جثث ممزقة على قارعة الطريق ، وكانت مشوهة إلى حد يستحيل معه معرفة ما إذا كانت جثث جنود أو فلاحين ، فهناك كانت ملقاة فى بشاعة وتعاسة صامتة ، ولم يستطع أن يستكشف أى شىء عنها ، وقد مر موكب الشوجان الطويل المتألق ، مصحوبا بحوالى ألفين من الجنود العاملين والرديف ، أمام عينيه ، ولم يكن يتوهم أنهم كانوا يطئون بأقدامهم جثثا ممزقة .

وحين عودته إلى يوكوهاما قام بتحريات دقيقة : هل قتلوا بناء على أوامر من الشوجان النحيل ، ذى التقاطيع السمراء ، المريض ، الذى سيموت بعد ذلك بعام ؟ ولماذا تركت الجثث هناك ؟ ولماذا ديست بالأقدام وعفرت بالثرى ؟ وأخيرا حصل على بيان اطمأن إليه ، فيبدو أنه لم يكن مصرحا لأحد أن يعبر الطريق حين تحرك موكب الشوجان ، وكان من المعتاد إرسال المنادين لإخلاء الطريق من المارة ، ولكن حدث أن ريفيا راح يتسكع فى الطريق ، دون اهتمام ، حين أقبل الحارس ، فأمر ضابط أحد جنوده أن يمزق جسد الريفى إربا ، ولكن الجندى رفض أن يمتثل للأمر ، ومن ثم نزل الضابط بسيفه الثقيل فوق رأس الجندى ، واستدار بعد ذلك للريفى وسرعان ما قتله ، وفى تلك اللحظة مر ضابط أكبر رتبة ، وإذ توهم أن الضابط قد أصابته نوبة ، طعن الضابط القاتل بالسنكى ، وهكذا كانت بالعراء جثة ريفى وجندى وضابط من جيش

www.ibtesama.com/vb

الشوجان ، ومر الموكب بأسره من فوق هذه الجثث ، وحين يروى سليمان القصة نحس أصالة تصويره للبشاعة الهمجية العجلى ولـكن دون سرف فى اللفظ .

ومن يوكوهاما توجه إلى بيدو حيث أعجب بالأبراج البارزة من المبانى ، الشبيهة بالحصون العظيمة ، وبالقصور والشوارع المزدحمة ، ولـكن بيدو ، وفق روايته لم تؤثر عليه كثيرا — فهى لا تزيد على مدينة فى دليل أسفاره ، تستبعد بعد زيارة من أيام قلائل — وفى أوائل سبتمبر زهد فى اليابان ، واستبعد لتدوين انطباعاته عنها ، ومن ثم حجز لنفسه مكانا على ظهر سفينة صغيرة تدعى « ملـكة الأقيون » وأقلع إلى سان فرنسسكو عبر المحيط الهادى ، وإذ كان الوقت متسعا أمامه ، وضع قصة أسفاره إلى الصين واليابان فى كتاب صغير ، من مائتين وإحدى وعشرين صفحة ، وقد نشره فى باريس بعد ذلك بعامين تحت عنوان « الصين واليابان فى الوقت الحاضر » وكان هذا أول كتاب له ، وكان فخورا ومعتزا به ، ولـكن ليست له أية قيمة خاصة سوى ما يلقيه من الضوء على مؤلفه ، وآخر شىء دونه بالـكتاب صرخة ظفر متخفية ، لا يبدو معناها ما لم نقف على علاقته بزوجته .

وبعد إقلاعه من اليابان بأيام قليلة ، ظن أنه قد وصل إلى طرف الأرض المضاد لسنت بطرسبرج ، وذكر فى مدونته « فى اليوم السابع بين الساعة الحادية عشرة إلا ربعا والحادية عشرة صباحا ، مررنا بخط العرض ٩° ـ ٤٣' وخط الطول ٢٧° ـ ٤٢° ـ ١٤٩' غربا — فى الجهة المقابلة لسنت بطرسبرج من الـكرة الأرضية » وواضح أنه لم يكلف نفسه عناء استشارة ربان السفينة ، فحسابه لم يكن دقيقا ، وهو لم يكن ، كما توهم ، فى الطرف الآخر من الأرض المقابل لسنت بطرسبرج .

ولـكن جوّاب الآفاق كان لا يزال بغير موطن ، فأقام أياما قليلة بسان فرنسسكو ، ومنها أبحر إلى نيـكاراجوا ، ولم يكن فى نيته السفر عن طريق بنما ثانية ، وعوضا عن ذلك عبر نيـكاراجوا ومنها إلى هافانا ، حيث اشترى بعض الأملاك ،

www.ibtesama.com/vb

وهناك مكث أسابيع قليلة ، ثم رأى أن المكسيك جديرة بزيارته ، ولكن كل ما شاهده بمدينة المكسيك ثبط عزيمته ، وأخيرا فى ربيع عام ١٨٦٦ وجد نفسه فى باريس ، بمنزل يطل على نهر السين وكاتدرائية نوتردام ، عند سفح محلة سنت ميتشيل ، وفى سن الرابعة والأربعين ، استقر رأيه على ما يجب أن يكونه ، سيكون فقيها لغويا ، دارس لغات ، يتردد على فصول بالسوربون ، وفى الفترات التى بين المحاضرات ، سينشر كتابه عن الصين واليابان .

كان قد جمع ثلاث ثروات ، وزار نصف أقاليم العالم ، وأنسل ثلاثة أطفال من زوجة باردة متبلدة الوجدان ، وتعلم اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة لغة ، وأنشأ مكتبة هائلة ، ولكنه حتى الآن ، على الرغم من أنه شاب وانحطت قواه ، لم تكن لديه أية فكرة عما سيفعله بحياته .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

البحث عن طريدة

كانت فرنسا فى سنى العقد السادس من القرن الماضى قد استسلمت لسيطرة البرجوازية ، وهى الطبقة المتوسطة من التجار وذوى الحرف ، وكان نابليون الثالث على العرش — وهو إمبراطور مريض متردد ، فلما عرف أين يتجه وقلما اهتم بذلك — ومن حول الإمبراطور والإمبراطورة الجميلة أوجينى ، اجتمعت حاشيه متأنقة ، فى عزلة عن الشعب ، وغريبة فى عقمها ، وبدت فرنسا بأسرها ، فى تلك السنين ، كما لو كانت تسير وهى نائمة ، فأشد شعوب أوربا ذكاء وأعظمها ازدهارا كان يتحرك ببطء صوب كارثة سيدان .

وحين كان شليمان يدرس فى السوربون ، كان يحس أنه فى وطنه تماما وهو بفرنسا فى عهد الإمبراطورية الثانية ، وإذ كان ثريا فقد استطاع أن يشبع نزواته فيأخذ لنفسه خليلة ، ويأكل فى المطاعم الأنيقة ، ويعاشر طبقة النبلاء ، وكطالب علم استطاع أن ينشد صحبة غيره من طلاب العلم ، وكرجل أعمال له أموال طائلة مستثمرة فى أمريكا وكوبا وألمانيا وروسيا ، استطاع أن يتسلى بشراء وبيع عقارات فى باريس ، ومن ثم أثبت لنفسه أنه لم يفقد شيئا من غرائز التاجر ، فاشترى عدة منازل فى غابة بولونيا ، وأحيانا كان يشكو من ثمن تصليح الأنابيب وإعادة تأثيث المنازل للمستأجرين ، والعلة فى أن يحمل أحد أصحاب عشرات الملايين نفسه مشقة أن يصبح سمسار منازل ؛ يقضى وقته فى مناقشات طويلة عن ورق الحائط ، إنما هى إحدى الأحاجى الأخرى التى يستعصى حلها والتى يعرضها هذا الرجل الذى يعانى أمّ الوحدة ومرارتها ، والذى قدم إلى فرنسا على أمل أن يستطيع جنى ثمار ثروته واكتشف أنه يعتبر من أقل طلبة السوربون أثراً حميدا هناك ، رجلا كان يبدو أنه يخترق مسالك الحياة دون أن يكون له بها اهتمام متأصل الجذور ، كان متميع الذوق أو معدومه ، ومثل الكثيرين من المتقاعدين عن العمل ، اكتشف أن التقاعد لم يحل أية مشكلة من مشاكله .

www.ibtesama.com/vb

ونظم حياته كالمعتاد : ساعات معينة للدراسة ، وساعات معينة للعمل ، وساعات معينة للهو ، وتردد على المسارح ، وحلبات السباق ، واستقبل بترحاب فى ندوات السيدات العظيمات ، والتقى بارنست رينان الذى يبدو أنه تلقى إعجابه بتحفظ ، ورد على خطاباته بأدب ولكن فى غير تحمس ، وإذ كانت باريس هى الوطن الروحى لجميع الجوابين ، فقد وجد العزاء فى المدينة ، ولكن دون معنى للتوجيه ، وأحياناً كانت نفسه تهفو إلى رياح سنت بطرسبرج القارصة .

وكان ، فوق كل شىء ، مشوقا لرؤية صغاره ، وكان يضطرم حنقاً على إكاترينا حين يذكر أنهم يعيشون فى كنفها ، فأخبرها أنه ينوى العودة إلى منزله بدرسدن وأنه يفتح لها ذراعيه مرحبا ، وهو سيمدها بكل ألوان الترف التى تشتهيها — عربات ، جياد ، مجوهرات ، ثياب من إنتاج أفخر خياطى باريس — لو أنها قبلت فقط أن تقاسمه معيشته ، وكتب يقول : « لقد أصبحت باريسيا أصيلا ، ولذلك فحين قدومى إلى درسدن ستصبح حياتنا هانئة صافية » .

ولم يطرأ على ذهنها قط أنها رفضت مغادرة سنت بطرسبرج لأنها لم تستطع تحمل رؤيته ، وفى خطاب تلو خطاب حاول أن يخلب لبها بمغريات ثروته الهائلة ، وفى السوانح النادرة حين اهتمت بالرد على خطاباته ، وبدت ممسكة تماما بزمام الموقف ، فهى لن تحضر ، ولن تعاشره كزوجة ، ولن تسمح قط لأطفالها بالابتعاد عن نظرها ، فأجابها بأنها إذا حضرت إليه فسيعيشان معا كشقيق مع شقيقته ، ولن يحملها على أداء أى شىء ، فهو يحبها ، ويكفيه أن يراها فحسب ، فأجر منزله بحلة سنت متشيل ، واشترى منزلا فخما بالمدينة ، مطلا على غابة بولونيا ، وأنفق على تأثيثه أربعين ألف فرنك ، ووعدها بتيسير السفر إلى قصوره فى سنت بطرسبرج ودرسدن وباريس ، كما تشتهى ، فجميعها لها ، وقد اشتراها لمتعتها فحسب .

وحين فشلت هذه المغريات والوعود ، توعدها بقطع مايدفعه لها ولأطفال من إعانات ، وكتب لها يقول : « لقد استنزلت هذا على نفسك بمسلكك الملتاث

www.ibtesama.com/vb

غير المعقول ، فأنت دون غيرك مسئولة عن حرمان الصغار من الميراث، أقسم لك أننى قد حرمتهم نهائياً ، لقد تحققت أهدافك ، وهذا آخر خطاب سأكتبه لك قط فى هذه الحياة . »

وثمة خطابات أخرى كثيرة ، استرحمها فيها وتملقها وناشدها أن تدرك مافى تصرفاتها من خطأ ، وبكى بدمع سخين ، ولم يفطن أن خطاباته لم تسفر إلا عن تدعيم عزمها على أن تعيش بعيداً عنه ، وأخبرها أنه بجرة قلم واحدة ألغى الميراث الذى يربو على مليون فرنك لكل ،والذى كان قد أفرده لأطفاله «على الرغم من أننى كنت مستعداً أن أمنح حياتى لكل منهم ولهم جميعاً » ، فلم تتأثر إكاترينا أو تلن ، إذ كان لها أقارب أثرياء ، مع مبالغ كبيرة كان قد خصصها لها ، وظل شليمان ، بشيبه وصلعه ، ومنظره الذى يبدو أكبر من سنه ، يختفى وراء رداء طالب متوسط السن بالسوربون .

وعلى الرغم من أنه كان قد وعد أن يترك العمل مراراً ، فلم يوفق قط فى الوفاء بوعده ، وراح يطالع كل يوم الصفحة المالية بجريدة التايمس الصادرة بلندن ولا يكف عن دراسة السوق المالية ، وحين قرأ أن رجال السياسة الأمريكيين ، يرفعون عقيرتهم مطالبين بسداد قراطيس معينة بالأوراق المالية ، أدرك أن العملية ستستوعب آلاف الملايين من الدولارات ، وأن قيمة الذهب سترتفع فجأة ، وأن إصدار الورق المالى سيسفر عنه رفض القراطيس المالية ، وكان له رصيد ضخم من الأسهم والسندات الأمريكية ، وإذ خشى أن تهبط أسعارها ، استقر رأيه على زيارة أمريكا .

وأبحر إلى نيويورك فى سبتمبر عام ١٨٦٨ ، ولما وصل إلى واشنجتون ، قام بزيارة وزير الخزانة ، الذى أوضح له أن الحكومة الأمريكية لاتنوى رفض القراطيس المالية ، وبعد ذلك بقليل قام بزيارة للرئيس اندروجونسون كما زار من قبل الرئيس فلمور ، وكتب شليمان إلى صديق ألمانى بعد ذلك يقول «إن جونسون رجل

www.ibtesama.com/vb

بسيط للغاية ، فى نحو الخامسة والخمسين من عمره ، وقد أخبرته أننى قدمت للإعراب عن احترامى ، كما ذكرت أننى اغتبطت برسالته الأخيرة إلى الكونجرس وهى المتعلقة بكوبا،فأخبرنى أن لكوبا ميولا عظيمة نحو الولايات المتحدة ؛ وأنه سرعان مايأتى وقت تمتص فيه الولايات هذه الجزيرة » ، وليس من المحتمل أن يكون الرئيس قد وثق ، على هذا النحو ، بشخص غريب عنه تماماً ، ولكنه كان مغتبطا حقا بمحادثاته فى واشنجتن ، فقد أحس أن ممتلكاته العقارية فى كوبا مضمونة أكثر من أى وقت مضى ، كما اغتبط حين علم أن القراطيس المالية لن ترفض .

وأحب نيويورك ، أما واشنجتن فلم تعد تجتذبه إليها ، وكان فى الزيارة الماضية قد أعجب بالمبانى الضخمة ، والشوارع الفسيحة . وجو العجلة الملتاثة ، والزمالة الطيبة التى وجدها فى كل مكان ، أما هذه المرة فقد اختبر نيويورك بعينى رجل باريسى ، ولم يرسوى شوارع ضيقة سيئه الإضاءة ، وارتباكا ضارباً أطنابه بكل مكان ، والمدينة برمتها لا تزال تترنح من تأثير الحرب الأهلية،ومثل جميع الأوربيين أحس بالعطف على مصير الولايات الجنوبية ، فكتب يقول : « إنها تعامل اليوم كإقليم منهزم ، فهى تحت الأحكام العسكرية ، وليس لها ممثل سياسى ، ولا مال فيها أو مصارف أو وسائل للدفاع عن نفسها » .

وفى نفس الوقت أصبح شديد الاهتمام بالزنوج ، فزار مدارسهم ، وأنصت إلى أحاديثهم ، وملأ مدوناته بمقالات مسهبة عن فضائلهم ، وبعد ذلك ، وعلى حين غرة ، تلاشى اهتمامه بهم ، وانصرف بكل جوارحه إلى دراسة نظام السكك الحديدية الأمريكية ، فركب على كل الخطوط الموصلة إلى البحيرات العظمى،وكان قد وجد من قبل أن السكك الحديدية الأمريكية تعوزها الكفاية ، أما الآن فقد انشرح صدره لها بعد فحص شامل دقيق ،إذ لاحظ أنها جميعا تعطى حصة سنوية قدرها عشرة فى المائة .

www.ibtesama.com/vb

ولاحظ أشياء أخرى : ثمن النيلة ، وكمية الحبوب المصدرة ، وإحصاءات عن تقدم شيكاغو خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، وحجم المبانى فى أنديانابوليس ، وقيمة الخشب بأسعار السوق الجارية ، كان يتحسس طريق عودته إلى دنيا العمل ، التى لم يهجرها قط لحظة واحدة تمام الهجران ، وأضفت انديانا بوليس الغبطة على قلبه فقد تعرف على كثيرين من رجال الأعمال والسياسيين ذوى الشأن ، وأحياناً كان الحديث يدور حول تشريعات الطلاق بولاية أنديانا ، التى كانت آنذاك معرضة للتنقيح.

ولم يكن شليمان مواطناً أمريكياً ، على الرغم من أنه كان يدعى أحياناً أنه أصبح مواطناً حين كان بكاليفورنيا ، عندما انضمت تلك الولاية إلى الاتحاد ، ولكنه فى واقع الأمر لم يطالب بحق المواطن ، وكى يطلق زوجه ، وفق قانون أنديانا ، عليه أولا أن يصبح مواطناً ، وعرف هذا ، ومن ثمة قبمعونة أصدقائه الذين لم يتورعوا عن مط القانون قليلا ، دبر الأمر كى يصبح مواطناً فى العام التالى، فاشترى منزلا بأنديانا بوليس ، وحصة فى مؤسسة للنشاط هناك ، وقد اعتدل مزاجه ، وأصبح يرقب الوقت الذى يتخلص فيه من إكاترينا إلى الأبد .

وكان طوال رحلته الشتوية إلى أمريكا مبتهجاً مفتر الثغر ، وكان يركب على خطوط السكك الحديدية وهو فى غمرة شعور من يشرف على إدارتها ، وكان قد قام بعدة استثمارات حالية مجزية، كما قابل كل من يهمه مقابلتهم من رجال الحكومة ما عدا جنرال جرانت (الذى رفض مقابلته لسبب لم يوضحه) أما كل شخص سواه فقد بهره التاجر الذكى البتار ، الذى جمع ثلاث ثروات وتراءى أنه على وشك أن يجمع ثروة رابعة .

وعلى الرغم من ظاهره البهيج ، كانت التعاسة والوحدة تقطران فى أعماقه ، وكانت البهجة تتردد أصداؤها فى مدوناته ، بينما كانت خطاباته إلى سنت بطرسبرج وألمانيا تروى قصة متباينة ، ولم يكن راغباً فى تطليق إكاترينا ، موحيا

www.ibtesama.com/vb

إلى نفسه أنه مرغم عليه ، فكان يبعث إليها دائماً بخطابات يستعطفها فيها ، متهما نفسه ، مقراً بأخطائه ، واعدا أن يكون أكثر سخاء فى المستقبل ، وفى السادس من يناير ، وهو يوم عيد الميلاد بروسيا ، كان وحيداً بحجرة فى فندق بواشنجتن ، تكاد تنهر دموعه وهو يحلم بأطفاله ، وبشجرة عيد الميلاد ، والهدايا ، والضحكات المجلجلة ، وكان شقيا إلى أقصى حد ، فلم يرسل إليهم هدايا ، لابتعادهم عن أمهم ، أما الآن فقد أسف ، وكان يهمس إلى نفسه خلال تعبه وغضبه ، أن وجوده بينهم يساوى مائة ألف دولار بالنقد الأمريكى ، وزاد الطين بلة عجزه عن أن يشاركهم مسراتهم وأحزانهم ،وثالثة الأثافى أن عيد ميلاده السادس والأربعين كان فى اليوم التالى ، ولم يكن هناك من يشاركه إياه ، ومن ثم راح يطوف فى أنحاء واشنجتن كالشبح الهائم ، غير متجاسر على أن يفضى بأسراره لآخرين ، ملتحفا وحدته مثل رداء .

وأحيانا كان يؤثر عرض ظاهره الهادىء للعالم فى علانية صارخة ، وكان صديق قد أعطاه كتاب تزكية للسفير البروسى بواشنجتن ، وقدم شليمان نفسه إلى السفارة ، فستقبله السفير ، البارون ڤون جيرولت ، مرحبا ، وسأله عن مهمته فأجابه شليمان بأنه يقوم بزيارة للمجاملة ، وشرع يتحدث عن حياته فى باريس والثروة التى جمعها فى سنت بطرسبرج ، وفجأة انفجر السفير من فرط الغضب ، وصاح قائلا : « حسنا ، فلماذا لم تذهب لزيارة السفير الفرنسى — أو الروسى ؟ إن الروسيين قلة هنا ، ولكن الألمان كثيرون ، ووقتى لايتسع — » فخرج شليمان من السفارة وهو يحرق الأرم ، وحين رحل عن نيويورك إلى فرنسا ، فى فبراير كان آخر خطاب كتبه قبيل إبحار السفينة ، مؤلفا من ملاحاة مقذعة موجهة إلى البروسى ، يذكره فيها باستقباله غير الكريم له ،مرددا كل لفظ تفوه به السفير، متذكرا كل تفاصيل المحنة ، و بسبب الجرح الذى أصاب كبرياء شليمان ، فقد قذف السفير بآخر ما فى جعبته من هجو فقال : « أرجو أن أخطر سعادتكم أن معاملتكم لى غير المحتملة ، تكون الذكرى الوحيدة غير السارة ، خلال سياحتى

www.ibtesama.com/vb

الأخيرة ، سأذكر أمريكا كمكان كل من فيه مثقفون حقا ، دمثون، مهذبون — كل من فيه سواك ! » .

بعد ذلك حل ثانية بباريس ، وكانت أشجار « أبى فروة » مزهرة ، وغيوم الحرب مخيمة بالأفق ، فتلقى محاضرات بالسربون ، واستأنف دراسته فى فقه اللغة ، وتردد على المسرح ، وتسلى بشراء المزيد من المنازل ، وقام بدور صاحب الملك — كتب بإسهاب فى موضوع مواقد غاز الاستصباح ودورات المياه — ولم يمر وقت طويل بعد هذا حتى فطن إلى أنه سئم الحياة حتى الموت ، وكانت إبرة البوصلة لاتزال تدور ملتاثة مخبولة ، فهو يسير على غير هدى ، أو دون هدف فليس ثمة أمر هام ، يستحق أن يقوم به ، فهل يقضى حياته ، مشتريا حمامات القيشانى والمرايا لمستأجرى أملاكه ؟.

وفجأة ، وسط هذا الربيع غير المستقر ، حدث شيئان غيرا مجرى حياته ، ويبدو أنهما وقعا فى وقت واحد بعد عودته إلى باريس بوقت قصير ، وتلقى بعض المحاضرات فى علم العاديات بالسربون ، وتسلم خطاباً من ابنة عمه صوفى شليمان، وكانت عانساً فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد أفصحت له فى خطابها العاطفى عن حبها ، فبعث إليها رداً جافاً يقول فيه إنه يذكر الأيام التى قضياها معا فى كالكهورست ، ولكن ليست لديه أدنى نية فى أن يصرف وقته مغازلا امرأة متقدمة فى السن رفضت يوما ما أن تعانقه ، أو حتى أن تعطيه ذراعها ، لقد استيقظت فى أعماقه إساءات حزت فى نفسه ، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ، حين كان فى الرابعة عشرة من عمره، وطردها بنفس الأسلوب الذى طرد به السفير البروسى، وكانت قد ذكرت ، على استحياء ، أنها تود أن تسافر معه ؛ فكتب إليها يقول : « ما من شك أننى سأحسب نفسى مجدود الطالع أن أسافر مع امرأة خبيرة بشئون العالم ، أما أن أسافر مع قديسة ؛ مؤهلة للدير أكثر مما هى مؤهلة لمسرح هذا العالم العظيم — فهذا فى اعتبارى أشق شىء فى الوجود ! » .

www.ibtesama.com/vb

ولم تتسلم صوفى شليمان ، رفيقة طفولته ، الخطاب قط ، إذ ماتت يوم أن كتب .

وحين سمع بموتها ، بعد ذلك بأيام قليلة ، استبدت به موجة من الحزن الشديد ، وفى واشنجتن كان يقول لنفسه إنه يرضى أن يدفع مبالغ طائلة من المال ليشارك صغاره عيد الميلاد ، والآن يقول لنفسه إنه كان على استعداد لأن يفعل أى شىء ممكن لينقذ حياة ابنة عمه الوفية ، فأشهر أطباء هامبورج وبرلين كانوا سيخفون إلى فراشها ، وهو بنفسه كان سيلاحظها ، ولعله كان بحميته سينقذ حياتها ، « لم يكن ثمة شىء فى الحسبان ، ثمة شىء حسى ، فى الحب الذى حملته لهذا الكائن الملائكى النقى ذى القلب الوفى » ، وطلب صورة فوتوغرافية لنعش صوفى ، واستشاط غيظاً لأن الخطاب لم يلصق به طابع البريد ، وكتب عنوانه خطأ ، فأسفر هذا عن تعطيله ، وأخبر شقيقاته أنه كان يود بجدع الأنف لو أنه سافر معها حول العالم عشر مرات ، ولو أنه علم فقط لكرس الأعوام الباقية من حياته لها ، واتهم نفسه بالجحود التام لأنها كانت قد أرسلت له خصلة من شعرها قبل رحيله من أمريكا بقليل ؛ فرماها بإهمال فى حقيبته ؛ ولكنه استردها ، وتحدث عن وضع هذه الخصلة فى صندوق من الذهب مطعم بالماس ، يحمله على قلبه ، « سأفعل هذا مادمت على قيد الحياة ؛ لأن شعرها الجميل أصبح أقدس كنز فى حياتى » .

وأصابه موت صوفى شليمان فى أشد مكان من نفسه عطبا ؛ كان قد أحبها لفترة قصيرة ثم استبعدها من ذهنه ؛ ولكنها كانت إحدى القليلات المقربات دائماً إلى نفسه ، فهى الفتاة الوحيدة ، بجانب مينامينكى ، التى كانت قد أحبته لذاته ، وكانت ، لمرحها وإقدامها ، من تلك الفتيات اللاتى يبدون ، وهن فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، كما لو كانت حياتهن ستستقر فى زواج هنىء ، ولكنهن اخترن بدلا من ذلك أن يصبحن عوانس ، وكان يفكر فيها بهيام على فترات متباعدة ، وقبيل زواجه من إكاترينا كان قد كتب لشقيقاته يسأل

www.ibtesama.com/vb

عنها ، وملمحا إلى أنه كان يفكر جدياً فى الزواج منها ، ولكن ذلك كان منذ خمسة عشر عاماً ، ولم يكن لديه أى انطباع واضح عنها ، وعلى حين غرة ماتت ، وعلى حين غرة أيضا عادت من القبر لتتردد عليه .

وكان رجلا مجردا من العقيدة الدينية ، ومن أى رجاء فى حياة أخرى ، وكان يؤمن أن الإنسان هو المقياس لكل شىء ، فبالجد والحذق يستطيع أى إنسان أن يجمع ثروة ويستمتع بما فى العالم من خيرات ، ولكنه وجد الآن أن كلمات السر القديمة تعوزه ، وكان حزنه لموت صوفى مشوبا بالمبالغة والأسى الذاتى ، ولكن ثمة قنوط حقيق ، كان بالخطابات العجلى التى بعث بها إلى ألمانيا يطلب تفاصيل وفاتها ؛ وصورة لها ، وأى شىء يساعده على تذكر معيشتها ، فعلم وهو مرتعب أنها قضت الشهور الستة الأخيرة من حياتها فى فقر مدقع ، وحينئذ تناهت تعاسته ، فقد تحقق أنه كان فى استطاعته ، بجزء تافه من ثروته ، أن يسرى عنها فى أيامها الأخيرة ، واضطر الرجل المتكبر أن يفحص دوافعه النفسية : لماذا يعيش ؟ ما علة تعاسته ؟ لماذا يضرب فى فيافى الأرض دائما كشحاذ شريد ، لا صديق له ولا رفيق ، ولا أطفال يحيطون به أو زوجة تخفف متاعبه ؟ ... لابد أن هناك إلاها ولا بد أن بالعالم بعض رجاء فى السلام .

ثم هات عليه ، فى هذا الربيع غير المحتمل ، ذكرى هوميروس التى سبق أن فتنت طفولته — لا الإلياذة بقصتها عن حصار طروادة ، بل الأوديسا التى تروى قصة المتجول الشريد الذى يعود أخيرا إلى موطنه — فهو سيذهب إلى ايتاكا ، حيث وجد أوديسيوس زوجته بنلوبى (Penelope) بجبله الحصين متسامقا فوق البحر الأيونى ؛ وهو سيقف هناك ، وبوسيلة ما ، بمجز لا تزال مغلقة على الأفهام ؛ سيهتدى هو الآخر إلى بنلوبى التى يبحث عنها ، ومن ثم ينتهى طوافه ويقر قراره .

وكان الانطباع الذى يتركه شليمان دائما على الآخرين أنه رجل عزيمة لا يتردد ،

www.ibtesama.com/vb

يعرف تماماً أين يريد أن يتجه ؛ وكانت نظرته تنبىء عن العزم الأكيد ؛ وفى استطاعته أن يزيد مبالغ بسرعة هائلة ، ويبت فى الشئون المالية سريعاً وفجأة ، مع مقدرة فطرية على القيام بالمعاملات المركبة فى العروض التجارية ، ولكنه كان فى جميع الشئون الأخرى بطيئا متلكئا ، غير واثق فى نفسه ، مدركا فى إشفاق لمكامن النقص فيه ، وجميع نقط التحول الكبرى فى حياته تقريبا جاءت نتيجة لقوى ليس له عليها سلطان ، وهو لم يذهب إلى بلاد اليونان لإيمانه بقدراته كعالم فى العاديات ، ولكنه ذهب لأن شبح صوفى شليمان كان يتردد عليه ، ولأن زوجته صدته ، ولأنه بعد لأى اهتدى أخيرا إلى إله يفوقه إلى غير حد ، حتى استحال عليه أن يحبس عنه ولاءه المتعبد التام .

وتحول ، فى أساه ، إلى هوميروس ، الذى كان قد تسلط على طفولته ، ولم يدهشه أن يجد أن ما كان ينشده ، كان منذ البداية أقرب إليه من حبل الوريد ، وكان اسم إلهه هوميروس — ليس هوميروس الشاعر ، ولا هوميروس أستاذ اللغة المركبة التى هيأت الأعذار لجولات فى فقه اللغة ، ولا هوميروس المعتبر كأب لمؤلفى المسرح المتسامين — بل هوميروس الذى خلق عالما راسخا ، فاتنا ، صادقا ، يستطيع الإنسان أن يعيش فيه ويرفع رأسه عاليا .

وحين يمم شطر بلاد اليونان ، فى مستهل صيف عام ١٨٦٨ ، كان قد استقر رأيه فعلا على أن يشتغل بعلم العاديات ، فينبش الأرض ويرفع الركام عن القصر المتسامق فوق جبل اتيوس ، أو « صخرة عُقاب الجو » وهو القصر الذى دخله أوديسيوس متنكرا فى زى شحاذ فى ثياب مهلهلة ، عند عودته من أسفاره الطويلة .

وكى يصل إلى ايتاكا ، ذهب إلى روما ونابولى ، وأقلع فى سفينة إلى كورفو ، فقضى يوما واحدا فى كورفو ، وهى كوركيرا القديمة (Corcyra) ولعلها كانت جزيرة هوميروس « سخيريا » (Scheria) ، موطن جماعة الفايكيين (Phaeacians) النبيلة ، حيث شيد الملك الكينويس (Alcinoüs) قصره الضخم ، وحيث قامت ابنته الجميلة نوسيكا (Nausicaä) باستقبال أوديسيوس ،

www.ibtesama.com/vb

ولم يستطع أن يجد أى أثر لقصر الكينويس ، ولكنه وجد النبع الأسطورى ، حيث غسلت نوسيكا ملابسها ، ولعبت مع وصيفاتها ، وبعد أن سبح وهو عار فى النبع ، بحث عن المكان الذى اختبأ فيه أوديسيوس بين الأشجار ، وسره أن يقف وقد تجرد من ملابسه ، حيث وقف أوديسيوس وهو عريان ، ولكن فتيات نوسيكا لم يحتطن به كما احتطن بأوديسيوس ، وكذلك لم تأخذه إلى القصر تلك العربة ذات النقوش العجيبة .

وفى اليوم التالى أقلع فى قارب بخارى إلى كفالونيا (Cephalonia) ، أكبر جزائر ايونيا ، ولكن عاصمتها القديمة كان قد خربها الرومانيون ، ولم يجد هناك ما يهمه سوى القليل ، وسرعان ما عبر الشقة الصغيرة من البحر التى تفصل كفالونيا من ايثاكا ، وكان قليل الارتياب فى سوابق هوميروس المتعلقة بالجزائر الأخرى ، أما فى ايثاكا فكل شىء كان يذكره بهوميروس ، وكتب يقول : « كل تل ، وكل صخر ، وكل نبع ، وكل دغل من أشجار الزيتون ، ذكرنى بهوميروس ، ومن ثم وجدت نفسى بقفزة واحدة ، مندفعا عبر مائة من الأجيال ، فى عصر فروسية الإغريق المتألق » .

فمن اللحظة التى وضع فيها قدمه بايثاكا أصبح كرجل مسلوب اللب ، فحتما عليه أن يذهب إلى كل مكان ، ويرى كل شىء ، وعلى الرغم من حرارة الطقس — وقف مقياس الحرارة عند درجة ١٢٠ فهرنهيت — كان يهذى من فرط غبطته ، ولم تكن هناك فنادق ، ولكنه وجد محلا لإقامته مع عانستين مسنتين ، وقابل طحانا ، معه حمار ، عرض عليه أن يطوف به حول الجزيرة ، الشبيهة برقم ثمانية ، وبها برزخ وعر رفيع ؛ وتقول الأسطورة إن قصر أوديسيوس كان فوق هذا البرزخ .

وكان هذا الطحان ، المدعو بناجس ابروبيركا ، يعرف كل أساطير أوديسيوس ، وقد أبهج شليمان بتلاوتها فى إسهاب ، وكان شليمان يقاطعه أحيانا وهو يسأله :

www.ibtesama.com/vb

« أهذا ميناء فوركس (Phorkys) ؟ أين غار حوريات الماء ؟ أين حقل ليارتس (Laertes) ؟ » ولكن الطحان كان من فرط انهماكه فى قصصه لا يجيب عن هذه الأسئلة ، وقد علق شليمان وهو يتثاءب : « كانت الطرق طويلة ، ولكن قصص الطحان كانت طويلة أيضا » ومع ذلك فقد أحب الطحان وألفه ولم يفترق عنه ، كذلك استراح إلى القرويين — القرويين الذين كانت تلفهم غلالة من التيل على الرغم من خشونتهم ، وكانوا ودودين مجدين ، ذوى عيون أمينة ، جديرين بسلفهم العظيم اوديسيوس — وفوق كل هذا أبهجته فكرة كشف القصر ، وهكذا بعد يومين من الارتياد ، نظم حملة إلى جبل ايتيوس .

وكانت حملة صغيرة قليلة التكاليف ، تتكون من أربعة عمال وأتان ، وإذ كانت الحرارة على أشدها فى هذا الوقت من العام ، صدرت إليهم الأوامر أن يبدءوا الرحلة فى الساعة الخامسة صباحا ، فشليمان سيستيقظ فى الرابعة ، ويستحم فى البحر ، ثم يحتسى قدحا من القهوة السوداء ، ويقضى الساعتين التاليتين فى تسلق سفح الجبل ، وهناك يستطيع أن يتطلع ، متخطيا البحر ذا اللون النبيذى القاتم ، إلى جبال بيلوبونيز (Peloponnesus) ، وكان يبدو له أحيانا أنه يستطيع أن يرى بلاد اليونان بأسرها .

ولم يجد فى اليوم الأول شيئا ذا أهمية ، ولكن اليوم لم يذهب هباء ، حين قدم ريفى وعرض عليه وعاء للزينة ، وعملة فضية من كورنثا ، على وجه منها رأس مينرفا ، وعلى الآخر جواد ، وفى اليوم التالى دفع العمال إلى انتزاع الأخشاب من السور المحيط ، وجعلهم يحفرون فى الركن الشمالى الشرقى ، والتمع فى ذهنه أنه من المحتمل أن يكون اوديسيوس قد بنى ، هنا فى هذه البقعة بالذات ، حجرة زفافه — تلك الحجرة التى شيدت حول شجرة زيتون مورقة متسامقة ، كانت قد تحولت إلى فراش للنوم .

وواصل العمال الحفر ، ولكنهم لم يجدوا شيئا حتى مرت ثلاث ساعات ،

www.ibtesama.com/vb

بعدها وقعوا على أحجار أساس لمبنى ، عرضه ثلاثة أمتار وطوله أربعة أمتار وثلاثة أرباع المتر ، فاحتوت شليمان غمرة من الانفعال ، إذ ظن أنه عثر على أساسات حجرة الزفاف ، ثم عثر على حجر نصف دائرى ، مغطى بالأتربة ، فرفعه بعناية واستمر فى الحفر ، وتحت السطح بأربع بوصات اصطدمت الفأس بإناء رفيق للزينة ، وحطمته شظايا ، وبعد برهة قصيرة وجد عشرين وعاء أخرى للزينة ، بعضها فى وضع رأسى ، والبعض الآخر على جوانبه ، وجميعها تحوى رمادا ، وكان واثقا أنه رفات بشرى ، ثم وجد سكينا للذبائح طوله ست بوصات ، وإلهة من الخزف ممسكة إلى فمها بآلتين من الناى ، وبعض عظام الحيوان .

ولم تكن هناك نقوش ، ولكن حماسته بلغت الآن الذبى ، والتفت إلى العمال وقال لهم إن أحد تلك الأوعية الجنائزية لا يبعد أن تكون به رفات اوديسيوس ، وكتب فى مدونته « أعتقد أن هذه الأوعية تزيد فى قدمها على أقدم أوعية من كوماى (Cumæ) فى متحف نابولى ، ويحتمل جدا أنها تحتوى على رفات اوديسيوس وبنيلوبى أو خلفائهم » . ولعله حاول بهذه الكلمات الأخيرة أن يهدىء ريبة نفسه .

لقد قام بأول كشف له ، وشهيته الآن للتنقيب والعاديات قد اشتدت ، ولأول مرة وقف فوق تربة مقدسة ، ورأى الماضى الخفى يتطلع إليه من باطن الأرض ، وبدلا من حجرة الزفاف وجد رفات الموتى ، وغمرته موجة من الامتنان والشكر ، ومن سوء الطالع أن هذا النجاح الأول الذى جاءه هينا ميسرا ، ساقه إلى الإيمان بموهبته الفطرية كعالم فى التنقيب والعاديات ، ومن ثم فقد اتخذ نفس المنهاج فى كل ما قام به بعد ذلك من حفر وتنقيب ، وكان هناك دائما « ركن شمالى شرقى » وبالحدس ، وهو ممسك فى يده بمؤلف لهوميروس ، كان يتخير بقعة حيث يظن أن هناك احتمالا لوجود أشياء ثمينة بها ، ثم يأمر العمال بالحفر ، وفى حالات نادرة فقط ، استطاع أن يوضح علة اختياره للبقعة ، وكان يعمل بالفطرة والحماس ، متلمسا طريقه فى الماضى ، فكانت النتيجة أنه قضى معظم

www.ibtesama.com/vb

سنى حياته الباقية فى تنقيب غير مثمر ، ومرتان اكتشف كنوزا عظيمة من الذهب ، ولكنهما كانتا من الشواذ .

وكنتيجة لما قام به من حفر فى أول صباح ، حصل على عشرين وعاء للرفات ، وآلهة من الخزف وسكينا ، وفى غمرة من الانفعال ، نسى الحرارة وظمأه الشديد ، وحل الظهر وكانوا لم يذوقوا طعاما منذ الصباح الباكر ، فقرر أن الوقت أزف للإفطار ، وسار مبتعدا قليلا عن القمة ، وأوى إلى ظل شجرة زيتون بين الأسوار المزدوجة ، وخطر بباله أنه من المحتمل أن يكون اوديسيوس قد فاضت دموعه هنا ، فى نفس البقعة ، حين رأى الكلب أرجوس الذى مات من فرط السرور لرؤيته سيده عائدا إلى منزله ، وخطر بباله أيضا ، أنه من المحتمل أنه على كثب من هنا ، أو على بعد غير قصى ، نطق يوماؤس (Eumœus) راعى الخنازير ، بهذه الألفاظ المروّعة : « زيوس (Zeus) ، المطلع على كل شىء ، ينتقص نصف قيمة الإنسان حين يصبح عبدا » ومثار الدهشة أنه ، ولديه الكثير من الأوديسا يتخير منه ، لم يذكر سوى هاتين الفقرتين : العبودية والعودة الظافرة ، وهما قطبا ذهنه .

وبعد وجبة خفيفة من الخبز والخمر ، رقد العمال للقيلولة ، واستأنف شليمان الحفر ، وتذكر فيما بعد أن خمر ايثاكا أقوى ثلاث مرات من خمر بوردو ، وتأثر بالمسكر قليلا ، ولكنه لم يعثر على شىء آخر ذلك اليوم ، ولا فى اليوم الذى يليه ، وقام بتحريات فعرف من أولئك القرويين ذوى الذاكرة القوية أن شخصا ما ، يدعى كابتن جويتارا ، كان قد عثر على أقراط وأساور ذهبية ، فى عامى ١٨١١ ، ١٨١٤ ، ولكن أحدا لم يعرف مكان تلك الأشياء الثمينة ، وفى « حقل لايرتيس » تلا عليهم آخر سفر من الأوديسا ، مترجما كلماته إلى لغتهم الخاصة .

واحتشد الفلاحون من حوله ، وقد زالت الدهشة والغبطة عليهم ، لرؤيتهم

www.ibtesama.com/vb

أجنبياً يعرف أساطيرهم ، حتى إنه يستطيع تلاوتها من الذاكرة ، ووفق رواية شليمان للقصة ، كادت أن تكون أعظم لحظات إقامته فى ايثاكا :

« لم تقف حماستهم عند حد ، وهم ينصتون إلى لغة هوميروس الشجية — اللغة التى كان يتخاطب بها أسلافهم الأمجاد منذ ثلاثة آلاف عام ، فسمعوا عن الآلام الفظيعة التى عاناها الملك لايرتيس الطاعن فى السن فى نفس المكان الذى كنا جميعاً محتشدين فيه ، وسمعوا أيضاً عن بهجته الغامرة حين وجد ثانية ، بعد عشرين عاما ، الابن الذى كان يظن أنه مات ، فانهمرت الدموع من جميع العيون ، وحين ختمت النشيد ، خف الرجال والنساء والأطفال إلى وعانقونى قائلين : « لقد أضفيت علينا سروراً غامراً ! لك منا الشكر آلاف المرات ! » ثم حملونى ، فى تكريم الظافر ، إلى مدينتهم . »

* * *

بعد ذلك بأيام قليلة ، ولم يكن قد وفق إلى أى كشف آخر ، أبحر إلى كورنثا وهى مكان مقبض خال من الفنادق ، والتزم مرة أخرى أن يقضى ليلة فى فندق معتم تعج مفروشاته بالبق ، وفى صباح اليوم التالى استيقظ مبكراً ، وسبح فى البحر مدة نصف ساعة ، واهتدى إلى دليل وأتان وجنديين لمرافقته ، واتجه صوب الجنوب إلى مايكناى ، التى لم تخلف فى نفسه أثراً عميقاً ، على الرغم من أنه قاس الأسوار وأعجب بباب الأسد .

وكان قد ترك دليله ومرافقيه بقرية شرفاتى ، وحين عاد بعد الظهر وجدهم مستغرقين فى النوم ، وكى يوقظهم اضطر أن ينضح وجوههم بالماء ، وأطلعهم على رغبته فى مواصلة السير إلى أرجوس ، ولكنهم أخبروه باستحالة الوصول إلى أرجوس فى ذلك المساء ، « لم تكن لدى أية رغبة فى البقاء بهذه القرية . وهى أقذر وأفقر ما رأيت ببلاد اليونان — فلا ماء عذب ، ولا خبز ، ولا طعام ، إنما وشل من ماء المطر المالح » وبإغرائه للدليل ، وإعطائه الجنود هدايا صغيرة ،

www.ibtesama.com/vb

استطاع مواصلة السفر والوصول إلى أرجوس ، ولعله ، بسبب إعيائه من طول السفر ، وحرارة الطقس ، وحقارة الفندق ، لم يكن لديه سوى القليل يسوقه عن المكان ، على الرغم من ذكره « إنها كانت أعظم وأقوى مدينة ببلاد اليونان القديمة ، وقد اشتهرت بتعلق سكانها بالفنون الجميلة ، وخاصة الموسيقى » وهذا يبدو كضرب من الإغراق ، يعوزه الإقناع ، وهو يبدو أكثر إشراقاً حين يناقش خمور أرجوس الحلوة الفاخرة — لقد وجدها رائعة .

وبعد ظهر اليوم التالى يمم شطر ترينس (Tiryns) القلعة العظيمة المحصنة بأسوارها الهائلة ، ولكنها لم تستهوه بنوع خاص ، والصفحتان اللتان أفردها لترينس متعلقتان بمشاكل فى فقه اللغة ، وإذ سئم الخرائب ، وضايقه مرافقه ، سار بمفرده إلى نوبليا (Nauplia) ، مبتهجاً بعودته إلى الشاطىء مرة أخرى ، حيث كان الطقس لطيفاً ، ولم تكن ثمة حاجة للطواف على ظهر حمار بغير برذعة ، وسيقوم فى الأعوام القادمة بكشوف عظيمة فى مايكناى وترينس ، ولكن نظرته الأولى إليهما لم تكن مستبشرة .

وأنعشت نوبليا روحه ، فهنا فندق ، وطعام شهى ، وراحة من الطواف ، وهنا ، بينما كان فى انتظار سفينة تحمله إلى جزيرة هيدرا ، وقعت حادثة غريبة ، فبعد ظهر هذا اليوم إذ كان يسير فى الطريق العام ، شاهد خمسة رجال ، يشقون الغبار متثاقلين ، والأغلال حول سيقانهم ، وكان واضحاً أنهم سجناء ، صرح لهم بالتغيب عن السجن العام ، وإذ رأى أحد هؤلاء السجناء شليمان وهو يحمل بعض الكتب ، تقدم إليه وسأله أن يعيره كتاباً أو صحيفة ، وكان الرجل قروياً مهيباً متين البنيان ، حسن القسمات ، فسرعان ما أعطاه شليمان كتاباً فعبر السجين عن امتنانه ، وفحص الكتاب بعناية ، وقد أمسكه مقلوباً رأساً على عقب ، وعندئذ سأله شليمان فى دهشة حائرة قائلا : « أتعرف القراءة ؟ » فأجابه السجين : « ولا كلمة واحدة ، ولكنى سأتعلم سريعا . » وأقبل السجناء الآخرون ، وسألهم عن علة وضعهم بالأغلال ، فأجابوا بأنهم قرويون مسالمون من المرتفعات ،

www.ibtesama.com/vb

قبض عليهم بلا سبب ، وأنهم يقاسون من عنت رجال الشرطة وخيانتهم ، وتحدثوا فى رقة وبسالة ، وشجع شليمان تعلقهم بالقراءة ، ولكنه علم بعد ذلك أنهم جميعاً قتلة سيعدمون فى القريب العاجل .

وبعد أيام قليلة أبحر إلى أثينا حيث جدد علاقته بثيوكليتوس فمبوس ، وهو الرجل الذى علمه اللغة اليونانية بسنت بطرسبرج ، وأصبح فمبوس الآن أستفاً على مانتينا وأستاذاً بجامعة أثينا ، وظلا بضعة أيام لا يفترقان ، وبعد ذلك رحل شليمان فى شهر أغسطس إلى طروادة عن طريق القسطنطينية ، وحصل القنصل الروسى له على دليل وجوادين .

وكان البشر يغمره حين طوافه بسهل طروادة وكانت الأرض زلقة ناعمة ، وبها أدغال من أشجار التنوب والبلوط ، وكان الماء عذبا والماء كالخمر ، وعند بونارباشى (Bunarbashi) حيث طال الاعتقاد بأنها مكان طروادة ، وجد حشدا من المنازل الصغيرة ، التى يسكنها الأتراك والألبانيون اليونان ، وكانت الأسوار مسودة بأسراب الناموس ، والأهالى ذوى خصاصة ، وحين طلب حليبا ليطفىء ظمأه ، قدم إليه فى إناء ، لم ير النظافة ، على حد زعمه ، منذ عشر سنوات ، ولقد ضايقه تبجح القرويين ، وغباء الأدلاء ، ولكنه ابتهج برؤية طيور اللقلق ، مرفرفة بأجنحتها ، فوق أسطح المنازل ، لأنها ذكرته بأنكر شاجن ، وكتب فى مدونته يقول : « إن طيور اللقلق نافعة جداً ، فهى تأكل الحيات والضفادع » ، كان قد حلم بطروادة من الرخام الأبيض ، دائمة ذات جلال ، تتألق فى أضواء خالدة من الخيال ، فلم يجد فى بونارباشى سوى القاذورات ، وأكوام القمامة ، والأبخرة العفنة المتصاعدة من المستنقعات المحيطة ، ولم يكن ميالا لأن يحسن الظن ببونارباشى ، على بعد عشرة أميال من البحر ، فهوميروس يتحدث عن قيام الإخائيين بسبع أو ثمانى رحلات يوميا من شاطىء البحر إلى موقع طروادة ، واعتقد شليمان أن تل هيسارليك (Hisaarlik)

www.ibtesama.com/vb

بطرف الوادى الغربى ، أكثر احتمالا أن يكون هو الموقع ، وهو يشارك فى هذا الرأى ، تشارلس مكلارن (Charles Maclaren) ، العالم الإنجليزى الذى وضع عام ١٨٢٢ مؤلفا بعنوان « بحث فى تخطيط موقع طروادة » ، وأخذ بهذه الفكرة نفسها فرنك كلفرت (Frank Calvert) ، وهو انجليزى كان يشتغل نائبا للقنصل الأمريكى بالدردنيل ، وكان يملك نصف التل ، وكان قد قام ، مع القنصل النمسوى فون هاهن (Von Hahn) ببعض تنقيبات تمهيدية ، وإذ اقتنع أنه عثر على موقع طروادة ، وضع تقريراً عن كشوفه ؛ نشره « بصحيفة علم العاديات » ، ودعا المتحف البريطانى كى يبدأ التنقيب على نطاق واسع ، وعلى المنحدر الشرقى من التل كان كلفرت قد اكتشف بقايا قصر أو معبد ، مكون من كتل كبيرة من الصخر المنحوت ، وكان يود أن ينال البريطانيون شرف الكشف عن طروادة ، ولكن مقترحاته لم تسفر عن شىء ، وكان مقتنعا أنه اكتشف طروادة ، بينما كان شقيقه فردريك ، الذى يملك ضيعة مساحتها خمسة آلاف فدان قرب بونارباشى ، مقتنعا هو الآخر أنه اكتشف طروادة ، وكان فرنك كلفرت قد بدأ فعلا تنقيبه بحفر خندقين ، عبر التل ، فلم يزد شليمان على أن يحذو حذوه .

وحين ركز شليمان اهتمامه على تل هيسارليك، بدأ كل شىء ينتظم فى مكانه . فلمسالك وهيئة وحجم التل ، وما كشف عنه الخندقان اللذان حفرهما كلفرت ، أثبت أن تل هيسارليك هو طروادة ، وللكشف عن أطلال قصر بريام ، لم يكن الأمر فى حاجة إلى أكثر من إزالة قشرة التل ، ووفق تصوره كانت القلعة فوق التل ، بينما امتدت المدينة من حولها ، فى مثل امتداد أثينا أسفل الأكروبول ، فثمة أطلال مطمورة فى الأرض حول التل ، بينما يحتوى التل نفسه على القصور الرخامية والكنوز وعظام الأبطال ، وفى الحادى والعشرين من أغسطس ، أى بعد ذلك بأقل من أسبوعين ، عاد إلى القسطنطينية ، حيث انهمك فى مناقشة نظرياته مع فرنك كلفرت .

www.ibtesama.com/vb

وكان فى حالة نفسية تستحثه للعمل السريع ، فالخطط مترامية ، وضروب البت مباغتة ، والهجمات على التل عنيفة — فهو مستعد لمصارعة أشباح الماضى فورا — وكان كلفرت ، وذهنه أكثر بطئا فى حركته ، يجد بعض المتعة فيما يبديه شليمان من تحمس شديد ، وإذ كان رجلا يؤثر الهدوء والسكون فقد أشار بأن الوقت من العام كان متأخرا للقيام بالحفر ، وأنه قد يحسن الانتظار حتى الربيع التالى ، كان لابد من القيام باستعدادات هامة ، من ضمنها « فرمان » تصرح فيه الحكومة التركية بالقيام بأعمال التنقيب ، ووعد كلفرت فى كرم ألا يعترض الطريق ، فنصف التل كان ملكا له ، وكان فى استطاعته ، لو شاء ، مساومة شليمان ، ولكن يبدو أن هذا لم يخطر بباله قط ، ويظهر أن شليمان ، فى كل معاملاته مع نائب القنصل ، كان مأخوذا قليلا إزاء تصرف الإنجليزى ، الذى ساعده فى كل مناسبة ، دون أن يطالبه بشىء ، وكان مسلكه فى كل الأمور مناقضا لمسلك التجار ، الذين كانوا يطالبون دائما بأفضل الشروط المستطاعة ، وما من كشوف فى طروادة كانت ستتم لولا معونة كلفرت .

وكانت طروادة قد أصبحت الشبح الجاثم فوق صدر شليمان ، ولكن ثمة مسألة أخرى كانت تنهش ذهنه ، هى مسألة طلاقه القادم من إكاترينا ، فأصدقاؤه بأنديابوليس كانوا قد وعدوه بالطلاق فى الربيع القادم ، ولهذا دبر الأمر على أن يكون بأمريكا فى الربيع ، وحالما توقع وثيقة الطلاق يعود إلى طروادة ، وفى غضون ذلك عزم على أن يقضى الخريف والشتاء بمنزله فى محلة سنت ميشيل ليكتب وصفا لرحلته ، داخل بلاد اليونان ، التى ستستغرق ستة أسابيع .

وكتابه الذى سماه « ايثاكا والبلوبونير وطروادة » يقع فى معمعة يتصارع فيها العالم الأثرى ، والعالم فى فقه اللغات ، وعالم العاديات ، والمؤرخ ، ورجل الأعمال ، والطفل المبهور ، فثمة صفحات كاملة بل فصول ، شديدة الجفاف لمن يطالعها كأنها أبحاث فى الطب أو غيره من العلوم ، ولكن ثمة وهجا بهيجا يتألق بالكتاب بين الفينة والفينة ، فالآلهة الذين اختصوه بالثراء والألمعية

www.ibtesama.com/vb

ومعرفة الكثير من اللغات لم تهبه ، مع الأسف ، أسلوبا أدبيا مقبولا ، فكثيرا ما يكتب كصاحب مصرف ، فمعلمه فى نيو سترليتز كان قد وصفه بأنه « عامل مجد كادح ولكن يعوزه دائما وضوح التفكير » ، فالكتاب قليل الوضوح ولكنه يعج بالكثير من علامات الجد فى مناقشات فقه اللغة المطولة ولكن الأفكار أحيانا تطفو مندفعة من أقصى أغوار ذهنه الفسيح .

وهو لا يقوم بأية محاولة لإخفاء نفسه : رغبته فى المجد ، ونزعته إلى الاكتناز ، واحتقاره العابس لكل شخص يقابله تقريبا ، وابتهاجه كلما قابل فى أسفاره أحد أصحاب المصارف الآخرين الأثرياء ، وحين يصف كيف تلا السفر الرابع والعشرين من الأوديسا ، لفلاحى ايثاكا المتعبدين ، ويكاد أن يكون مستحيلا تصديق حدوثها على هذا النحو بالضبط ، ومع ذلك فمن السهل تصديق ما كان يخالجه من عطف فطرى إزاء السجناء المصفدين الذين قابلهم فى نوبليا ، كان رجلا متناقضا مع نفسه ، والكتاب يبين ذلك ، فهو يستعرض معرفته ، ويقتبس من المراجع التى تدعم حججه ويهمل أحيانا ما يعارضها ، ويضرب بكل أحجية فقهية عرض الحائط ، وحيث يتخاصم هوميروس وسترابو ، يسكب على الأخير جام تهكمه ، وإذ نصب نفسه مدافعا عن هوميروس ، كان ينسب التحامل لكل شخص يجرؤ على أن يجد أى خطأ طبوغرافى فى شاعره المحبوب ، ويبرز معتقده الأصولى فى تأليه هوميروس واضحا من هذا الكتاب ، بالإضافة إلى طبع المناضل عن عقيدته الدينية .

وهذا الكتاب ، وهو أشتات من مدوناته وفضلات من فقه اللغة ، كان جواز وصوله إلى الشهرة ، ولقد كتبه بالإنجليزية متعجلا ، ثم ترجمه إلى الألمانية وبث به إلى ناشره فى ليبزج ، الذى طبع منه سبعمائة وخمسين نسخة لحساب المؤلف ، ويمكن ملاحظة مدى اهتمامه البالغ بدروه كمؤلف من الخطاب الذى كتبه فى مستهل نوفمبر إلى ابنه سيرجى البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما :

www.ibtesama.com/vb

أكدح نهاراً وليلا فى أعمال التنقيب عن الآثار ، ذلك لأن لدى فى الواقع الأمل فى تحقيق بعض الشهرة كمؤلف ، وأنا عضو فى الجمعية الأثرية والجغرافية هنا، وقد قرأت على أعضائها نحو ثلاثين صفحة من الكتاب ، ولشد ما يسرنى أن أخبرك أن ملاحظاتى قوبلت بحماس .

وإذا لاقى هذا الكتاب نجاحا فسأصرف بقية حياتى فى وضع الكتب ، ذلك لأنى لا أستطيع أن أتصور عملا أكثر متعة من وضع الكتب الجادة . فعند الكتابة يحس المرء دائما غبطة ورضا وهدوءاً نفسيا ، وحين يبرز كاتب ثانية إلى المجتمع ، يكون لديه آلاف الأشياء ليقولها ـ ثمار أبحاثه وتأملاته الطويلة ـ ومن ثمة يستطيع أن يبهج كل أحد ، وجميع الناس يكبرون الكتّاب ويرحبون بهم وعلى الرغم من أننى كاتب مبتدىء فقط ،فلدى من الأصدقاء عشرة أمثال ماأريد .

* * *

والواقع أنه كان محروما من الأصدقاء الحميمين أو يكاد ، وتحزى كل خطاباته تقريبا احتجاجات خفية ؛ وصرخات يائسة خافتة ، تتلمس الصداقة والتفاهم وكانت بلاد اليونان قد أضفت عليه الدفء ، ولكنه كان لا يزال عصى الإيناس ، قصى العاطفة ، سهل الإحساس بجرح مشاعره ، قليل الاهتمام بمشاعر الآخرين ، مكبرا لنفسه فى سرف ملتاث ، وكان أرنست رينان يتصدر المجتمع الباريسى كالأسد الرئبال ، وكان شليمان يرجو متلهفا أن يسير على منواله ، دون أن يكون متحليا بدماثة رينان ولين عريكته ، ويتبين من كتابه لابنه أن معرفته بأعباء التأليف وقطوفه كانت قليلة .

وفوق هذا كان شليمان مسوقا بنزعة لتكريم الناس وتبجيلهم له ؛ فضروب التكريم التى كان العالم يغدقها العالم على من يشغلون مراكزه العليا كانت تعنيه كثيرا ، فلم يكن ثمة شىء يشرح صدره قدر مخاطبته بلقب « هر دكتور » وكان أمله فى الحصول على « الدكتوراة » من السوربون،أحد الأسباب الرئيسية

www.ibtesama.com/vb

لبقائه فى فرنسا ، ومن سوء الطالع أن منهاج الدراسة بالسوربون كان مرتباً بحيث لا يستطيع معه أن يرى فى نفسه سوى طالب غير منتظم ، ومن ثم تقدم للالتحاق بجامعة روستوك ، وحين سؤل عن موضوع البحث الذى ينوى تقديمه، اقترح أن يقدم وصفاً مفصلا لأسلوب حياته يكتبه بلغة الأدب اليونانى القديم ، فقبل هذا البحث غير المألوف ، ولعله أعجب ما تضمنته سجلات الجامعة ، فدون شليمان تاريخ حياته ، وحصل على الدكتوراة ، وكان يضايقه دائما ألا يخاطبه أحد بلقبه .

وهكذا انقضى نوفمبر وديسمبر ، بينما كتب سيرته الذاتية باختصار ، ووضع كتابه عن إيثاكا ، والبلوبونيز وطروادة ، وفى غضون ذلك فتر تحمسه للتنقيب بتل هيسارليك ، وإذ كان وحيدا بمنزله فى باريس ، التى خيم عليها ضباب الشتاء البارد المتصاعد من نهر السين ، لم يعد الشخص المتحمس الذى كانه من قبل ، فهو مشروع كثير التكاليف ، وقد يستغرق أعواما طوالا ، كذلك لم يكن على دراية بفن التنقيب ، كيف يعالجه المرء ويرتاد مسالكه ؟ وما عدد العمال اللازم استخدامهم ؟ وما مقدار مايتكلفه ؟ وكيف يحمى نفسه من رجال العصابات وأى رداء للرأس يصلح للمشتغل بالتنقيب ؟ .

وإذ كانت كل هذه المسائل و كثير غيرها تشغل ذهنه حين كتب إلى فرنك كافرت قرب نهاية ديسمبر عام ١٨٦٨ ، فقد أرفق خطابه بقائمة من تسعة عشر سؤالا ، والتمس الرد فورا ، وفى هذه الأسئلة ، التى أسوقها هنا كما كتبها ، نرى البدايات التجريبية للعمل الذى سيستغرق كل وقته ، طوال الأعوام الباقية من حياته :

١ — ما أفضل وقت للشروع فى العمل ؟

٢ — ألا يحسن الشروع فى الربيع مبكراً بقدر الإمكان ؟

٣ — إننى سريع الإصابة بالحمى فهل يخشى منها فى الربيع ؟

www.ibtesama.com/vb

٤ — أية عقافير يلزمنى أخذها معى ؟

٥ — أيلزمنى اصطحاب خادم معى ؟ أو يتيسر لى أن أحصل فى أثينا على شخص جدير بالثقة حقا ؟ لعله يحسن اصطحاب يونانى أمين يتكلم اللغة التركية .

٦ — أيلزمنى أخذ خيمة وفراش وحشيّة معى من مرسليا ؟ ذلك لأن جميع المنازل بسهل طروادة تعج بالحشرات .

٧ — أرجو إعطائى بياناً دقيقاً بكافة الآلات من أى نوع ، وجميع اللوازم التى تنصحنى بأخذها معى .

٨ — هل أحتاج إلى غدارات وخنجر وحوض لاستخلاص التبر ؟

٩ — أهناك عقبة من جانب ملاك الأرض ، للتنقيب بالتل الصناعى ؟

١٠ — أفى استطاعتى الحصول على ما يكفى من العمال ، أين وبأية أجور ؟

١١ — ما عدد من أستطيع استخدامهم ؟ أيحسن استخدام اليونانيين أم الأتراك ؟

١٢ — ما المدة التى تظن أن فى استطاعتى أن أزيل فيها التل الصناعى ؟

١٣ — ما قدر التكاليف ؟

١٤ — إنك تقترح البدء بحفر خندق ! ولكنى أثق أن هذا ليس عمليا ، فالتل إذ كان مكوناً حقاً من أطلال معابد وأسوار قديمة ، فلا بد أن تعوق الأحجار الضخمة القديمة حفر الخندق .

١٥ — ما الذى حدابك إلى أن تستنتج أن التل صناعى ؟

١٦ — قدرت الأبعاد بسبعمائة قدم مربع . وأى فرنسى يفهم من ذلك أن طول التل قدره ستة وعشرون قدماً ونصف القدم ، وأن عرضه مثل طوله ، بيد أنى أظن أنك تعنى أن طوله سبعمائة قدم وعرضه كذلك ،

www.ibtesama.com/vb

وهذا يجعل مساحته ، وفق طريقة الحساب الفرنسية ، أربعمائة ألف وتسعين قدما مربعا . ولكنى ذكرت فى كتابى أن كلا من الطول والعرض يقدر بمائتين وثلاثة وثلاثين متراً ، فتكون المساحة بأكملها أربعةوخمسين ألف متر مربع .

١٧ — ما ارتفاع الجزء الذى يلزم إزالته من التل الصناعى ؟

١٨ — أظن أن الخطة المثلى هى الحصول على ضمانة صاحب بنك القسطنطينية الذى يضم إليه مؤسسة بالدردنيل ، ومن ثمة لا يضايقنى شىء وأستطيع أن أسحب بالدرونيل ما أحتاج إليه .

١٩ — أى نوع من القبعات يحسن استخدامه لاتقاء الشمس المحرقة ؟

ويجدر مطالعة هذه القائمة بعناية ، فهى تبين تردده ، وآماله ، ومخاوفه ، وطريقته الغريبة فى معالجته لموضوع التنقيب بأكمله ، ويبدو أنه كان مأخوذاً بضخامة المهمة التى أمامه ، وجاهلا بها إلى حد يثير العجب ، فرد كلفرت فورا عليه ، بخطاب متزن ، ملىء بالنصائح المحذرة ، والاعتراض المهذب ، وكان قد درس علم العاديات ، وطالع الكثير من مؤلفات لا يارد Layard الذى استكشف نينوى Nineveh وشرح بالضبط كيف يجب حفر الخنادق ، وأفضل فصول السنة للقيام بالحفر خلاله — بين أوائل الربيع والصيف — وأين يمكن الحصول على العمال ، وما الأجر الذى يتقاضونه .

وأضاف قائلا : « أما فيما يتعلق بهيسارليك ، فإنى أملك قسما من هذا التل الصناعى ، وإنى ، كما سبق فأخطرتك ، أصرح لك بإزالته » ووعد باستخدام نفوذه مع المالك الآخر للإذن بالتنقيب فى التل بأكمله ، ولم يتوقع أن تصادفه أية صعاب جدية ، ولعلمه بشغف شليمان بالشاى ، أوضح له أنه لا يتوافر بالدردنيل سوى القليل من أسباب الترف ، وعلى الرغم من توافر الشاى والسكر ، فيحسن

www.ibtesama.com/vb

أن يستحضر أوراق الشاى معه ، وصحح معلومات شليمان الرياضية ، وبين أنه لم تكن ثمة حاجة للغدارات والخناجر ـ لم تكن تلك الآلات الرومانسية جديرة بالاعتماد عليها كالبنادق — واقترح على شليمان أن يتصرف بحذق ويستأجر أحد منازل قرية كبلاك ، ويكلس حوائطه ويستخدم مبيداً لإزالة الحشرات منه ، وأخيراً أشار بأن أفضل قبعة يرتديها المرء للوقاية من حرارة الشمس هى عمامة من الموسلين كالتى يرتديها الأتراك .

وإذ كان شليمان لا يزال يتدبر خطاب كلفرت ، رحل فى عطلة إلى ألمانيا وزار فيورستنبرج حيث كان يشتغل بحانوت بقال ، وزار روستوك لتقديم رسالة الدكتوراة ، وكان كتابه فى أيدى الناشرين ، وفى هذه المرحلة لم يكن هناك سوى القليل يستطيع عمله للقيام بأعمال التنقيب عن طروادة ، خاصة وأن الحاجة كانت تستدعى وجوده فى انديانا بوليس ، ولذلك رحل إلى أمريكا ، وكان يؤمل أن يحصل على الطلاق فوراً ، لولا وجود بعض المعطلات التى لا مناص منها وكان قد اقترح بعض تعديلات هامة فى القوانين ، ولكن هيئة تشريع الولاية رفضتها وإذ ضاق بحياة الفنادق ، اشترى منزلا بأرقى أحياء أنديانا بوليس وأقام به فى انتظار القرار الفاصل ، وملأ بيته بخدم وطاه من الزنوج ، واستخدم خمسة محامين ، وراح يسرى عن نفسه ، خلال صراع قضيته ، بتحرير خطابات مطولة إلى معارفه بكل أصقاع الأرض ، وفى الرابع عشر من إبريل كتب إلى كلفرت يقول إنه يخشى ألا يتمكن من الحصول على الطلاق قبل يونية ، ومن ثم يضطر لإرجاء الحفر إلى الربيع من العام التالى .

وفى اليوم ذاته بعث إلى زينان بخطاب قصير غريب ، نصفه بالإنجليزية والنصف الآخر بالفرنسية ، يصف حادثة شاهدها فى نيويورك ، تتعلق بتاجر عمره ثمانى سنوات ، كان يبيع كتبا على عربة يد وكان الصبى يدفع بعربته وهو يصيح قائلا : « الواحد من هذه الكتب بسنتيين ! » ثم يهمس فى أذن كل عابر بدوره قائلا : أما أنت فسأبيعك كل ثلاث كتب بخمس سنتيات ! ثم يدور حول عربته يلتقط

www.ibtesama.com/vb

الكتب أو يتسلم الثمن ، وتحدث شليمان مع الغلام الذى ذكر أن والده مات فى العام المنصرم ،تاركا وراءه زوجة مريضة وستة أطفال ، وهكذا راح الصبى يكدح ليسد رمق الأسرة ، فتأثر شليمان وأعطاه دولاراً ، ولكن الصبى رفض العطية قائلا : لن أقبل مالك مالم تقبل منى ستين كتاباً » واستطرد قائلا وهو يشد بدنه ويصعر خده : « إنى تاجر ولست شحاذاً ! » فازداد شليمان تأثراً ، وأخذ الستين كتابا ، وألقى خطاباً قصيراً قال فيه . » أتمنى بأن يصبح هذا الدورلار حجر الأساس لثروتك الأرضية ياولدى! وأتمنى أن تصبح يوماً ما صاحب مصرف عظيم ، نخر ومجد هذه البلاد العظيمة ، الجديرة بأن تبز ، بنظرائك من الشخصيات، جميع الإمبراطوريات التى زينت صفحة التاريخ » .

وليس ثمة شىء غير محتمل فى القصة بإشارتها المتعنتة إلى « صاحب مصرف عظيم ، نخر ومجد هذه البلاد العظيمة » ولكن المرء ليود أن يعرف رأى رينان عن هذه القصة المماثلة تماماً لقصة هوراشيو ألجر (Horatio Alger) . ومن سوء الطالع أن إجابة رينان لم تصل إلينا لعدم تسجيلها .

وراح شليمان يشغل نفسه فى أنديانابوليس كمألوف عادته ، وكان مصنع الشاء الذى يملكه مزدهرا ، وراح يدرس السوق المالى ، ويدبج التقارير المسهبة عن التجارة ويرفعها إلى شرودر ، كما راح يصقل لغته العربية — وضع بحثاً مختصراً عن كتاب «ألف ليلة وليلة» The Arabian Nights Entertainments وبعث إلى مؤتمر علماء فقه اللغة الأمريكيين المنعقد فى بوكيبسى (Poughkeepsie) بحثا مسهباً عن فن تعلم اللغات سريعاً ، ونسى طروادة إلى حين ، وراح يحرر خطابات متحمسة عن موضوع الممر الشمالى الغربى وا كتشاف القطب الشمالى، مع وعده بمنح إعانة مالية للمرتادين الباحثين، وبينما كانت مسألة طلاقه قيد البحث كان يستعد بطريقة غاية فى الغرابة لإيجاد عروس تحل محل إكاترينا .

واستقر رأيه على اختيار عروس يونانية ، لحبه جرس اللغة ، خاصة إذا

www.ibtesama.com/vb

تخاطبت بها سيدات ، ولكن كيف يجد عروسا ؟ يستطيع دون ريب العودة إلى بلاد اليونان ، والقيام بتحريات ، والبحث بجد عن زوجة لائقة ولكن ثمة طريقة أشد يسرا أخطرت بباله ، وفى فبراير ما كادت تصل ملازم كتابه عن أسفاره الإغريقية ، حتى أرسل نسختين إلى صديقه ثيوكليتوس فيمبوس : نسخة لفيمبوس نفسه ، والأخرى لمكتبة جامعة أثينا ، وأرفق به حوالة مالية بمائة فرنك مسحوبة على باريس لدفع تكاليف التجليد ، وأضاف قائلا إن أى مبلغ فائض يصرف لصالح فقراء أثينا .

ثم عاد ، دون مقدمات ، إلى الموضوع الذى استحوذ على ذهنه تماما . فهل لفيمبوس أن يتفضل بأن يرسل إليه صورة فتاة يونانية — أية فتاة مادامت جميلة — وهو يؤثر بصفة خاصة إحدى الصور المعلقة بواجهات العرض بحوانيت المصورين ، وبهذه الصورة فى حافظة أوراقه ، يستوثق شليمان من حصانته ضد خطر الزواج من امرأة فرنسية ، فالجميع يعلمون أن النساء الفرنسيات خطرات ، وبدأ الخطاب بتردد ، أو فيما يكاد أن يكون نفورا ، وإذهو فى منتصفه أحس راحة جعلته يتقدم بملتمسه الأعلى — حبذا لو اختار فيمبوس عروسا له — أما عن مؤهلاتها ، فيلزم أن تكون فقيرة ، جميلة ، من المعجبات بهوميروس المتحمسات داكنة الشعر ، على قسط كبير من التعليم ، ذات قلب طيب ، وكانت شقيقة فيمبوس هى المثل الأعلى ، ولكنها كانت قد تزوجت فعلا ، فلعله يستطيع أن يجد يتيمة ، شقيقة لعالم ، مضطرة أن تسعى إلى كسب رزقها كمربية ، ويختتم شليمان خطابه بقوله إنه مامن أحد فى العالم سوى فيمبوس يستطيع أن يفضى إليه بمكنونات قلبه ، ويطوى خطابه على مائة فرنك أخرى لفقراء أثينا .

ولم يثر الخطاب فى نفس فيمبوس أدنى سخط ، فراح يذرع أثينا ويجمع صور صبايا أثينا الفاتنات ، ويرسلها إلى انديانا بوليس ، ومن بين هذه الصور صورة صوفيا انجسترو مينوس ، وهى فتاة ذات شعر أسود جميل ، ووجه بيضاوى رقيق ، وعينين واسعتين ، وحاجبين مقوسين كثيفين ، فهو وجه فتاة ذات جمال

www.ibtesama.com/vb

غير مألوف قط ، موفور المهابة ، ولكن فى استطاعته أن يضىء بابتسامات الطفولة البريئة ، وقد حصل شليمان على اثنتى عشرة نسخة من صورها ، وبعث بواحدة إلى والده ، ومعها خطاب قصير يذكر فيه أنه يعلم أنه سيكون سعيداً معها ، ولكنه مصر على ألا يتزوجها مالم تكن شغوفة بالتعليم مقبلة عليه ، وإذا سارت الأمور وفق ما يبغى ، فهو سيذهب إلى أثينا فى يوليو ، ويتزوجها ، ويستحضرها معه إلى ألمانيا .

ولم يصل أثينا فى يوليو إذ أوقفت إجراءات الطلاق ، ولم يكن ثمة شىء يخيفه ، فقد أصبح فى مارس مواطنا أمريكيا ، ولذلك كانت المسألة لا تعدو أن تكون انتظارا صبورا حتى يحل وقت توقيع المستندات ، وأخيراً تم الطلاق فى أواخر يوليو ، فحف إلى نيويورك وأبحر فى أول باخرة أقلعت عبر الأطلنطى ، ولم يكن بعد واثقاً ما إذا كان سيتزوج صوفيا ، فقد كتب إلى صديق من السفينة يقول : « أحمد الله فثمة إمكانيات عظيمة للاختيار ببلاد اليونان ، والفتيات هناك جميلات كأهرامات مصر » ومن غير المحتمل أن تكون صوفيا قد ابتهجت لمقارنتها بالهرم .

ووصل إلى بلاد اليونان فى أغسطس عشية عيد سنت ملاتيوس ، القديس حامى الكنيسة الصغيرة القريبة من فيلا أسرة انجسترومينوس الريفية فى كولونس ، على بعد أكثر قليلا من ميل شمالى غربى أثينا ، وكولونس هى محل ميلاد سوفوكليس (Sophocles) وموقع اختفاء أوديب الغامض ـ فسوفوكليس يقول : « كولونس البيضاء التى تتغذى بندى السماء ، حيث تشدو البلابل الصداحة وسط نبات القلاب الخمرى الداكن » ولم يكن ثمة مكان أكثر منها يمنا وإيناسا ، وحين وصل شليمان إلى المدينة الصغيرة وجد شليمان نفسه وهو يتطلع إلى احتفال بطقس قديم ، إذ كانت الفتيات يحملن أكاليل الزهر إلى الكنيسة .

ولم تكن صوفيا يتيمة ، ولا كانت أسرتها فقيرة ، ولم تشتغل مربية قط ،

www.ibtesama.com/vb

وكان والدها تاجر جوخ ، له حانوت ومنزل فى أثينا ، وكان رجلا متين البنيان ، حسن الطلعة ، فاز بنيشان الصليب خلال حرب الاستقلال ، وكانت صوفيا فى الكنيسة ، واقفة فوق مقعد ، وتقوم بتعليق أكاليل الزهر ، حين وصل شليمان إلى المنزل فى صحبة ثيوكليتوس فيمبوس ، وفى الكنيسة ندت صيحة « لقد أتى الألمانى ! » ولم يكن هناك من يتوقع حضوره فى مثل هذا الوقت المبكر من النهار ، فقفزت صوفيا من فوق المقعد ، وهرولت إلى المنزل ، لتغيير ردائها ، وكان أفراد الأسرة جميعاً هناك ـ الأب والأم والشقيقات والأشقاء وأولاد العم والخال ـ جالسين حول المنضدة ، يتفرسون فى الألمانى العجيب ، ذى البسمة الحزينة والنظارة الذهبية الإطار ، والذى ذهب الصلع بشعر رأسه أوكاد ، وتدلت فوق صدرته سلسلة ساعة ذهبية سميكة .

وأخيراً دلفت صوفيا إلى الحجرة ، متشحة برداء أبيض ، مزينة شعرها بشرائط ، وقد غضت ببصرها من فرط الحياء ، بينما راحوا يتناولون الخمر والكعك ، وكان شليمان يتحدث عن أسفاره حول العالم بلغة يونانية سليمة ، وبغتة التفت إلى صوفيا ووجه إليها ثلاثة أسئلة أولها هو : أترغبين فى القيام برحلة طويلة ؟ فردت صوفيا بالإيجاب ـ والسؤال الثانى هو : متى قام الإمبراطور هدريان بزيارة أثينا ؟ فذكرت صوفيا التاريخ بالضبط ، وكان السؤال الثالث : أتستطيعين تلاوة فقار من هوميروس عن ظهر قلب ؟ وقد استطاعت صوفيا ووفقت ، واجتازت الامتحان مرفوعة الرأس .

وخلال الأيام الثلاثة التالية كان شليمان يقضى النهار بأكمله بالفيلا الريفية ، ولا يعود إلى الفندق إلا فى المساء ، وأدركت صوفيا أنها موضع مراقبة شديدة ، ولكنها لم تبد أى انزعاج ، فكانت تلعب مع شقيقاتها وأبناء عمومتها ، وتساعد فى إعداد المائدة ، وأحيانا كانت تختفى داخل حجرة المئونة حيث يحتفظون بجرار الزيت والزبد والزيتون ، وكان المنزل يعج بالأقرباء ، حتى اضطر شليمان أن يسقط فى يدها رسالة كى يراها على انفراد .

www.ibtesama.com/vb

ومرة إذ كانا على انفراد سألها بغتة : « لما ترغبين فى زواجى ؟ » فأجابته صوفيا ببساطة : « لأن والدى أخبرانى أنك رجل غنى . » فكان هذا الرد على نفس شليمان كحز السيف أو أشد ، وخرج يوسع الخطو إلى فندقه وهو غاضب ؛ لقد كان يظن أن الفتاة ذات نبل فطرى ، ولكنها ردت عليه كما لو كانت من الإماء والرقيق ، فكتب إليها على إحدى أوراق الفندق :

« لشد ما آلمتنى يا آنسة صوفيا تلك الإجابة التى جابهتنى بها — وهى إجابة جديرة بأمة ، ومثار الدهشة أنها صادرة من شابة متعلمة — وأنا نفسى رجل بسيط ، شريف ، تواق لحياة المنزل ، فإذا تزوجنا ، فكى نستطيع أن نقوم معا بالتنقيب ، ونتبادل حبنا المشترك لهوميروس .

سأرحل إلى نابولى بعد غد ، وقد لا نتقابل مرة أخرى ، ولكن إذا احتجت يوما ما إلى صديق ، فتذكرى .

المخلص لك

هنريش شليمان

دكتور فى الفلسفة

مجلة سنت ميشيل ، ٦ ، باريس . »

وكتب شليمان هذا الخطاب بما فيه من ضروب الخلط والثناء الذاتى السائب ، وهو فى حالة من الغضب الشديد ، وبعث به مع رسول الفندق ، فهز صوفيا هزاً عنيفا ، وبينما كانت الأسرة مصرة على أن ترسل صوفيا خطابا لتهدئة ثائرة الألمانى ، واستدعت أحد أعمامها ، وهو موظف حكومى ، لمساعدتها ، يبدو أنها عرفت بالضبط ما تصنع ، فالخطاب الذى حررته لا يكشف عن أية مساعدة فيه ، وقد كتبته على ورق رخيص ، اشترته على عجل من مخزن محلى :

« عزيزى هر هنريش : لشد ما سيؤلمنى رحيلك ، وأرجو ألا تكون غاضباً

www.ibtesama.com/vb

لما قلته بعد ظهر اليوم ، فقد توهمت أن هذا ماينبغى أن تقوله الفتيات الصغيرات ، والدى وأنا ستغمرنا الغبطة حقا إذا قدمت غدا لرؤيتنا ثانية . »

فسرى عن شليمان ، ولكنه عزم على معاقبتها ، فحرر المزيد من الخطابات ، وتسلم المزيد من الردود ، حتى استوثق من حبها ، وبدا الأمر كما لو كان لايستطيع أن يعتمد على نفسه لمواجهتها ، ومرت ستة أيام قبل أن يرق ، وإذ كتبت الصبية ، ذات السبعة عشر ربيعا ، بخط يدها المستدير المعتنى بها ، عرضا للزواج ، لم يجد محيصا ، إزاء هذا العرض ، من الإذعان ، وكان قد وصل إلى أثينا فى أواخر أغسطس ، فتم الزواج فى اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر .

وارتدى شليمان لباس الفروك ، وارتدت صوفيا حلة بيضاء ، وغلالة العرس ، مكللة بالأزهار من كورنثس ، وحضر جميع أقاربها فى الزى القومى اليونانى ، ثم أقيم حفل استمر حتى وقت متأخر من المساء ، ورحل العروسان فى نفس المساء إلى بيروس (Piraeus) ، ميناء أثينا ، وانتظرا إلى الثالثة صباحا ، حتى استطاعا حجز مكان لهما على سفينة مقلعة إلى نابولى ، وأصرت صوفيا على أن تستحضر معها دميها ، وكانت حالة شليمان النفسية آنئذ لا تدعوه للاعتراض ، فكسبت أول نصر ، وستكسب كل الانتصارات الأخرى .

وسيطرت صوفيا على زوجها ، بظهورها أنها لا تسيطر عليه قط ، إذ كانت جميلة تبدو كطفلة ، وتنتقل فى رشاقة ميسرة ، لم تفقدها حتى فى شيخوختها ، وأحبته إلى حد الوله ، بعنف الشباب حين يهيم بالشيوخ ، على الرغم من أنها لم تفهمه قط تماما ، ومع تحفظه وبروده حتى فى حضرة أخلص أصدقائه ، أحبها فى صبابة ، وأبهجته تقلبات مزاجها السريعة ، وهزلها الضاحك ، وجدها الباسر ، الذى كان يشبه دائما جد الأطفال ، وكتب فى شهر العسل يقول : « إنها تكن لزوجها ضربا من التبجيل الإلهى . »

وهذا حق ولكن يجب ألا يقتصر الأمر على هذه الكلمات ، فهو الآخر

www.ibtesama.com/vb

كان يكن ضربا من التبجيل الإلهى لزوجته التى نالها دون توقع وضد كل العوائق ، وظل مفتونا بها حتى نهاية حياته ، وعلى الرغم من أنهما كانا يتشاجران ، وأحيانا كان يعاوده ما درج عليه من التصلب وعدم الاحتمال ، فرحها الهادىء كان وقاء ضد كبريائه ، وتعظيمه لنفسه ، وغروره المتغطرس ، وكان فى صحبتها دافئا دمثا ، وقد تمت المعجزة ، فأحيانا كان يجد نفسه متطلعا إليها كرجل مشدوه أذهله حسن طالعه .

وكان شهر عسل عجيب ، انقضى بين نابولى وبومبى وفلورنسا وميونخ ، ودائما الرحلات العجلى إلى المتاحف ، وشليمان يلقى بصوته المتوتر النبرات تعليقا عابرا على جميع روائع الفن ، حتى توشك صوفيا على الصراخ من فرط الألم ، ومع ذلك تزداد حبا له ، فكان الناس يقفون ويحملقون ، وهم مشدوهون ، فى الأستاذ الجامعى الطاعن فى السن — كان فى السابعة والأربعين من عمره ولكن بدا متقدما عشر سنين عن سنه — وزوجته الشابة ، وكل منهما جاد ومكب على دراسة الفن ، وفى الأمسية كان يطلب إليها أن تتلو مائتى بيت من أشعار هوميروس ، وكثيراً ما كانت تغط فى النوم قبل الانتهاء من تلاوتها ، والواقع أنها كانت قد أيقظت فى أعماقه روح المربى .

كان عازما على أن يشكلها وفق مشتهى قلبه ، وأصر على أن تصبح ضليعة فى اللغات - فهى ستتعلم الألمانية والفرنسية ، لغة فى كل عام ، ولا ريب أنه ليس فى هذا ما يرهقها ! — ثم اصطحبها إلى باريس ، وأسكنها بمنزله الفسيح المطل على نهر السين وعلى كتدرائية نوتردام ، وكان شتاء بارداً ، وقد أحست بوحشة لحرمانها من أقاربها ، وألبسها زوجها وفق أحدث طراز ، ولكن حين حضرت بعض الفتيات اليونانيات لزيارتها ، لم تكترث للابسها ، بل ركعت على ركبتها ، وراحت تريهن الدمى التى أحضرتها معها

وكرهت باريس — الضباب المخيم على السين ، والبرد ، والرطوبة ، والرياح

www.ibtesama.com/vb

القارصة التى تهب على محلة سنت ميشيل — وأضجرها المجتمع الذى غرسه ، وزيارات الجمعية الجغرافية ، والحديث المتواصل عن طروادة وميكناى وجزائر الأرخبيل اليونانى ، حيث قد تكون ثمة كنوز مطمورة بها حتى الآن ، وتحرك ذهن شليمان كما تتحرك آلات الساعة المعقدة التركيب ، لا يكف عن الحركة ، إذ كان لا يزال يبحث عن مجال للعمل ، وكان يائساً من إيجاد سانحة لإثبات وجوده .

وفى نهاية يناير عاوده القلق ، فراح يضع الخطط للعودة إلى طروادة ، ولكنه علم فى ذلك الحين بوفاة ابنته نادزدا (Nadezhda) فدهمه الأسى ، ومرة أخرى راحت الأشباح تطارده ، فاتهم نفسه بالمساهمة فى موتها ، إذ كان عليه أن يضع كل شىء فى العالم لإنقاذ حياتها ، فأحسن الأطباء كان من الواجب إرسالهم إلى جانبها ، فلم لم يخطره أحد من قبل ؟ وتكررت القصة المألوفة ، فصاحب الملايين ، وقد استبد به الحزن ، راح يخاطب نفسه زاعما أنه كان فى مقدوره أن يكافح الموت بذهبه ، لو كانت الفرصة فقط قد أتيحت له ، وفكر فى القيام على عجل إلى سنت بطرسبرج لمواساة بقية أطفاله والتخفيف عنهم ، ويرجح أنه كان سيفعل هذا لولم يداهم المرض صوفيا .

فشحب لونها ، وانعدمت شهيتها ، ولكن الأطباء لم يستطيعوا معرفة علتها ، كانت مسرفة فى الدراسة — كان قد قرر أن تدرس الألمانية والفرنسية فى وقت واحد ، ولم يستطع أن يدرك علة بطئها — وكان يصحبها أحيانا إلى السيرك ، حيث كانت تمتع نفسها ، ولكنه كان يصحبها إلى المسرح أكثر من هذا ، وإذ كانت تجلس متصلبة الظهر فى شرفة المسرح ، متحلية بالمجوهرات ، ومنصتة إلى خطب لا تكاد تفهمها ، كانت تضجر وتتضايق إلى حد البكاء ، وحين مرضت ، عجز الأطباء عن معرفة علتها ، فلعل الأمر لا يعدو أن يكون استيحاشا بالغربة ونزوعا إلى الوطن .

وفى منتصف فبراير ، وقد أصبحت صوفيا لا تزيد على شبح ، ولا تفتأ

www.ibtesama.com/vb

تداهمها نوبات من البكاء لغير ما سبب أو تعليل ، قرر شليمان أن يصحبها إلى أثينا ، ويأخذ طريقه إلى طروادة ، وكان كانفرت قد وعد أن يحصل على (فرمان) من الحكومة التركية للتصريح له بأعمال التنقيب ، ولكن لم يصل أى (فرمان) وعلى ظهر الزورق البخارى نيمان (Nieman) المقلع من مارسليا إلى بيروس ، كتب إلى كلفرت فى السابع عشر من فبراير عام ١٨٧٠ ، بنفاد صبره المألوف :

«أرجو إخطارى فى أول فرصة عما إذا كنت قد حصلت الآن على الفرمان ، لأننى أحب ،فى تلك الحالة ، أن أبدأ أعمال التنقيب فورا فى هيسارليك ، وأظن أن بشائر الربيع المبكرة لايمكن أن تحول دون ذلك ، ذلك لأن الطقس هنا دافىء بهيج ، ويصعب أن يكون مختلفاً عن ذلك بالتل المقصود ، فإنى أتوق إلى الشروع فى العمل فورا ، ويقوى هذه الرغبة ، أنلدى بعدذلك من الشئون الهامة مايشغلنى .

وإذن ، إن كنت قد حصلت على الفرمان ، فتفضل بأن ترسل إلى مرةأخرى قائمة بما يلزم من أدوات الحفر والآلات الدقيقة ، ذلك لأننى حين تركت باريس فى عجلة نسيت أن آخذ صورة من خطابك إلى فى الشتاء الماضى . »

* * *

وحين وصل شليمان إلى أثينا ، لم يجد أى فرمان فى انتظاره ؛ وكان يفكر فى القيام ببعض أعمال التنقيب فى ميكناى ، ولكن فريقا من سبعة انجليز كان رجال العصابات قد قتلوهم منذ عدة شهور ، فلم ترحب الحكومة اليونانية بعلماء العاديات الذين كانوا يطوفون داخل البلاد وهم فرادى ، وفى يأس ، قرر شليمان أن يقضى الوقت لحين وصول الفرمان ، متنقلا فى قارب شراعى بين الجزائر فى بحر إيجة .

وكانت مغامرة غير سعيدة ، فهو لايعرف شيئاً عن القوارب الشراعية ، ويبدو أن البحار اليونانى كان غير كفء ، فزار ديلوس حيث ولد أبوللو ، وباروس الشهيرة بمحاجر الرخام ، ونكسوس (Naxos) المكرسة لإله الخمر باخوس (Bacchus) ، ولكن جزيرة ثيرا (سنتورينو) الصغيرة فتنته أكثر من غيرها ،

www.ibtesama.com/vb

ووصل إلى ثيرا بعد أن ظل أربعة أيام ، تتقاذفه عاصفة ، ولا يطعم خلالها سوى الخبز والماء ، وكانت أبعد جزائر بحر إيجة الصغيرة تطرفا نحو الجنوب ، ولها تاريخ هام ، فمن هذه الجزيرة أبحر اليونانيون عام ٦٣١ قبل الميلاد لاستعمار إقليم القيروان (Cyrene) الخصيب فى أفريقيا ، وكانت جزيرة بركانية ، وقد ابتهج سليمان بما فيها من جروف صخرية غريبة مكونة من طبقات الحمم المنصهرة المختلفة الألوان ـ الأحمر والأسود والأصفر والأبيض والأسمر — وكانت هذه الجروف الصخرية ذات الارتفاع البالغ سبعمائة قدم « مخيفة المنظر رهيبته » وقد أحب سكان الجزائر واستطاع أن يشترى منهم بعض آنية العصر الحجرى المكتشفة حديثاً تحت ثلاث طبقات من حمم البراكين ثم عاد إلى أثينا ، وثبا من جزيرة إلى أخرى .

وفى الماضى كان طالعه الميمون يعلن عنه أحيانا ، قبل ظهوره ، بعاصفة رعدية هائلة ، وقد حدث هذا حين تحطمت سفينته على كثب من جزيرة تكسيل ، ثم مرة أخرى قصف رعد زيوس وسط المحيط الأطلسى ، ولم يمر وقت طويل بعد ذلك حتى حصل على ثروة بكليفورنيا ، كذلك الآن ، لعله حين عودته إلى أثينا ، اعتقد أن العاصفة التى استمرت أربعة أيام ، والتى ألقت بسفينته الشراعية الصغيرة إلى سواحل جزيرة ثيرا ، كانت علامة على حسن الطالع الذى يترقبه فى طروادة ، ولم يكن الفرمان قد وصل من القسطنطينية ، ولكن لم يكن ثمة ما يمنعه من تشغيل العمال وعزق الفأس ؛ وبمفرده ، ودون عون ، وقد ترك صوفيا وراءه فى أثينا ، قرر اقتحام طروادة .

---

www.ibtesama.com/vb

ذهب طروادة

حين قدم شليمان على طروادة كان يجتاز طريقاً معبداً ، وثمة رجال آخرون وعظماء سبق أن تعبدوا بتلك المحاريب التى أصبحت أطلالا ، وغطاها الشوك والحسك وبقايا الأشجار الخاوية ، ولم يك من غموض — أو غموض قليل — حول الموقع ، وظل الناس جيلا بعد جيل يذرعون الأرض على طول الساحل الفريجى المتجهم ؛ ينشدون الترفيه بين أحجار المدينة المتآكلة وحصونها المتهدمة ، حيث أسرت هلن ودارت رحى الحرب عشر سنوات .

وإذا استطعنا أن نصدق رواية هيرودوت **Herodotus** المؤرخ ، فإن أجزرسيس (**Xerxes**) ملك فارس ، ومعظم العالم مروا من هناك ، خلال زحفه ، داخل آسيا الصغرى ، فى طريقه إلى بلاد اليونان ، وقد تسلق صاعداً إلى القلعة ، وبحث عن سكان المكان الواسعى الاطلاع ، وأنصت لقصصهم التى يرددونها عن الحصار ، ثم نحر ألف ثور ذبائح قدمها لأثينا الطروادية ، وأمر كهنته أن يريقوا سكائب الخمر لأرواح العظماء من الأقدمين ، وفى ذلك المساء أحس جنود الجيش الفارسى المتجمعون هناك ، رعبا طيفياً صاعداً من بطن الأرض ، ولكنهم لم يستطيعوا تسميته .

وكانت طروادة . فى نظر الفرس وغيرهم ، موطناً للمخاوف الغريبة ، والأساطير المختلطة بالجثام ، وكل ساحات الوغى ، كانت مأهولة بالأشباح التى تتولول طلباً للانتقام ، ودعا أجزرسيس نفسه المنتقم للجريمة ، وفقاً لما يزعمه الفرس ، فإن سقوط طروادة هو الذى جعلهم أعداء اليونانيين بالوراثة .

ولكن حين قدم اليونانيون إلى طروادة ، بدت لهم مثل المكان الذى سبق أن انتصروا فيه على آسيا ، ولذلك فعندما عبر الإسكندر « هلسبونت **Hellespont** »

www.ibtesama.com/vb

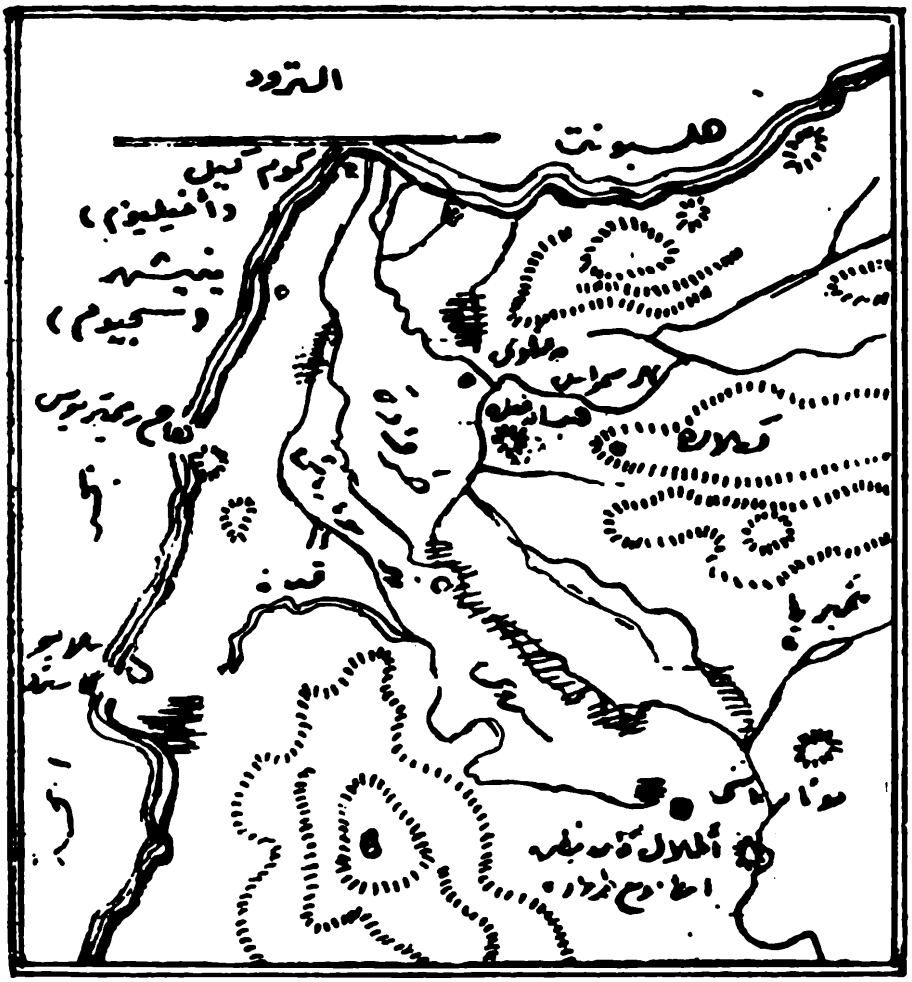

فى طريقه لشن الحرب على فارس ، تضمخ بالزيت وراح يعدو عاريا حول مقبرة أخيليس « Achiles » فوق مرتفع سيجيوم (Sigeum) ، ووضع عليها بعض الأسلحة المحفوظة فى معبد أثينا ، وخط مشاريع رائعة لتزيين المدينة .

وحين راح يوليوس قيصر يطارد بومبى فى البر والبحر ، وصل تل روتيا . (Rhoetian Promontory وطاف حول غرائب المدينة التى احترقت منذ أربعين عاماً خلال حملة عسكرية رومانية ، فلم يجد هناك سوى الغابة المحيطة ، المتآكلة ، وأدغال من أشجار البلوط وقد عرشت فوق قصور الملوك ومعابد الآلهة ، وكان يعبر جدولا يجرى متعرجاً بين الرمال حين خاطبه أحد الناس قائلا: هذا هو نهرو (اكسانثوس Xanthus الشهير !) ووطأ بقعة معشوشبة فصاح به أحد الناس قائلا : (هنا أحضروا جثمان هكتور ! فخذ حذرك كى لا تغضب شبحه ؟) وحين

www.ibtesama.com/vb

وصل إلى كومة من الأحجار غير المتماسكة ، شد أحدهم بردته قائلا : (ألا ترى مذبح الإله جوبتر ؟) .

ولم يكن قيصر قد شاهد شيئاً سوى الأطلال والظلام الذى يلفها ولكنه عرف أنه قدم إلى مكان مقدس ، وكانت تفزعه الأشباح ، ولذلك فقد شيد على عجل مذبحاً من المرج ، وأحرق عليه بخوراً ، وصلى إلى الآلهة التى تحرس تلك الرفات المقدسة ، طالباً لنفسه التوفيق والازدهار ، ونذر أن يعيد بناء الأسوار المهدمة ، حتى تصبح وضاءة متألقة كما كانت ، ثم إذ تذكر بومبى خف إلى القطر المصرى ، وهو نافدالصبر لقتل عدوه ، وقد أبحر دون أن يتوقف بأيةمن مدن آسيا الثرية حتى وصل إلى الإسكندرية .

وقدم المجانين والأكاسرة إلى طروادة ، وأدى كراكلا المجنون شعائر الولاء أمام المذبح ، وفى غمرة عارمة من لوثة الشعور بالعظمة ، تخيل نفسه اخيليس ، كما تخيل نفسه الإسكندر الأكبر وهو فى مقدونية ، وتذكر أن اخيليس كان الحزن قد هده لوفاة صديقه المحبوب بتروكلس ، ومن ثمة فقد قضى بالسم على فستوس ، العبد الذى حرره واصطفاه ، كى يجد أحداً يحزن عليه ، وأمر بتشييد محرقة جنائزية وبنفسه نحر الأضاحى ، ورفع الجثمان فوقه ، وأشعل النار فى المحرقة ، ثم أهرق الخمر رذاذاً فوق اللهب ، وهتف بالرياح أن تحتفل بوفاة صديقه ، ويستطرد هيروديان ، الذى يسوق القصة ، أنه حاول فى حزنه أن يقص خصلة من شعره ، ليلقى بها فى النار ، ولكن إذ كانت رأسه صلعاء ملساء فقد سخر منه القوم ، وتذكر بعد ذلك أن الإسكندر ، يوما ما ، راح يعدو عارياً حول مقبرة اخيليس ، فلم يرضه شىء سوى القيام بمثل فعلته .

وجاء آخرون بعد كراكلا - موكب لا ينتهى من السائحين العازمين على أن يطأوا بأقدامهم البقعة المقدسة وهم فى طريقهم إلى فارس أو أورشليم — وزار الإمبراطور جوليان نوفم اليوم (Novum Ilium) عام ١٢٤ ميلادية ،

www.ibtesama.com/vb

وقام بدفن عظام أجاكس (Ajax) من جديد ، فالإمبراطور الصغير الذى ضحك حين قدس المسيحيون عظام الشهداء ، تعبد متهجدا فى محراب أجاكس ،وبعدذلك بمائتى عام قرر الإمبراطور قسطنطين (Constantine) ، أن يبنى عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية فى الشرق ، وفكر فى إقامتها بطروادة قبل أن يقرر نهائيا تشييدها فى بيزنطة Byzantium. وظل الطرواديون إلى ما بعد ذلك بأعوام قليلة يقدمون قرابينهم على المذابح القديمة ، ولكن مع مجىء الإمبراطوريين المسيحيين فقدت المدينة أهميتها .

وظلت طوال ألف وخمسمائة عام تحرس مداخل الدردنيل ، والآن نمت الحشائش فى الطرقات ، وتداعت أسوار المعابد والقصور ، وسرعان ما اختفت معالمها فلم يبق منها سوى تل ضخم من الأشواك والأعشاب ، ويقول سوولف (Saewulf) المؤرخ الإخبارى الإنجلو سكسونى ، الذى مر عن كثب من سواحل الترود (Troad) عام ١١٠٠ بعدالميلاد تقريباً، إن أطلال طروادة كانت متناثرة فوق عدة أميال،وبعدذلك بمائتى عام قال سيرجون مانديفيل ذلك السائح الغامض الذى يحتمل ألا يكون قد زار الشرق قط ، لم يتبق شىء لأن طروادة تخربت برمتها .

وبقيت طروادة على الرغم من تخريبها ، ولم يكن لأية مدينة أخرى سوى أورشليم مثل هذه القدرة على إلهاب خيال الناس ، فحفظها فرجيل Virgil وهوميروس Homer حية خلال النهضة الأوربية ، وحلم الدارسون الإيطاليون باليوم الذى يستطيعون فيه هم أيضا ، السير فى الطرقات التى كان يذرعها اخيليس بخطواته الواسعة « متسامقا بالجبل» ، ويظن الإنجليز أحيانا ، كما يظن الرومانيون ، أنهم أخلاف الطرواديين ، زاعمين أن اسم لندن الأصلى هو(طروينوفانت Troynovant أو « طروادة الجديدة » ، وفى « أغانى فرنسا الشعبية » برزت طروادة كمدينة حية ، وازدادت تألقا لأنها كانت مدينة من غراس الخيال .

وفى عام ١٨٧٠ بدا أنه لم يكن هناك سوى اثنين — فرنك كلفرت وهنريش شليمان — راسخى الإيمان بأن طروادة مدينة حقيقية ، وأن أسوارها وقصورها بل وأثاثات الطرواديين وآدابهم مطمورة فى تل هيسارليك ، وكان تشارلس

www.ibtesama.com/vb

مكلارن ، عالم الآثار الألمعى قد مات وهو الذى سبق أن أثبت ، لإرضاء نزعة ذاتية وجود طروادة فى هيسارليك حتى عام ١٨٢٢ ميلادية ، أما العلماء فكانوا مجمعين على وجود طروادة فى بونارباشى (Bunarbashi) ، وقلة من الناس هم الذين كانوا يعتقدون أن شيئاً ما قد يسفر عنه التنقيب فى هيسارليك .

وكان فرنك كلفرت يعوزه المال والحافز كى يقوم بتنقيب شامل للتل ، فالجانب الشرقى من التل كان ملكا له ، أما الجانب الغربى فكان يملكه اثنان من الأتراك يعيشان فى كوم كيل .

وكان شليمان مقتنعا أن أهم الكشوف ستتم فى الجانب الغربى المطل على البحر ، فقرر اقتحام الجانب الذى يملكه الأتراك ، مهملا إلى حين ارتياد الجانب الذى يملكه كلفرت ، وقال فيما بعد « كنت واثقا من العثور على مبان عظيمة ، كذلك ساورنى الأمل أيضا أنهم سيغفرون لى جرأتى حين يرون الكنز » فمنذ البدء وعينه على الكنز المطمور .

وفى التاسع من أبريل حفر أول خندق بمساعدة عشرة عمال أتراك من قرية رمكوى القريبة ، وكان يدفع للعمال عشرة قروش يوميا ، وكان شليمان يقف من فوقهم ، وفى حزامه غدارة وبيده سوط ، وأول مجرفة امتلأت من ركام الأرض المحفور من ركن التل الشمالى الغربى فى مكان يتفق ، بطريقة مشوشة ، فى ذهن شليمان مع موقع بوابة سكاى (Scaean Gate) ، وبعد الحفر لمدة ساعة ، عثر العمال على بقايا سور على عمق ذراعين من السطح ، فاستولى الانفعال على شليمان ، وراح العمال يشتغلون بجد ، وعند غروب الشمس كانوا قد كشفوا عن أساسات بناء طوله ستون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا .

وفى اليوم التالى ، بزيادة أحد عشر عاملا ، شرع فى الحفر عند الركنين الجنوبى الشرقى والجنوبى الغربى من البناء الذى كان يبرز ببطء أمام ناظريه ، وأخيرا ظهرت أحجار الرصف ، وكانت مغطاة بالثرى وركام الأرض المتخلف

www.ibtesama.com/vb

مع طول العصور — روث الأغنام ، ونفاية النباتات ، وركام التعرية الجوية — لم تكن هناك بقايا خزفية ، إذ اقتصر الأمر على هذه القشرة الأرضية ، ثم حفر تحت أحجار الرصف ، ووجد بالضبط ماسبق أن توقع العثور عليه : رماد — مادة متكلسة - دليل الحريق ، وكانت بقايا الحريق كثيرة ومرتبة بطريقة منظمة حتى لقد استنتج أن عشرة منازل خشبية كانت قد أتت عليها النيران ؛ قبل تشييد آخر منزل حجرى فوق أطلالها ؛ عثر فى الرماد على عملة ، تحمل على أحد وجهيها صورة الإمبراطور كومودس ؛ وعلى الوجه الآخر صورة هكتور بن بريام القائد العظيم ؛ الذى تزعم قوات طروادة ؛ وفى نظر شليمان كانت العملة التى تحمل النقش «هكتور اليون Hector Ilieon » (هكتور طروادة)أعظم العلامات يمنا .

وظل شليمان يحفر مدة يومين حول هذا البناء ؛ ولكن فى اليوم الثالث ؛ لحشيته من وصول الملاك الأتراك فى أية لحظة ؛ ولتعجله فى استكشاف بقايا أكثر نفعا ؛ شرع فى حفر خندقين طويلين ؛ أحدهما من الشرق إلى الغرب ؛ والثانى متجها نحو الشمال ؛ وبتقسيمه قمة التل إلى شرائح ، أمل أن يكون صورة عامة عن المدينة المطمورة ، بالضبط كإنسان يقيم خطوطا مستقيمة على زوايا قائمة ، عبر قرية صغيرة ، فاحصا جميع الأشياء التى تصادفه على امتداد هذه المستقيمات ، قد يستطيع أن يحصل على رسم تقريبى للقرية بأسرها ، فهذه المستقيمات ، فى مكان ما ، قد تشق الطريق العام ، أو دار عمدة القرية ، أو مكتب البريد ، أو مستودع آلة إطفاء الحرائق .

وكانت خطة شليمان سليمة تماما ، ولكنه ما كاد يشرع فى القيام بضروب هذا التنقيب الجديد ، حتى وصل الأتراك ، ليجدوا جيشا صغيرا من الحفارين فى أرضهم ، فأوضح شليمان ، عن طريق مترجم ، أنه يقوم بعمل ذى أهمية علمية ، وأنه لا يحتاج شيئا لنفسه ، وأنه يضفى الشرف على تركيا بوجوده فيها ، فاحتج الأتراك فى تخوف وتصعيب للأمور ، أنه لاحق له فى وجوده هناك ، وطلبوا منه الرحيل ، فطاف بهم شليمان البقعة ، وهو يتزلف إليهم ، ويحاججهم ، ويلق

www.ibtesama.com/vb

خطبا مسهبة عن اكتشافاته ، التى سرعان ما سيستقبلها علماء الآثار بالإكبار فى كل أنحاء العالم ، وكان قد اكتشف فعلا جانبا من سور معبد « بلاس أثينا Pallas Athena » والعديد من العظام ، والآجر ، وأسنان الخنزير البرى ، وآثار حريق .

وكان أكثر اهتمام الأتراك منصبا على كتل الأحجار التى رفع عنها الروم ، فقد انتووا تشييد قنطرة من الحجر على جدول سمواس وهذه الكتل لاءمت غرضهم تماما ، ومن ثمة وافقوا على أن يدعوا شليمان يواصل حفر الخندقين الطويلين شريطة السماح لهم باستخدام الأحجار فى تشييد القنطرة ، دفع لهم أربعين فرنكا ، فانصرفوا وهم يبتسمون .

واعتاد شليمان طوال حياته كمنقب حفار ، أن يطلق أسماء تتسم بالبطولة على استكشافاته ، فما كاد يعثر على سور ضخم حتى أطلق عليه اسم معبد بلاس أثينا ، بعد ذلك بقليل ، خلال التعمق فى الحفر بالخندق الشمالى ، اكتشف تحت اثنتين وعشرين طبقة من رماد الحريق ، تمثالا نصفيا لامرأة من الطين النضيج ، فسماه فورا تمثال « هلن طروادة » النصفى ، ولوثوقه فى تفوقه الذاتى ، وعدم تردده قط فى بسط مزاعمه الضخمة ، فهو قلما سمح لذهنه بأن يرد عليه أدنى خاطر من الشك أو التظنن ، ولكن الريب ، على الرغم من ذلك ، كانت تتسلل أحيانا .

وكلما ازداد تفكيره فى مقابلته مع الأتراك ، ازداد اقتناعا بأنه تحت رحمة قوات لا سلطان له عليها ، وبدفعه لهم أربعين فرنكا ، ووعده إياهم استخدام الأحجار فى إقامة القنطرة ، حصل على هدنة مؤقتة ، ولكن ماذا يحدث لو نقضت الهدنة ؟ وماذا لو أصر الأتراك على التمسك بحقوقهم ، لقد حاول مساومتهم فى الأرض ، ولكن الثمن الذى طلبوه كان فاحشا ، لقد طالبوا بالأحجار لاستخدامها فى إقامة قنطرتهم المشئومة — وهذا أسوأ ضرب من التضحية — فكيف يتعامل معهم ؟ وكيف يحصل على حقوق كاملة على العين ؟ وكان لا يزال يناقش

www.ibtesama.com/vb

هذه الأسئلة عندما عاد الأتراك بعد ظهر اليوم الحادى والعشرين من أبريل ، وقالوا إنهم قد حصلوا من الأحجار على ما يكفى لقنطرتهم ، وأمروه أن يوقف الحفر .

ولم يكن لدى شليمان أسلحة يصد بها هذا الإنذار ، ولم يكن يستطيع أن ينبرى لنضالهم على مستواهم ، ولكن فى استطاعته مناضلتهم على مستويات أخرى ، وعند المساء ، وهو فى حالة نفسية كانت خليطا عجيبا من الاستسلام والقنوط والآمال المترامية فى المستقبل ، حرر سلسلة من الرسائل ، وصف فيها ماقام به ، وما واجهه من المشاكل ، وبعث بها إلى أصدقاء فى ألمانيا وفرنسا وأثينا والقسطنطينية ، وكتب إلى صديق واسع النفوذ بألمانيا مايلى :

« لقد كشفت عن أطلال قصور ومعابد ، على أسوار مبان أكثر قدما ، وعلى عمق خمس عشرة قدما ، وقعت على أسوار ضخمة ، سمكها ست أقدام ، ومقامة فى أبدع تكوين ، وعلى عمق سبع أقدام ونصف ، وجدت هذه الأسوار نفسها مستقرة فوق أسوار أخرى سمكها ثمانى أقدام ونصف ، ويقينا أن هذه هى أسوار قصر بريام أو معبد أثينا .

ومن سوء الطالع أن ثمة منغصات لا تنقطع ، يثيرها اثنان من الأتراك يملكان الأرض ، ومن المحتمل أن يضطرانى لإنهاء عملى فى الغد ، وإنى لأنوى فى الوقت الحاضر أن أتخذ كافة الإجراءات المستطاعة لشراء الأرض ، ولن يهدأ لى بال حتى أكون قد كشفت النقاب عن قصر بريام » .

* * *

ولم يكن ثمة ما يستطيع عمله آنذاك ، فأذعن للأمر الواقع ، وسدد ماعليه للعمال ، وعاد إلى أثينا ، حيث أمل أن يحصل على تصريح للتنقيب فى خرائب مايكناى ، فيقضى بضعة أسابيع فى ما يكناى ، ثم يستأنف الحفر فى الترود ، وفى حوزته الفرمان من الحكومة التركية وكذلك تل هيسارليك .

www.ibtesama.com/vb

وحيثما أقبل أو أدبر لاقته العراقيل ، فقد رفض اليونانيون أن يصرحوا له بالتنقيب فى مايكناى ، زاعمين أن البقعة المحيطة ، تعج برجال العصابات ، وكان فرنك كلفرت قد تماثل حديثا للشفاء من مرض خطير ، ولم يكن فى حال تسمح له بمساعدته ، وكانت صوفيا لا تزال طريحة الفراش ، ودون شليمان وصفا لمغامرته ، ذات الأيام العشرة ، فى الترود بعث به إلى « صحيفة كلن » Kölnische Zeitung مقرراً فى صراحة أنه قام بحفر التل دون تصريح من أصحابه ، وتعجب حين علم أن السلطات التركية قد اطلعت على ما كتبه ولم توافق على تصرفاته ، ولم يكن لديه مايفعله سوى أن يقضى وقته فى أثينا وهو كظيم .

وأبغض تعطله عن العمل ، ولم يستطع أن يدرك سبب تقاعس فرنك كلفرت عن معاونته ، وعرض أن يدفع مائة جنيه ثمنا للأرض التى يملكها التركيان وأضاف دون تلطف أنه إذا استطاع كلفرت شراءها بقيمة أقل ، فالفرق يصبح كسبا حلالا له ، وكانت كل الأمور عند شليمان فى غاية البساطة ، فحين تصبح الأرض فى حوزته ، يستطيع أن يستأنف التنقيب ، وهو على أتم استعداد لأن يقضى ثلاثة أشهر من كل عام ، مدة خمسة أعوام ، للإشراف على تنظيف القصور المطمورة فى التل من الردم والنفايات .

ومرت أسابيع وشليمان ترهقه تعاسة الحبوط ، فأمطر فرنك كلفرت بالرسائل يطلب إليه التوسط لدى الحكومة التركية ، مترقبا كما هو الحال دائما « بقلق شديد ماتبعث به من أنباء » ولكن لم يكن لدى كلفرت سوى القليل يستطيع عمله — أو القليل يميل إلى عمله — فالأتراك كانوا حانقين وغير راغبين فى منح أية مساعدة لرجل حفر خنادق ضخمة عبر الأملاك التركية .

وحل الصيف ، فاشتد القيظ ، وتعذر الحفر فى سهل طروادة ، ورحل شليمان إلى باريس والنقاش المهذب الذى افتقده فى أثينا ، وكان يستثمر أموالا طائلة فى العقار — أكثر من ألفى شخص كانوا يقيمون بالأبنية التى يمتلكها — وكان

www.ibtesama.com/vb

يشرح صدره أن يشرف على أملاكه من حين لآخر ، وفى يوم من أواسط شهر يونية، حين كانت باريس خالية ، تسلم خطابا من سيرجى فى بطرسبرج ، وقد ذكر الغلام أنه لم يكن موفقا فى دراسته .

فرد شليمان عليه برسالة بالفرنسية ، أمليئة بالتفاخر الجاف ، حتى ليتوهم من يطالعها أن كاتبها رجل مشرف على الجنون ، فقد كتب يقول :

« من بواعث الأسى الشديد أن أسمع أنك غير موفق فى دراستك ، فلزام فى هذه الحياة أن يلازم المرء التوفيق ، وإلا أصابه الخور والوهن ، حاول إذن أن تحذو حذو والدك ، الذى أثبت دائما ، فى كل المراكز التى شغلها ، قدرما يستطيع المرء إنجازه على شرط امتلاكه لطاقة عارمة ، لقد أتيت بالمعجزات خلال الأعوام الأربعة التى أقمتها فى امستردام من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٦ ؛ لقد فعلت مالم يفعله أحد من قبلى قط ، وما لن يستطيع أن يفعله أحد من بعدى ، ثم أصبحت تاجرا فى سنت بطرسبرج، فلم يكن ثمة تاجر آخر مثلى دربة وتهذيبا ، ثم أصبحت سائحا متجولا ، متجولا غير عادى ـ متجولا جليل القدر ـ ولم يضع تاجر آخر فى سنت بطرسبرج مؤلفا عاميا قط ، ولكنى وضعت كتابا ترجم إلى لغات أربع، ونال إعجاب العالم بأسره ، وأنا الآن من علماء العاديات ، وجميع سكان أوربا وأمريكا قد بهرهم كشفى عن مدينة طروادة القديمة ، طروادة التى ظل علماء الآثار من جميع الأقطار يبحثون عنها دون جدوى مدة ألفى عام . . . »

• • •

« لقد فعلت مالم يفعله أحد من قبلى قط ، وما لن يستطيع أحد أن يفعله من بعدى » . . . هذا التفاخر مبعثه الضعف ، إنه صيحة قنوط ، أطلقها من فرط وحدته وشقائه ، حين راح يبحث عبثا عن أهداف لحياته الخاصة ، لقد كان يؤمل أن يكشف النقاب عن مدينة طروادة الأسطورية، ولكن اثنين من مغمورى الفلاحين الأتراك ، اللذين ترعى ماشيتهما عبر تل هيسارليك ، لم يتورعا عن أن

www.ibtesama.com/vb

يأمراه بالابتعاد عن أملاكهما ، كما لو كان أحد المعتدين من عامة الناس ، وليس من حقهما أن يفعلا هذا ! فهو ، شليمان ، قد رفع الركام عن المدينة المطمورة ، تلك المدينة التى أصبحت ملكا له بحق اكتشافه لها ، ألم يعد بأن يصرف مائة ألف فرنك فى أعمال التنقيب ، لا لغرض سوى إنارة طريق المعرفة أمام علماء العالم ؟ إنه يمتلك عقارات فى كل أنحاء العالم ، إذن لم يستعصى عليه امتلاك تل صغير فى ركن من آسيا الصغرى ؟ لم دنس هؤلاء الأتراك ، بسراويلهم الفضفاضة ، مدينته ، بإزالتهم للأحجار المقدسة ، واستخدامها فى بناء قنطرة ؟ وقبيل مغادرة هيسارليك طالبه هذان الفلاحان بمائة جنيه تعويضا عن الأضرار التى سببها ، ولكنه رفض الدفع دون شك .

وفى اليوم التاسع عشر من يوليو عام ١٨٧٠ ، أعلن نابليون الثالث الحرب ضد بروسيا ، وكان شليمان لا يزال فى باريس يتلظى غيظا ، ضد ذينك الفلاحين اللذين كانا من المحتمل آنذاك أنهما قد نسيا وجوده ، وكتب إلى فرنك كلفرت من بولونى — سير — مير (Boulogne - Sur - Mer) حيث فر بعد إعلان الحرب بوقت قصير ، يطلب إليه أن يمنع نقل أية أحجار من أسوار القصر الذى كشفه وأزال الأنقاض عنه ، فما من شك أنه لابد من وجود طريقة ما لمنع أولئك الفلاحين من تدمير عمل بقى على الأحقاب ثلاثين قرنا .

وفى نهاية أغسطس كتب إلى صفوت باشا ، الوزير التركى للتعليم العام ، خطابا مطولا مليئا بالرجاء ، يذكر فيه أنه لم يؤمل قط أن يعثر على أية كنوز مطمورة ، كلا ، فلم يكن هذا هو سبب قيامه بالتنقيب فى هيسارليك ، إنما على العكس فهو لم ينبر للعمل إلا بدافع من « حب العلم النقى الخالى من الغرض » مع رغبة وحيدة فقط ، هى إثبات أن مدينة طروادة مطمورة تحت التل ، وأرفق بخطابه نسخة من مؤلفه (ايثاكا والبلوبونيز وطروادة) ، وألقى بنفسه تحت رحمة رجال الحكومة التركية ، فهم دون شك سيدركون أهمية أبحاثه ، وهم دون شك لن يلوموه إذ قام ، وقد استبدت به حماسته العارمة لهوميروس حين وجد نفسه فى

www.ibtesama.com/vb

هيسارليك ، بقليل من أعمال التنقيب غير الهامة ، التى أثبتت على الرغم من هذا وجود قصر بريام والسور العظيم المحيط بالمدينة .

« اشتغلت خلال العواصف الممطرة كما لو كنت فى فصل الصيف ، وتوهمت أننى تناولت غذائى وعشائى ، بينما لم أكن قد أكلت شيئا طوال النهار ، وكل قطعة خزف كشفت عنها وأخرجتها إلى النور، كانت لى صفحة أخرى من التاريخ !» واعتذر إلى معالى الوزير عن تصرفه المتصلف ، وعرض عليه القيام بخدمته فى أى وقت ، لو أنه بعث فقط فى نفسه بعض الأمل بالتصريح باستئناف أعمال التنقيب، فلم يتسلم أى رد ، وواجه صفوت باشا الغامض شليمان الغامض عبر أوربا بأقصى مداها ، ولم يستسلم أحدهما للآخر قيد أنملة .

ولو أن شليمان لم يحرر هذا الخطاب المعيب ، بما فيه من عواطف الورع والتقوى وعبارات الاستغاثة المسرفة إلى « العلم ، الأم المشتركة ، التى يدين لها كل منا بحياته ، والتى يفتتن بها كل منا بنفس القدر من الحماس» لاختلفت قصة اكتشاف طروادة أشد الاختلاف ، والخطاب ، مع كل ماجاء به من ضروب الإنكار ، أقنع صفوت باشا بأن شليمان يبحث عن كنز مطمور ، وحين وصل شليمان إلى القسطنطينية أخيرا فى ديسمبر ، استقبله الوزير ببشر وإيناس، ووعده بكل ضروب العون ، مصرحا بإيمانه التام فى بركات العلم ، ولم يدخر وسعا فى أن يمنع استئناف أعمال التنقيب ، وانصرف شليمان من حضرة الوزير وهو مقتنع أن الأمر لن يتعدى أياما قليلة قبل أن يصبح تل هيسارليك فى حيازته تماما ، مع فرمان من الحكومة التركية ، تصرح له فيه بالقيام بالتنقيب وفق ما يشتهيه قلبه .

وإذ هو ينتظر فى القسطنطينية ؛ كان ذهنه منصرفا إلى قرب سقوط باريس ؛ ومشكلة الحصول على حق امتلاك تل هيسارليك — كان فرنك كلفرت قد حصل بعد لأى ونصب على وعد شفوى من التركيين ببيع أرضهما بمبلغ ألف فرنك — تسلم شليمان خطابا من زوجته مليئا بالحذر والقنوط ؛ وكان فى استطاعته أن

يقسو على الذين يحبهم ، فرد عليها بأنها ليس لديها أى سبب للقنوط ؛ فلو أنها فقط أحصت ماهى غارقة فيه من نعم — زوجها الذى يعبدها ، ومنزلتها فى الحياة وبيتها فى أثينا ، وجميع بسطاء القوم الخيرين المتعلقين بحبها ، بينما فى فرنسا كان مليونان من الرجال والنساء والأطفال يموتون جوعا ، وقذائف الأعداء تتساقط فوق منازلهم العزلاء ، وليس لديهم كسرة خبز تسد الرمق ، أو شظية من خشب الحريق يستدفئون بها — أجل وليتها فقط تفكر فيما هو أكثر أهمية وأجل خطرا من الشئون ! فقد زار صفوت باشا ، واستقبله مرحبا ، وأخذ وعدا بالفرمان الذى طال العهد فى انتظاره ، والذى سيصبح ، بعد أيام قليلة ، بين يديه سليما معافى ، وسيذهب إلى هيسارليك بعد بضعة أيام ، ويشترى الأرض ، ثم لا مناص من عودته إلى باريس فترة قصيرة ، ولكن عليها ألا تفكر فى أخطار الرحلة ، واستطرد قائلا :

« يجب عليك أن تسجدى فورا ، شكرا لله على كافة البركات التى أغدقها عليك ؛ وأن تطلبى إليه أن يغفر لك سماحك لنفسك فى هذه الأيام العصيبة بنسيان الخيرات التى أسبغها عليك بفضله العميم .

وتنسين أيضا أننى قد تعلمت اللغة التركية خلال إقامتى غير الاختيارية هنا ؛ وهأنذا أدرس اللغة منذ ثمانية عشر يوما ، وأؤكد لك أننى أكتبها وأتكلمها بطلاقة وقد استوعبت فعلا موسوعة من ستة آلاف كلمة . »

. . .

ومر أسبوع ؛ وكلمة واحدة لم تكن قد وصلت بعد من صفوت باشا ؛ وفى الثامن من يناير عام ١٨٧١ ؛ قدم شليمان ملتمسا رسميا للتصريح له باستئناف أعمال التنقيب ؛ فاستدعته وزارة التعليم العام بعد ذلك بعشرة أيام ؛ وهناك علم أن صفوت باشا قد أرق إلى محافظ الدردنيل بمنح تصريح لاستئناف أعمال التنقيب ؛ والأمر بشراء الأرض لحساب الوزارة .

www.ibtesama.com/vb

فراح شليمان يحرق الأرم من فرط غضبه ، « لقد صارحته فى أبسط عبارة برأيى فى سلوكه المعيب الشائن » ، موضحا أنه لم يدخروسعا ، خلال عامين ونصف عام ، للحصول على حق امتلاك الأرض ، تحفزه إلى ذلك أنقى المبادىء العلمية ، وكل ما كان يبغى فعله هو أن يثبت أن حرب طروادة لم تكن حديث خرافة ، وأن طروادة موجودة فعلا ، بيد أن المشكلة تتعلق باختراق جبل كامل بتكاليف باهظة ، ومن نكد الدنيا حقا ألا يسمح له بحيازة هذه البقعة التافهة من الأرض ، التى كان على أتم استعداد لدفع ثمنها .

وكان حاضرا ، خلال هذه المقابلة ، انجليزى هو مدير المتحف القومى ، ويبدو أن صفوت باشا ارتبك واستبد به الخجل من جراء هذه الغضبة العارمة ، ففعل كل ما فى وسعه لتهدئة شليمان بقوله إن كل شىء يسير بانتظام تام ، وما من شك أنه ليس ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى هيسارليك وشراء الأرض واستئناف أعمال التنقيب « مادام خاضعا للوائح الإمبراطورية العثمانية المتعلقة بأية كنوز يتم اكتشافها . »

وإذ تحول النقاش إلى هذا المجرى الجديد ، غمرت شليمان موجة من عرفان الجميل وكان واضحا أنه افترض حصوله على كل مطالبه ، فشكر الوزير فى تودد ، ووعد أن يذكر اسم الوزير فى كتابه القادم عن أعمال تنقيبه فى طروادة ، ومن الممكن والمحتمل جدا أن يكون شليمان قد أخفق تماما فى فهم ما قاله الوزير ، كذلك من الممكن أنه تعمد أن يخطىء فى تفسير كلمات الوزير ، فقد صاح متوعدا بالثبور وعظائم الأمور ، وحاول صفوت باشا تهدئته بالطريقة التركية ، قائلا إن شليمان رجل متزن يحسن تصريف الأمور ، ولا شك أن كل شىء مستطاع عنده . ويبدو أن شليمان استنتج من هذه الإيماءات المجاملة والبسمات المترددة ، موافقة الوزير وعطفه الصادق ، ولم يدر بخلده قط أنه كان يصرفه بأدب عن بابه ، وحتى آخر حياته أصر على القول بأنه حصل على وعد شفوى ، خلال مقابلته فى الثامن عشر من يناير ، خول له السلطة التامة على شراء الأرض واستئناف التنقيب .

www.ibtesama.com/vb

وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل ، والمطر ينهمر كالقرب ، إلى كوم — كيل ، وهى قرية صغيرة على السهل الطروادى ، فنقع المطر ملابسه ونفذ إلى جسمه ، وأنهكته الرحلة ، وهناك علم أن الوزير كان قد أبرق أوامره بشراء الأرض فى العاشر من يناير ، وأن حجة الشراء أرسلت إليه بعد ذلك بيومين ، وفى الحال طلب شليمان أخذه إلى حيث كان محافظ الدردنيل ، وسأله عما إذا كان الوزير قد ألغى الأمر ، فأجاب المحافظ قائلا : « كلا ، لا زال الأمر قائما » ، وإذ أحس الخيانة ،عاد شليمان إلى أثينا وهو يتلظى غيظا وكمدا .

وإذا كان الأتراك قد ظنوا أنه انصرف عنهم إلى غير رجعة ، فقد جافاهم الصواب .

كان شليمان رجلا قلما يغير آراءه ، وقد أقنع نفسه منذ عهد بعيد أن الأرض ملكه بحق الفتح ، ألم يترك عليها سمته التى لا تنقض ؟ وعلم أيضا أن الوزير دفع ستمائة فرنك ثمنا للأرض ، بينما هو نفسه كان مستعدا لعرض ألف فرنك ، ولا مراء أن الأرض يجب أن تئول لصاحب أكبر عرض ! فإذا كانوا قد رفضوا إعطاءه الأرض ، فما ذلك إلا لأنهم يبخسون العلم حقه من التكريم ، إذ هم همجيون ، وقد أفزعتهم عظمته المتسامقة كعالم للعاديات ، طبقت شهرته آفق أوربا — كان مستعدا أن يستخدم كل الحجج ، على جميع المستويات ، كى يبزهم فى الدهاء — وكطفل يبغى الفكاك من مأزق ، كان مستعدا أن يركل بقدميه ويضرب بيديه فى كل جانب .

وأخذ أول هجوم له شكل خطاب مطول إلى وين ماك ڤيه « Wayne Mac Veagh » سفير أمريكا لدى الباب العالى ، طالبا وساطة السفير ، ومرفقا به أربعة آلاف قرش — ثلاثة آلاف منها ثمنا للأرض، والألف الباقية لما سيتحمله السفير من مشقة — وفى هذا الخطاب يصف شليمان مقابلته مع صفوت باشا ، فيصف نفسه كفارس من القرون الوسطى ، فى زرد متألق؛ ويصف الوزير كفدم

www.ibtesama.com/vb

عاجز ، نسى أن يلغى أمرا بعد أن وعد بأن يفعل ذلك ، وقد كتب يقول :

« لا مجال للشك فى أن معالى صفوت باشا أعطانى تل هيسارليك ، وخولنى الحق فى السفر إلى هيسارليك وشرائه رسميا ، ومن ثمة فيتبع ذلك أنه إذا كان لكلمته كرامتها ، فالمكان يصبح ملكا لى بثمن قدره ثلاثة آلاف قرش ، وهو المبلغ الذى دفعه فيه ، ولذلك أسمح لنفسى أن أرفق بهذا مبلغ أربعة آلاف قرش ، راجيا دفع ثلاثة آلاف منها لمعالى الوزير ، كما أرجو أن تتفضلوا بقبول الألف الباقية لتغطية تكاليف هذا الملتمس ، وهو يعلم أن كل ما قررته الآن حق ، ولن يتردد لحظة فى فى الموافقة على مطالبى .

وهذه ليست مسألة تعامل تجارى ، ولكنها مسألة تتعلق بالبت فى أهم المشاكل التاريخية قاطبة ، وسيقابل العالم المتمدين بأسره ، كل خطوة تتخذها فى هذا الشأن بالثناء والمديح . »

وكان لشليمان فى جنونه منهج معين ، فسيمطر رجال الحل والربط فى القسطنطينية بالمزيد من رسائله ، وسيخرج إليهم فى كل ضروب تنكره : دمثا ، متشددا ، جذابا ، يضيق بكل معارضة ؛ ومن ثمة شيئا فشيئا يحطم كل مقاومة ، وفى النهاية تسود إرادته .

وفى غضون ذلك كان لديه مزيد من الأمور المستعجلة تستدعى اهتمامه ، فباريس ، فى ذلك الشتاء ؛ كانت محاطة بمدافع جيش ولى عهد بروسيا الثقيلة إحاطة السوار بالمعصم ؛ وكان شليمان منزعجا لانشغاله بمصير أملاكه ؛ فقد كان شديد الشغف بمنزله فى محلة سنت ميشيل الذى كان يضم مكتبته ومجموعة صغيرة من كنوز العاديات ؛ التى حصل عليها من الشرق الأقصى وايثاكا وثيرا ؛ ومن بينها القارورة التى تحوى رفات أوديسيوس ؛ وإذن فلا مناص من العودة إلى باريس .

وإذ تسلح بكتاب توصية من سفير بروسيا فى أثينا ، رحل على عجل إلى ميونخ

www.ibtesama.com/vb

وحصل على المزيد من كتب التوصية ، وذهب إلى ستراسبورج، حيث قابل الكونت بسمارك — بوهلن المحافظ العام ، ثم توجه إلى فرساى حيث حاول أن يحصل من الأمير بسمارك نفسه على جواز أمان لدخول المدينة المحاصرة ، ولكن الأمير بسمارك والرئيس جول فافر (Jules Favre) اللذين كانا قد توصلا فعلا إلى ضرب من المهادنة ، اتفقا ألا يدخل باريس أحد حتى يعود السلام .

ومن خصائص شليمان أنه كان يعتبر كافة القوانين التى تعرقل تنقله ، بما فى ذلك الأحكام العسكرية ، كتعديات صارخة على الحرية ، فاشترى بخمسة فرنكات جوازا مزيفا ، مكتوبا باسم وكيل مكتب البريد كلين من مدينة لاينى (Lagny) وكان شليمان فى التاسعة والأربعين من عمره ولكن يبدو فى سن الستين ، بينما كانت الصورة الفوتوغرافية الملصقة بجواز المرور ، لرجل فى نحو الثلاثين من عمره، ولم يك ثمة محيص من أن يثير الريب من حوله ، كلما اخترق صفوف الألمانيين ، وقد احتجز ثلاث مرات للتحقيق معه ، ولقد قال فيما بعد إنه كان من المحتمل أن يسند إلى جدار ويعدم رميا بالرصاص ، ولكنه تذكر شغف الألمان الملتاث بالألقاب ، فراح يدعو ، كل ملازم قائدا وكل جندى صغير عقيدا ، فنجح بالمداهنة والثناء فى اختراق الصفوف دون أذى .

وكانت فحوى الأنباء التى وصلت إلى أثينا أن باريس أصبحت أطلالا ، ولكنها لم تكن كذلك ، فقد وجد شليمان ، خلال طوافه حول المدينة ، أن جميع المبانى المعروفة كانت لاتزال قائمة على حالها — فالبانثيون وكنيسة القديس سلبيس والسوربون لم تمس — وكانت شقته رقم ٦ محلة سنت ميشيل ، والمنزل الذى يملكه بجوارها ، كانا كما تركهما تماما ، فانسابت الدموع على وجنتيه حين دلف إلى مكتبته — « دموع كتلك التى قد تنهمر من عينى لو أنى شاهدت طفلا قام من بين الموتى وبعث حيا » — ومثار العجب أن المنزل رقم ٦ محلة سنت ميشيل أصيب بضربة مباشرة ، فوجد شليمان نفسه يستعيد إلى ذاكرته ذلك اليوم الذى قضت فيه النيران على جميع المخازن ماعدا مخزنه فى ميمل ، ومرة أخرى حمته

www.ibtesama.com/vb

الأقدار لحكمة إلهية سامية ، وكان الربيع ، وكانت أشجار «أبى فروة» مزهرة، وكانت باريس فى مساء العشاء الربانى (Commune) رائعة كعهدها دائما ، فكتب إلى صديقه جوتسشوك ، من رجال الأعمال فى ورتمبرج يقول :

« لقد تغير وجه باريس قليلا جدا خلال النهار ، فالطرقات يغشاها من الناس بالقدر الذى كان يغشاها من قبل ، أما العربات فقليلة ، ذلك لأن القوم أكلوا الخيول ، وباريس كئيبة فى الليل ، فالضوء الوحيد الذى ينير الطرقات ، ينبعث من مصابيح زيتية حقيرة ، وتفتح المسارح نهارا لانعدام غاز الاستصباح ، وكل المتاحف ودور الكتب العامة ماعدا السوربون لا تزال مغلقة ، ومن دواعى اغتباطى العظيم أن كلية فرنسا (College De France) ستفتح غدا أبوابها ، ومن بين مئات الأكاذيب التى سمعتها عن باريس ، تلك الأكذوبة القائلة بأن الأشجار فى كل مكان ـ فى الشوارع ، وحدائق التويلرى ، وبارك مانسو ، والشانزيليزيه ـ قد اقتلعت ، فدعنى أؤكد لك أن شجرة واحدة لم تقتلع ، وقد تضرب فى أحشاء غابة بولونيا بضعة أيام قبل أن تقع على أشجار مقطوعة ، وهذه تكون عادة قرب التحصينات والقلاع . . . »

* * *

وحين كانت باريس فى حوزة رجال «الكومون» الفرنسيين (Communards) كان شليمان لايزال هناك ، وكان مؤمنا بفرنسا ، قليل الثقة بألمانيا تحت الحكم المطلق — كان متفقا فى الرأى مع فكتور هيجو ، أن ألمانيا ستصبح جمهورية يوما ما ، ولا أهمية لقدرتها على غزو بلاد أخرى ؛ مادامت ستغزى بدورها — وراح يزجى الوقت بمكتبه فى هدوء ، ويفكر فى الحرب من بعيد .

وكتب إلى فرنك كلفرت يلمع إلى أن اجتماعا يضمه مع صفوت باشا والسفير الأمريكى . قد يسفر عن بعض النفع — لامشاحة أنه لابد ألا يسمح للفرصة بأن تتبدد فى متاهات الباب العالى — ونذكر أن ثمة أشياء ثمينة عثر عليها فى

www.ibtesama.com/vb

هيسارليك ؛ فى مكان لايبعد كثيرا عن البقعة التى حفر فيها خندقه الأول ؛ ولعل هذا الكنز المؤلف من ألف ومائتى مدلاة فضية كبيرة ؛ من عصر انتيوخس (Antiochus) الكبير كان من العوامل التى أثرت بشدة على الوزير ، وفى هذه الحال يشير شليمان إلى تبرئه التام من كل غرض ! فعرض أن يعطى الوزير كل مايستكشفه من كنوز ذهبية وفضية ومن عملة مسكوكة ، كذلك عرض أن يسمح بوجود مراقبين من الوزارة فى بقعة التنقيب ؛ شىء واحد رفضه : فهو لن يحفر مالم يحصل على حجة امتلاكه للأرض ، وبهذا الصدد كتب يقول :

« بل إنى سأعطيه ضعف قيمة الأشياء الثمينة التى قد أعثر عليها ؛ ذلك لأنه لا مأرب لى قط سوى أن أحل المشكلة الضخمة المتعلقة بتوقع طروادة الحقيق ؛ وإنى مستعد أن أضحى ، فى التنقيب عنها ، بأعوام من حياتى ، وبنصيب ضخم من ثروتى ، ولكن التل يجب أن يصبح ملكا لى ، ومادام الحال ليس كذلك ، فلن أفكر قط فى بدء أعمال التنقيب،ذلك لأنى إذا حفرت فى أرض تمتلكها الحكومة فسأتعرض لمنغصات ومتاعب لاتنقطع . . . »

. . .

ولم يسبق له أن وعد بتسليم الوزارة كل الكنوز التى يكتشفها ، وأن يدفع بالإضافة إلى هذا ضعف قيمة المعادن الثمينة ؛ كان يتكلم كشخص اجتاحته موجة من الكرم غير المحدود ، الذى لا يكترث قيد أنملة للكنوز بعداستخراجها من باطن الأرض ، ولكنه فى الواقع كان لا يزال مصرا على أن يستولى على الكنوز ويحتفظ بها ، فإزاء نفاق الأتراك وخداعهم استعد لأن يستخدم قدرا أكبر من نفاق التاجر وخداعه ، ومن دهاء أوديسيوس .

فى تلك الأيام كان لايفتر عن التفكير فى اوديسيوس ؛ فهو على نحو ما ؛ كان يصقل نفسه منذ طفولته فى هيئة هذا الجوال الماكر ، وكانت صوفيا حاملا ، وقد تخير الاسم الذى نوى أن يطلقه على ابنه الجنين — اوديسيوس .

www.ibtesama.com/vb

وكانت باريس فى أيدى رجال « الكومون » المحليين ، وفى بساطة اخترق شليمان الجسور صفوف الألمان بجوازه المزيف ، فوصل أثينا فى مايو وزوجته على وشك الوضع ، وكان يتوقع دائما أن يكون المولود صبيا ، ولكنه رزق بطفلة دعاها اندروماخا (Andromache) وهو اسم زوجة هكتور الجميلة .

وفى يونية ؛ بعد ميلاد اندروماخا بشهر ، خف إلى القسطنطينية ، وتقدم إلى صفوت باشا بعرض جديد ، وما دونه بهذا الخصوص يكشف عن خلق الرجل — دهاؤه الماثل لدهاء اوديسيوس ، وشعوره الشديد بقيمته الذاتية ، وتلك الصفة التى يسميها اليهود « شتزبا Chutzpa » وهى ليست بقوة العصب أو شدة المرة ولكنها ألطف مافى الاثنين ، فقد أنكر أنه كان يؤمل فى العثور على كنز مطمور ، مدعيا أن هذا هو آخر ما يدور بخلده دون شك ، وأعطى أشد المواثيق ، بأنه لو حدث أن استخرج أية كنوز ، اقتسمها مع الحكومة التركية ، ولم يطالب بأى حق فى الأرض ، واكتفى بطلب مده ، باسم رئيس الوزراء ، بالحماية التى تمنح لأى أجنبى فى مكان قصى من تركيا ؛ فكتب يقول :

« أشرف بأن أقدم لمعاليكم اقتراحا أثيرا إلى قلبى ، يتعلق بأعمال التنقيب التى أرجو أن أقوم بها فى الترود ، قرب الدردنيل ، مستهدفا البت ، إذا أمكن ، فى حقيقة موقع قصر الملك بريام .

لقد قمت فعلا ببعض أعمال التنقيب الصغيرة فى هيسارليك ، وأعتقد أننى عثرت على القصر الذى يكون جزءا من مدينة طروادة القديمة ، ومن حسن الطالع أن المصاعب التى لاقيتها من جانب المالكين ، قد حسم أمرها الآن لشراء معاليكم للعقار .

ولست أؤمل أن تعثر معاليكم على أية كنوز هناك ، فمثل هذه الآمال فى ضوء الحقبة القصية التى نبحث عن أثارها ، وإذن فمهمتى ستقتصر على الاختبارات المتعلقة بعلم العاديات ؛ والقائمة على أساس كتابات هوميروس ، وإذا تصادف أن

www.ibtesama.com/vb

عثرت على أية أشياء قديمة ذات قيمة مما تحظى باهتمام المتحف الإمبراطورى ، فيسعدنى أن أقسمها ، نصف للمتحف ، والنصف الآخر لمجموعتى ، تعويضا لى عما سأتكلفه من مصاريف ، ويجب أن يتم التقسيم العادل لهذه الكنوز بحضور ممثل عن المتحف المذكور ، وأرجو أن يسمح لى بأخذ نصيبى إلى الخارج .

ولست أطلب من معاليكم أى عون مالى للقيام بهذا التنقيب ، فأنا نفسى سأتحمل العبء المالى بأكمله ، وعلى أية حال فإنى أرجو معاليكم إمدادى ، على وجه السرعة ، بفرمان من صاحب الرفعة رئيس الوزراء ، موجها إلى صاحب السعادة محافظ الدردنيل ، لحمايتى خلال قيامى بالأبحاث وأعمال التنقيب ، وكذلك حماية المبانى التاريخية ، التى يزاح عنها الستار كنتيجة لجهودى . »

. . .

وحسم كل المشاكل الهامة ، هذا الخطاب ، الذى كتب بمساعدة وين ماك ڤيه ، السفير الأمريكى ، وجون براون ، سكرتير السفارة المثقف العطوف ، فقد كان الدهاء والحيلة يختفيان بين طياته ، كما كان السم يمتزج بالشهد ، ولم يكن لدى شليمان أية نية فى التقيد بحرفية الاتفاق ، ولكن الآن توصل الطرفان أخيرا إلى اتفاقية لتسوية النزاع بينهما مع حفظ كرامتهما :

وكان شليمان بلندن فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٨٧١ حين وصل إليه طرد مختوم من السفارة الأمريكية بالقسطنطينية ، وكان الطرد يحتوى على الفرمان ، وإذ كان شليمان متلهفا على أن يبدأ الحفر ، فقد كتب فى نفس اليوم إلى فرنك كلفرت يقول إنه يؤمل أن يبدأ العمل فى أواخر سبتمبر : « أرجو أن تكتب إلى بأثينا عما إذا كانت الحمى قد زالت عنها ، وعن حالة الطقس العامة بالدردنيل فى شهر أكتوبر . »

وتعطلت الأمور مرة أخرى ، وفى السابع والعشرين من سبتمبر وصل مع زوجته إلى الدردنيل ، ليعلم فقط أن هناك بعض الشك فيما يتعلق بنص الفرمان ،

www.ibtesama.com/vb

فلم يكن واضحا ما إذا كان يشير إلى التل فى هيسارليك ، ولم يصل ترخيص إلى السلطات المحلية من أحمد باشا محافظ الدردنيل ، كما أن الفرمان ، وفق ماجاء به ، أمره «أن يحترم أسوار المدينة القديمة الذائعة الصيت » وتحير فيما قد يحدث لو أنه اخترق الأسوار الأسطورية الضخمة .

وكان قد أقام مقر قيادته العامة بقرية كيلاك (Ciplak) وأصبح كل شىء معدا ، فقد اختار رئيسا لعماله ، واستأجر العمال ، وجمع عجلات اليدوالسلال ، وفك حزم المجارف والمعاول والفئوس — كل ماتبقى هو اختراق آخر حواجز الروتين الحكومى — فبعث برسالة مستعجلة إلى براون ، شفعها بأخرى بعد ثلاثة أيام ، وأخيراً فى يوم الأربعاء ، الحادى عشر من أكتوبر ، تيسر له أن يقتحم التل ، فى ظل حماية الحكومة التركية العامة ، وفى أثناء العمل كان إلى جانبه موظف تركى ، اسمه جورجيوس سركيس ، وهو أرمنى المولد . وكان من قبل سكرتيرا ثانيا لمحكمة العدل العليا بالدردنيل ، وهو «عيون وآذان الحكومة» وعمله كالكلب الحراسة الدائم ، وليستوثق من عدم استخراج أية كنوز من باطن الأرض دون علم الحكومة التركية .

وكان شليمان قد استحضر ثمانى عجلات يد فقط من فرنسا ، ولذلك ابتدأ العمل فى أول يوم بثمانية عمال ، وفى اليوم الثانى إذ رأى العمل يتقدم بسرعة استخدم خمسة وثلاثين ، وفى اليوم التالى استخدم أربعة وثلاثين ، وكان يدفع لكل عامل تسعة قروش ، وهذه الأجور كان يقوم بدفعها نيقولاس زفيروس يناكس ، وهو يونانى ماكر ، دخل فى خدمة شليمان بعد زواجه بقليل ، وقام يناكس الذى قدم من قرية رمكوى ، وكان على دراية بكل اللهجات المحلية ، بعمله كحارس وطاه وصيرفى ووكيل أعمال عام ، وكان شليمان يضع فيه ثقته الكاملة ، وينديه دائما باسمه الصحيح على الرغم من أنه اعتاد دون تفريق أن يطلق على خدمه الآخرين أسماء يختارها من الأساطير اليونانية ، وحيثما وجد شليمان ، كان حتما أن يوجد يناكس فى مكان ما على كتف منه ، وكلما استدعى الحال رشوة موظف محلى ، كان شليمان يترك الأمر ليناكس ، الذى كان يدفع الرشوة من عملة ذهبية يحملها دائما فى حزامه .

www.ibtesama.com/vb

وحل فصل الأمطار ، والعمل لا يزال جاريا ، وكان شليمان متعجلا كمألوف عادته ، إذ كان يؤمل أن يكشف عن قصر بريام بأكمله فى ستة أسابيع ، وحتى خلال المطر كان العمال يشتغلون من السادسة صباحا إلى السادسة مساء ، وكانت هناك فترة راحة للفطور ، فى الساعة التاسعة صباحا ، قدرها ثلاثون دقيقة،وساعة ونصف للغذاء فى بكور ما بعد الظهر ، ولم يكن مصرحا لأحد بالتدخين إلا حين تناول الطعام — كان شليمان يرى أن التدخين يقلل من نشاط الإنسان وقدراته على التركيز — وكان فى إشرافه على الحفر رئيسا صعب المراس ، يلعن الأمطار وأعياد اليونانيين التى لا تنتهى ، لما تسببه من عرقلة العمل وتعطيله ، وثلاث مرات فى مدى شهر هبت عواصف شديدة أوقفت الحفر ، فكان يقوم فى تلك الأيام بتدوين تقاريره .

ولكن لم يكن ثمة ما يكتب عنه سوى القليل : فرادى من قطع النقد ، وعظام متكلسة ، وأسوار ضخمة ، وأدوات عجيبة لها هيئة جهاز الذكور الجنسى، مما بدا أنها تعود إلى عصر أقدم من عصر هوميروس بكثير ، وفى صباح الثلاثين من أكتوبر راح يكشف عن المئات من هذه الأشياء — رءوس رماح من الحجر الأخضر ، أشياء عجيبة على هيئة الجبال النارية ، أجهزة جنسية من حجر الدوريت الصلد الأسود ، بعضها محتفظ باللون الأبيض ، وجميعها مصقولة بعناية — ومن بين هذه الأشياء أنياب خنازير برية وقواطعها .

ولم يستطع أن يعلل هذا ، إذ كان ذلك آخر شىء يتوقع أن يجده ، وكانت هذه الأشياء تستخرج من باطن الأرض يوما بعد يوم وابتدأ يعثر على نماذج صغيرة من الطفل ، على هيئة البومة، فدار بخلده أنها قد ترمز إلى البومة التى تقدسها الإلاهة أثنيا بلاس، فهوميروس تكلم عن « أثينا ذات الوجه البومى» ، ولكن إذ كانت هذه الإلاهة هى الحامية العذراء لمدينة أثينا ، فسر الدارسون هذا الإصطلاح بأن لعينيها بريق عينى البومة وأنها تستطيع أن ترى فى الظلام ؛ كان يؤمل أن يجد كنزا ، وأسوار قصر مزركشة ، وربما غرفة جنائزية عظيمة ، ولكنه وجد

www.ibtesama.com/vb

بدل ذلك الأجهزة الجنسية الصغيرة المصقولة ، والبوم الملون ، وقطعا من القرميد مرسوم على كل منها رأس بومة ، وهنا وهناك آثار نحاس مصهور .

وأشد هذه الأشياء إثارة للحيرة كانت أشكال الطين النضيج ، الشبيهة بلعبة الأطفال (النحلة الدوارة) ، وبعضها به ثقبان ، التى وجدها على عمق عشرة أقدام ، فتذكر أجهزة التذكير من الحجر الثقيل التى كان قد شاهدها بالمعابد الهندية ، والتى ترمز إلى نظرية الذكور ، ومن ثم دار بخلده أن هذه (النحلة الدوارة) ترمز إلى نظرية الإناث ، ولكن وحق السماء ماذا تفعل هذه الأشياء فى قصر بريام ؟

لقد حيره كل ما كشف عنه فى هذا الشتاء ، وحقا إن البوم كان مقدسا عند الإلاهة أثينا ، وقد ظهرت على العملة الأثينية ، ولكن ذلك البوم بدا منحدرا من عصر سابق للتاريخ ، وظن أنه اكتشف بعض الآثار المنحدرة من العصر الحجرى ، فبعث بكتاب متشائم إلى جيمس كلفرت ، شقيق فرنك كلفرت ، يلتمس النصح ، فرد عليه كلفرت بأنه ليس ثمة مثار للدهشة فيما عثر عليه ، وذلك لأن اليونانيين لم يصنعوا خزف ملونا حتى القرن السادس والسابع ، ومثل هذه الأشكال المبهمة وجدت قبل ذلك ، وكتب إليه قائلا : « إياك وأن يثبط همتك الظن بأنك تعمل فى حقبة همجية ، واصل عملك ! »

وهكذا واصل شليمان الحفر ، وقد ازدادت حيرته ، وعثر على المزيد من أجهزة التذكير ومن « النحل الدوار » ، الذى كان يشبه ، مع الدهشة ، أشكال المرتفعات الجنائزية المتناثرة فوق سهل طروادة ، وعثر على مدى حادة من الزجاج البركانى ، يمكن استخدامها شفرات للحلاقة ، شبيهة بالزوارق ، ذكرته بالقوارب التى كان قد شاهدها فى الهند ، ولعل جميع هذه الأشياء انحدرت عن الهند ، وكان مقتنعا أن الأدوات المروعة ، الشبيهة بأجهزة التذكير الحية ، لها بعض الصلة البعيدة بالهند القيدية ، ولكن كانت هناك أيضا بعض الرسوم الحائلة

www.ibtesama.com/vb

اللون التى بدت مصرية ، وهنا وهناك عثر على قطع من القرميد ، منقوش عليها الصليب المعقوف ، وقد حيرته هذه الأشياء كما حيرته « النحلة الدوارة » من قبل .

واستأنف العمل ، وفى السادس عشر من نوفمبر كان يقوم بالتنقيب فى أحد الأسوار المكونة من كتل حجرية ضخمة مصقولة وغير مصقولة ، وظل خمسة وستون عاملا يشتغلون ثلاث ساعات، فى زحزحة عتبة باب واحدة بالغة الأثقال، وفى اليوم التالى كان العمل لا يزال مستمرا ، وكان الثامن عشر من نوفمبر يوم عطلة عند اليونانيين ، فرفض الرجال القيام بأى عمل ، وقضى شليمان وقته فى تدوين يومياته ، وهو رجل قلما تكلم عن نفسه باتضاع ، ولكن الحيرة تناوشته حين رأى المدى المصنوعة من الزجاج البركانى ، والنحل الدوار ، وأجهزة التذكير ، والصلبان المعقوفة ، والنقوش العنكبوتية ، حتى لقد دون ملتمسا عاما يطلب فيه العون لتوضيح مستغلق ما عثر عليه ، وكان معتادا أن يرسل نسخا من مذكراته إلى الدارسين فى الخارج ، وبأسلوبه المميز دعا أولئك « الذين ينشدون مزيدا من الاستنارة فى تلك الشئون ، أن يكتبوا إلىّ بعنوانى فى أثينا، حيث سأقوم بتمضية الشتاء » .

وكانت رياح الشمال القارصة تجتاح سهل طروادة ، ومتشحا معطفه الضخم، ومرتديا خوذة الشمس ، قرر أن يشرف على أعمال التنقيب حتى آخر لحظة ، ولكن فى الرابع والعشرين من نوفمبر ، بعد يومين من العواصف الشديدة ، تخلى عن القيام بأى عمل وعاد إلى أثينا ، حيث قضى شطرا من عطلته غير الاختيارية ، يجمع فيه الملاحظات لكتابة مقال عن الصليب المعقوف ، وخلافا للصليب النازى المعقوف ، يتجه الصليب المعقوف الحقيق من اليمين إلى اليسار ، ولا يكاد يوجد مكان فى العالم لم يعثر فيه عليه ، فهو يشاهد ضمن النقوش الصينية ، وعلى منبر سنت امبروز بميلان ، وعلى قارورة الرفات الجنائزية الكاتية بنورفولك بانجلترا ، وفى

www.ibtesama.com/vb

رمايانا نقشته سفن الملك راما على مقدمتها ، وقد جمع بعناية عددا ضخما من المراجع عن الصليب المعقوف : ويبدو أنه فكر فى وضع كتاب عن الموضوع ، ولكنه كان لا يزال مستغرقا فى فكرة الكشف عن قصر بريام ، ورفض التحول عن طريقه المعين ، ومن ثم أهمل الكتاب ولم يتمه .

وقضى الكثير من وقته فى إعادة كتابة مدونته ، التى ظهرت فى خمس مقالات فى صحيفة اجزبرج الألمانية **Augsburger Allgemeine Zeitung** وأعيد طبعها بعد ذلك فى كتابه « آثار طروادة القديمة » ، وقد صرح أرنست كرتيوس ، العالم الهللينى الذائع الصيت ، عقب مطالعته لتقاريره الأولى ، برأيه ضد هيسارليك ، لصالح بونارباشى ، فعصف الغضب بشليمان ، وقد سلم باحتمال امتداد الجزء المنخفض من طروادة على طول الوادى ، كما سلم باحتمال وصوله إلى بونارباشى ، ولكنه أضاف قائلا بأنه ما من أحد يقرر أن القصور لم تكن فى هيسارليك سوى أبله أو معتوه .

وعلى الرغم من نماذج أجهزة التذكير والتأنيث ، كان لا يزال معترفا بأنه اكتشف المدينة القديمة ، وكبار العلماء أمثال أرنست رينان ، وماكس موللر ، ولوتجبربيه ، قد يعتقدون أن طروادة مدينة من غراس الخيال المحض ، أما هو فكان مقتنعا بحقيقتها ، وفى مارس عام ١٨٧٢ ، قبيل قيامه برحلته العلمية الرابعة إلى طروادة ، كتب من أثينا يقول : « إن إيمانى بهوميروس راسخ لا يتزعزع ، فإذا نجحت فى كشف النقاب عن قصر بريام ، وهو اكروبول طروادة القديمة ، أحدثت اكتشافاتى هزة عاطفية شديدة بكل أنحاء العالم ، وسيخف مئات الآلاف من المعجبين بهوميروس ، للاعجاب بآثار تلك العهود التاريخية المقدسة» . أما إن مئات الآلاف منهم لم تحضر فلم تكن هذه غلطة شليمان .

وأقلع بحرا فى محاولته الرابعة مستبشرا منشرح الصدر ، وتسلم من مؤسسة شرودر بلندن هدية من ستين عجلة يد ، وعددا كبيرا من المجارف والفئوس الإنجليزية الممتازة ، فعاد مع زوجه إلى الدردنيل فى آخر شهر مارس ، واستأنف الحفر فى الخامس من أبريل .

www.ibtesama.com/vb

وشجرت الخلافات المعتادة مع العمال ، وهبت عدة عواصف ممطرة ، واحتفل اليونانيون بكثير من الأعياد ، حتى إنهم لم يعملوا خلال أسبوعين سوى ثمانية أيام فقط ، وفى بعض الأيام كان يستخدم مائة عامل ، وفى أيام أخرى مائة وستة وعشرين عاملا ، وأقام حسابه على أن يستخدم فى المتوسط مائة وعشرين ، يكلفونه ثلاثمائة فرنك كل يوم ، وبعد ابتداء الحفر بثلاثة أسابيع ثار معظم العمال ، حين وجدهم يدخنون ، وأمرهم بالكف عن التدخين ، وأسوأ من ذلك أن القلة من العمال الذين استمروا فى العمل ، قذفهم الباقون بالأحجار .

فتصرف شليمان بحزم ، إذ طرد جميع عماله تقريبا ، وقضى الليل يملأ أماكنهم الشاغرة . وقد وفق حتى إنه حصل فى اليوم التالى على مائة وعشرين عاملا جديدا يشتغلون لحسابه ، وإذ كان العمل يسير ببطء زاد يوم العمل ساعة ، فأصبح العمل الآن يبتدىء فى الخامسة صباحا وينتهى فى السادسة مساء ، بيد أنه كان لا يزال يعانى من نفوذ الكنيسة المشئوم السائب — أبطل العمل ستة أيام خلال عيد القيامة اليونانى — وحاول رشوة الرجال للعودة إلى العمل ، وهددهم بعقوبات مبهمة ، وقرعهم على الكسل ، ولكنه عاد من محاولاته بخفى حنين ، ولم تكن ثمة اكتشافات كبيرة بعد ، وكانت تساوره نوبات قنوط من حين لآخر ، حين كان يساوره إحساس رجل أنيط به خربة جبل بغير هدف .

وفى مايو كان هناك المزيد من أيام الأعياد ، فحاول مرة أخرى أن يرشى العمال بأجور مرتفعة ، ولكنهم أجابوه قائلين : «لو اشتغلنا ، أصابنا القديس بالأذى» . وفى تلك الأيام كان يقوم أحيانا بزيارة العمال ويصف العلاج لأمراضهم ، وكان الأطباء المحليون هم فى العادة الكهنة اليونانيون ، الذين يعالجون دائما بفصد الدم ، وكان شليمان يفزع من الدم وإراقة الدماء ، وكان يمقت بصفة خاصة فصد الأطفال — فى استطاعة المرء أن يتبين دائما تكرار فصد الأطفال بوجود تجاعيد عميقة حول شفاههم — أما عن نفسه فكان يعتقد أن العلاج الناجع هو الماء المالح ،

www.ibtesama.com/vb

وكتب يقول : « لست أفصد أحدا قط ، وأصف حمامات البحر لكل الأمراض تقريبا » .

وفى يوم أحضروا إليه فتاة تغطى القروح بدنها ، وكانت عينها اليسرى بأكملها متقيحة ، وكانت تعانى من نوبات الكحة ، ولا تكاد تستطيع المشى ، فكان علاجه لها جرعة من زيت الخروع ، والعديد من حمامات البحر ، وبعض تمرينات بسيطة لتوسيع صدرها وتنشيطه ، وبعد ابتداء العلاج بأسبوعين قامت بالرحلة التى تستغرق ثلاث ساعات من قريتها إلى خيمة شليمان فى هيسارليك ، حيث ألقت بنفسها عند قدمه ، وقبلت حذاءه ، وأخبرته أنها استردت شهيتها للطعام بعد أول حمام لها فى البحر . ولم يكن ثمة أمل فى شفاء عينها اليسرى ، ولكنها شفيت من معظم قروحها ، وكان يحلو له بعد ذلك بأعوام أن يروى قصة الفتاة التى قدمت إليه من قرية نيوخورى (Neo - Chori) ، والتى شفيت بماء البحر .

وحل فصل الصيف ، وكان الجو حاراً يتلظى ، ونقيق الضفادع بالمستنقعات يملأ سكون الليل بالعجيج ، وفى ذلك الوقت كانت تتسلل من الخرائب أفعى سمراء صغيرة ، رفيعة كالسياط ، ولكنها شديدة الأذى . وعلم شليمان أن القرويين يستطيبون بتعاطى جرعة من عصير عشب الحيات الموجود بالسهل الطروادى ، فراح ينشد السلامة بالسير على منوالهم .

ولكنه لم يكن من القوم الذين يؤثرون السلامة ، إذ كان يغامر كل حين ، وقد شق خنادق عميقة عبر التل ، وكان يتعجب حين تنهار الأسوار فى بعض الأحيان ، ويدفن عماله تحت الأنقاض — بمعجزة لم تكن إصابة أحد قط شديدة — وكان يتفقد أعمال التنقيب دائما ، وهو يتسلقها بخفة القرود ، وكان يكدح طوال النهار ويدون مذكراته خلال الليل .

ومع ذلك فلم يكن يعرف شيئا عن علم العاديات ، وهو علم كان آنذاك فى طفولته ، ولقد اضطر إميل برنوف ، مدير المدرسة الفرنسية بأثينا ، إلى تقريعه

www.ibtesama.com/vb

على إهماله، فلم يكن ليكفى استخراج نماذج أجهزة التذكير والتأنيث، وشظايا الخزف من باطن الأرض ، فلا بد من تحديد المواقع بالضبط ، ولا بد من إثبات التاريخ والزمن والظروف بالسجل اليومى ، وحذره قائلا : « عليك أن تهتم بتقرير هذه الأمور بدقة ، وإلا فلن تستطيع قط أن تصل إلى نتائج حاسمـــة ، فيما يتعلق باكتشافاتك الرائعة ، اعمل حسابا لهذا وليكن موضع اعتبارك! »وتلك الكلمات الأخيرة تظهره كمعلم نقد صبره ، وكان شليمان تلميذا مطيعا ، فزاد من عنايته بسجلاته ، وعنون كل شيء ، وتحقق أخيراً أن السجلات المضبوطة تكاد أن تكون أهم جانب فى أعمال التنقيب .

وعلى الرغم من ذلك فقليل جدا هو الذى كان يخرج للنور ، فالأسوار الضخمة ، وألواح الرخام بما عليها من نصوص تكريسية مطولة ، والجرار الضخمة القلياة ، وقطع الخزف الأسود الرقيق ، هى حصيلة اكتشافاته تقريبا . أما الملك بريام ، والأمير هكتور ، واخيليس ، فلم يكن لهم أثر ما .

وفجأة فى الثامن عشر من يونية عام ١٨٧٢ ، اكتشف صورة أثرية بارزة لا بولو ممتطيا جياد الشمس الأربعة ، وعلى الرغم من صغره كان أثراً رائعا — فالجياد صيغت بخفة ولكن مع الكثير من البراعة والقوة ، والإله متوج بإكليل تنبعث منه عشرة شعاعات طويلة وعشرة قصيرة ، وشعره الذهبى سائب مسترسل — وكان الأثر متأخرا ، لعله من العصر البطليموسى ، ولكن ابتهاج شليمان به كان عظيما ، فشرع فورا فى تهريبه خارج البلاد ، بمساعدة فرنك كلفرت ، الذى تم اكتشاف الأثر فى الجزء الذى يمتلكه من التل ، وقد ظل سنوات يزين حديقة منزل شليمان بأثينا .

وكلما تقدم الصيف دون العثور على أثر من طروادة هوميروس ، عاودته نوبات القنوط . وقد تكلف مصاريف باهظة فى إزالته لشرفة ضخمة على المنحدر الشمالى وكشفه عن برج حجرى ، ولكن الشكوك كانت تتزايد فى ذهنه ، وأصبح العمل

www.ibtesama.com/vb

الآن أكثر يسرا ، فالقنصل البريطانى بالقسطنطينية أرسل إليه عشر عربات يد ، وعشرين عجلة أخرى ، وكان لديه مستودع كامل من آلات الحفر — ست عربات تجرها الجياد ، ومائة وثمانى مجرفة ، ومائة وثلاثة فئوس ، وأربع وعشرين رافعة — ولكن على الرغم من أن العمل كان أكثر يسرا ، فإن آمال شليمان كانت آخذة فى النقصان .

وكان يدفع للعمال خمس سنتيمات عن أى شىء يعثرون عليه ، واتضح له اخيراً أنهم كانوا يزيفون من الطفل إلاهات ونماذج لأجهزة التأنيث ، وكان العمال يهابونه ويقل ميلهم إليه ، وعلى الرغم من ذاكرته القوية لم يستطع قطأن يتذكر أسماءهم ، ولكنهم كانوا يذكرونه بأناس رآهم من قبل ، ومن ثم أطلق عليهم أسماء جديدة — فهذا الشخص « الدكتور » وذاك (الراهب) وآخر (الدرويش) وآخر (المعلم) لأنه ذكره بمعلم سبق أن عرفه فى ألمانيا .

وفى ذلك الصيف ، شكا شليمان لأول مرة من التعب والمرض ، وأخذت النار القديمة فى الخمود ، وراح يتحدث عن التنازل عن الفرمان لجمعية ذات باع طويل فى علم العاديات ، أو لحكومة أجنبية ، وتكلم بمرارة عن استنفاد موارده ، وكانت عواصف من الغبار تملأ الجو أياما بأكملها ، فلا يستطيع العمال الرؤية إلا بشق الأنفس ، وأنهكتهم ريح الشمال ، وفى يوليو تصاعدت عليهم روائح العفن الوبائية (Miasma) ، وهى ، فى رأى شليمان ، متصاعدة من تحلل ملايين الضفادع الميتة ، ومع هذا العفن حل الفزع ، فقد أفزعته الأفاعى المتساقطة من عوارض المنزل الذى بناه فوق تل هيسارليك ، وأفزعته العقارب ، وأفزعه العمال .

وكان أحيانا يتطرف فى طوافه فيصل إلى قرية مجاورة ، ويغرق وحدته فى حديث مع صاحب حانوت يونانى ، يدعى قسطنطينوس كولبوس ، ولد بغير قدمين ، وكان قد تعلم الإيطالية والفرنسية ، ويستطيع تلاوة صفحات من الإلياذة عن ظهر قلب ، وكان يستمتع بمناقشاته مع الرجل المسن ، ولكن ثمة متعا أخرى قليلة كانت فى تلك «البرية المتوحشة الكئيبة» ، وفى الرابع من أغسطس حين كان يعانى

www.ibtesama.com/vb

فعلا من حمى المستنقعات ، وكان على وشك التوقف لحلول الصيف ، عثر على كنزه الأول .

وعند أول نظرة لم يكن الكنز بالقدر الذى يبتعث فيه أسباب النشوة ، كان مكونا من ثلاثة أقراط ذهبية ، ومن مشبك للملابس من الذهب ، وعلى كثب هيكل عظمى ، فصرح بأنه هيكل شابة ، وأكد أنها ماتت أثناء حريق طروادة ، وكتب يقول : « إن لون العظام لا يدع مجالا للشك أن النيران دهمت السيدة فاحترقت وهى حية . »

وواصل الحفر مؤملا الكشف عن المزيد من الكنوز ، ولكن على الرغم من عثوره على المزيد من نماذج أجهزة التذكير وعلى « بيضة طائر جميلة جدا مصنوعة من الرخام الجميل . » ولم تكن ثمة اكتشافات أخرى ذات قيمة ، وانقطع المطر مدة أربعة شهور ، وكان تل هيسارليك تخفيه سحب من الغبار أياما بأكملها ، وعلى حين بغتة هبت عواصف رعدية ، وبدا التل بأكمله كما لو كان قد تحول إلى طمى ، فأصدر أوامره بالكف عن أعمال التنقيب خلال هذا الفصل ، وعاد إلى أثينا مع زوجته ، وكان مريضا ، وكذلك كان رؤساء عماله الثلاثة ، وحارسه ، وزوجته يعانون من الحمى .

وفى أثينا استرد عافيته ، وقد تحسنت صحته حتى إنه قام بزيارة قصيرة إلى الترود وبصحبته مصور فوتوغرافى ، وكان برنوف قد طلب الاطلاع على رسم لقصر بريام ، وإذ لاحظ بعض نواح غير دقيقة ، ألمع إلى أنه فى الاستطاعة إعداد رسم أفضل بمساعدة الصور الفوتوغرافية .

وحين وصل شليمان إلى هيسارليك ، وجد أن القائم على الحراسة ، يبيع للقرويين وهو مطمئن ، أحجارا ضخمة من الأسوار ، فأرسلت بعض الأحجار لبناء منازل فى مدينة كبلاك التركية ، والبعض الآخر لبناء برج جرس الكنيسة ، بقرية ينى شهر المسيحية ، فاستبد الغضب بشليمان حتى كاد أن يخرجه عن وعيه ، فطرد

www.ibtesama.com/vb

الحارس وعين آخر فى مكانه ، وأصر على أن يتسلح الحارس الجديد بغدارة ، وعاد إلى أثينا منتصراً ومعه الصور الفوتوغرافية والرسوم الجديدة .

وكالعادة راح شليمان يفكر فى القيام فورا بمائة شىء ، فحين أحس الوهن فيما يتعلق بأعمال التنقيب فى طروادة ، وردت على خاطره الأماكن الأخرى التى لم تمسها مجرفة الحفار المنقب ، وقد كتب إلى الحكومة اليونانية مذكرة عرض فيها أن يقوم بالتنقيب فى ما يكناى وأولمبيا ، على نفقته الخاصة ، مشترطا الاحتفاظ بالأشياء التى يعثر عليها ، لحين وفاته ، وبعد ذلك تصبح ملكا للشعب اليونانى ، كما عرض أن يترك مائتى ألف فرنك لبناء متحف يحمل اسمه ، فرفض العرض ، ومن ثم راح شليمان يتحدث فى قلق عن مغادرته لأثينا إلى الأبد وإقامته فى باريس .

ولكن طروادة أمسكت به ، فحين اتصل به أن فرمانه من الحكومة التركية قد ألغى على أساس أنه قد صدر للخارج كل الأشياء التى عثر عليها تقريبا ؛ ازداد تعلقا بطروادة ؛ واستفز جميع معارفه ؛ ممن يشغلون مراكز كبيرة ؛ للتوسط لدى الحكومة التركية ؛ وما كاد يتسلم تصريحا غير رسمى باستئناف أعمال التنقيب ، حتى كر راجعا إلى هيسارليك ، وأنبأ الأصدقاء أنه ينوى الشروع فى الحفر يوم أول مارس ، ولكنه كان يقوم بالعمل فعلا فى الحادى والثلاثين من يناير ، وكانت ريح الشمال القارصة البرودة ، فأصابه زكام ، ودهمته الأنواء الرعدية وأعياد الكنيسة معا ، وفى مارس ظهر عدو غير مرتقب فى هيئة تاجر من سميرنا ، استخدم مائة وخمسين قرويا لاستخدام جذور العرقسوس ، وكان يدفع لكل منهم من اثنى عشر إلى ثلاثة وعشرين قرشا فى اليوم ، وهو مبلغ يزيد كثيرا على الأجر الذى كان يدفعه شليمان لعماله ، فراح شليمان يحرق الأرم ولكن لم يكن ثمة ما يستطيع عمله فكتب فى مدونته ما يلى :

الخامس عشر من مارس عام ١٨٧٣ : الليالى باردة ، وكثيرا ما يهبط مقياس الحرارة فى الصباح إلى درجة التجمد ، ولكن حرارة الشمس تأخذ فى الارتفاع

www.ibtesama.com/vb

خلال النهار ، حتى لتصل إلى درجة ٧٢ فهرنهيت ، هذا وقد أخذت أوراق الأشجار تبرز فوق الأغصان ، وتغطى سهـــل طروادة بأزهار الربيع ، وطوال الأسبوعين المنصرمين ، ونحن نسمع نقيق ملايين الضفادع بالمستنقعات المجاورة ، وعادت طيور اللقلق خلال الأيام الثمانية الأخيرة ، ويزيد الحياة وحشة بهذه البرية ، تلك الأسراب الهائلة من البوم ، التى تبنى أعشاشها فى جحور الأسوار التى رفعت الركام عنها ، فثمة شىء غامض فظيع فى عويلها لايمكن احتماله وخاصة فى جنح الليـــل » .

. . .

وقد شيد فوق التل منزلا صغيرا من الحجر وآخر من الخشب ، وكان للمنزل الحجرى الذى بناه فى خريف عام ١٨٧١ جدران سمكها قد مان ، تستطيع حمايته من الرياح القارصة . ولـكنه عزم على أن يعطى هذا المنزل لرؤساء العملة الذين كانت تعوزهم البطاطين ، أما شليمان نفسه فقد أقام بالمنزل الخشبى ، فـكانت الريح تخترق شقوق الجدران ، وفى إحدى الليالى من أواخر شهر مارس ، استيقظ فى الساعة الثالثة ليجد الحجرة مايئة بالدخان الـكثيف ، وأحد الجدران تندلع منه اللهب ، ففى ركن من حجرة النوم كان هناك مصطلى من الحجر ، مستقرا فوق ألواح خشبية . وكان واضحا أن شرارة تطايرت وأشعلت الخشب ، وكانت ريح الشمال تهب بعنف ، وإذ صاح بصوفيا كى تعود خارج المبنى المحترق ، راح يقذف بالماء من مقسل على الحائط المحترق ، وبعـد ذلك ساعد رؤساء العملة ، الذين كانوا قد استيقظوا . فى إطفاء النيران بالتراب .

وفى ربع ساعة انتهى كل شىء ، ولـكنه ظل أياما بعد ذلك ، يقشعر بدنه لدى تذكره كيف كان على وشك أن يفقد كتبه وأوراقه وتحفه ، وكيف لو أن غفوته طالت بضع دقائق أخرى ، لـكان من المحتمل هلاك صوفيا ، ومرة أخرى أثبت فى مدونته شـكواه من التعب ، وكفاحه اليائس ضد ريح الشمال الدائمة ، والمصاريف الضخمة التى يتـكلفها فى استخدام جيش من العمال — كان لا يزال

www.ibtesama.com/vb

يستخدم مائة وستين عاملا — وأعياد الكنيسة التى قهرته وأعنتته وأشقته ، لتيقنه أنه على وشك التوصل إلى اكتشافات هامة ؛ ولكنه وجد بعض قطع لطيفة من الخزف الأسود ، ورأس رمح من النحاس ، ومزيدا من نماذج أجهزة التأنيث ، وجميعها محطمة ولا تساوى شيئاً .

وفى أبريل هبت الريح رخاء ، فأصبح السهل بأكمله مغطى بشقائق النعمان الصفراء ، وراح العمال ينامون فى العراء ملتحفين سماء خلت من الغيوم ، وكان شليمان أكثر هدوءا من قبل ، ويبدو أن ثمة نذيرا غريبا أوحى إليه أنه وشيك العثور على كشف عظيم ، وفى السادس عشر من أبريل وجد شارعا مرصوفا ، وتسع جرار خزفية ضخمة ، تصل فى ارتفاعها إلى قامة رجل ، ولم يسبق قط العثور على مثل هذه الجرار ، ولكنهم سيعثرون على مثيلاتها فيما بعد بكنوسس (Cnossus) وفى مايو كان يقتفى أثر الطريدة على الدرب السوى ، فكشف عن بوابتين تبعد أحدهما عن الأخرى عشرين قدما ، فسماهما على الفور بوابة سكاى ، وأطلق على المبنى الكبير الرابض خلف البوابتين اسم قصر بريام ، وعثر على الكثير من أوانى الزينة ورءوس البوم ، وسط أكوام هائلة من الركام .

وكان مغتبطا ، إذ وجد ما كان يؤمل أن يعثر عليه ، وأوشكت أعوام العمل الطويلة على الانقضاء ، وصرح بأنه آخذ فى الاستعداد لنشر اكتشافاته — سيحوى مائتى شريحة وثلاثة آلاف وخمسمائة نقش — صحيح أن هيسارليك تل صغير ، وأن الناس سيقولون إن هوميروس لم يكن يصور مدينة صغيرة حين تحدث عن طروادة ، ولكن البوابة الواسعة ، وأسوار القصر ، والدريئات المملاقة وقطع الخزف التى لا تحصى ، والجرار الضخمة ، وآلاف الأشياء الفنية ، أثبتت أن شليمان قد اكتشف قلعة طروادة ، ولكن غبطته كانت قصيرة المدى ؛ فقد سمعت صوفيا أن والدها يحتضر ، فهرولت مسرعة إلى أثينا ، ولكنها وصلت بعد أن لفظ آخر أنفاسه ، ومن منزله فوق مرتفع هيسارليك بعث شليمان إلى زوجته بأرق خطاب كتبه فى حياته : —

www.ibtesama.com/vb

« أضفى العزاء على نفسك يا أعز الناس إلى ، بتفكرك أننا بعد برهة وجيزة سنلحق بوالدك العجيب ، أضفى العزاء على نفسك بتفكيرك فى ابنتنا العزيزة ، التى لا تستغنى عن أمها ، وبدونها لا تنعم بأية بهجة فى الحياة ، وأضفى العزاء على نفسك بتذكرك أن دموعك لن تعيد والدك قط إلى الحياة ، وأن ذلك الرجل الطيب الباسل — بعيدا عن أحزان هذه الحياة وهمومها — ينعم الآن ، فيما وراء القبر ، بأنقى ضروب السعادة ، ولذلك فهو أكثر غبطة منا نحن الذين تخلفنا من بعده لنبكيه وننتحب عليه ، وإذا لم تستطيعى كبح جماح حزنك ، فبادرى بالعودة إلى فى أول قارب بخارى ، وسأعمل كل مافى استطاعتى لتخفيف أساك ، فبدونك لن يتيسر القيام بأى تنقيب ، ولذلك أضرع بدموع البهجة أن تعودى إلى سريعا » .

فحفت صوفيا عائدة إليه بعد أيام قليلة ، فهى تعلم موضع افتقادها ، وهو بدونها مبتئس وحيد ، فهى شعار كل نجاح له فى الحياة ، وحين كتب أنه بدونها لن يتيسر القيام بأى تنقيب ، قصد أنه لا يستطيع التنقيب وهو منشرح الصدر أو مؤمل فى النجاح ، مالم تكن إلى جانبه .

وأقبل الصيف يتهادى ، فأخذت شقائق النعمان تموت على أعوادها ، وسرعان ما سيلف السهل بأكمله رداء الذبول القاتم الذى يحل مع الصيف ، وكان شليمان يطوى خيمته ، فكتب إلى ابنه سيرجى أنه سينهى أعمال التنقيب فى أواسط شهر يونية ، ثم يأخذ زوجته وابنته إلى مكان مأنى بأوربا الوسطى لحاجته الملحة إلى الاستجمام ، وكان راضيا عن محصول عمله فى الأشهر الأربعة ، فقد اكتشف أسوار طروادة وموقع القصر ، وحفر مائتين وخمسين ألف متر من الأرض ، وحصل من التحف والآثار على ما يكفى لتأثيث متحف بأكمله .

وكتب إلى سيرجى فى الثلاثين من مايو ، وفى اليوم ذاته كتب إلى فردريك كلفرت ، الذى كان يملك ضيعة فى تمبريا بالقرب من بونار باشى ، على مسيرة ساعات قليلة فقط منها ، خطابا من لون مختلف تماما ، محرراً فى خوف

www.ibtesama.com/vb

ورعدة ، وقد هربه ليلا من الحراس ، ولم يكتب شليمان فى حياته قط خطابا مسرحيا أو وثيق الصلة بأعز أمانيه وأحلامه كهذا الخطاب :

« يؤسفنى إخطارك أن رقابة شديدة مفروضة على ، وأنى لأتوقع أن يقوم الحارس التركى ، الساخط على لغير سبب أعلمه ، بتفتيش منزلى غدا ، لذلك أسمح لنفسى أن أودع عندك ستة أسفاط وحقيبة ، راجيا أن تتفضل بحفظها فى مكان موصد ، وألا تسمح للأتراك ؛ بأية حال ، أن يمسوها » .

* * *

وفى الأسفاط الستة والحقيبة كان كنز طروادة الذهبى .

وفيما نشره شليمان من كتابات ، لم يذع قط التاريخ المضبوط الذى تم فيه اكتشاف الكنز ، نحن نعرف الساعة والمكان — حوالى الساعة السابعة صباحا كان المكان شقا عميقا تحت السور الدائرى الملاصق لقصر بريام — ولعله اكتشف الكنز فى الثلاثين من مايو ، وهو اليوم الذى بعث فيه برسالته العجلى إلى فردريك كلفرت ، أوقبل ذلك بأيام قليلة[1] ، وفى الحادى والثلاثين من مايو دون فى يومياته أول رواية له عن الكنز ، وألحق ذلك بقوله إنه لم يجد بعد فرصة لفحص ما عثر عليه من تحف أو مجرد حصرها — لم تكن آنئذ فى حوزته ، بل محفوظة فى أمان طرف فردريك كلفرت .

ويمكن ربط تفاصيل هذا الكشف ، باستقائها من ثلاث روايات متفرقة كتبت فى أوقات مختلفة ، كان هذا فى أحد أيام مايو القائظة ، والسهل بأكمله

---

(١) فى كتاب « طروادة » الذى نشره شليمان بعد ذلك بعشرة أعوام ، جاء ما يلى : « كشف عن الكنز فى آخر مايو عام ١٨٧٣ » هذه هى العبارة الحاسمة الوحيدة التى سبقها إطلاقاً عن تاريخ الكشف ؛ وإميل لودفيج ، فى كتابه « شليمان رجل طروادة : قصة باحث عن الذهب » يقول إن الكشف قد تم فى « صباح يوم بمنتصف شهر يونية ، قبل انتهاء العمل بيوم واحد » ولكن هذا خطأ واضح .

www.ibtesama.com/vb

يعج بغبار أصفر لامع ، وقبل ذلك بثمانية أيام كان قد اكتشف إناء كبيرا من الفضة ، وبداخله كوب فضى صغير ، وعلى كثب وجد خوذة نحاسية ، وكانت الخوذة نفسها محطمة ، ولكن القرون المميزة (أجهزة التذكير) كانت سليمة ، وواصل العمل أياما ، مؤملا العثور على كنوز أخرى .

وكان متيقنا من وجود كنوز أخرى قريبة ، ومن ثم قسم عماله إلى جماعات كثيرة ، وأرسلهم يحفرون فى أماكن مختلفة فوق التل ، وعن طريق بعثرته لهم واستبعادهم فى الخنادق والأبهاء الطويلة المتقاطعة داخل التل ، أيقن أنه إذا اكتشف أية مجموعة كبيرة من الأشياء الثمينة . سيستطيع تهريبها خفية إلى منزله على الشاطىء الصخرى ، وكان متلهفا ، بصفة خاصة ، ألا يكون المندوب التركى ، أمين أفندى ، حاضرا حين اكتشاف الكنز .

وكان شليمان وزوجه وحفنة من العمال يحفرون حذاء السور الدائرى الملاصق لبوابة سكاى ، وفجأة شاهد شليمان على عمق ثمانية وعشرين قدما « وعاء أو جهازا من النحاس ذا تصميم عجيب » وبفحصه فى الأتربة والركام استطاع أن يقدر أن طول الوعاء ثلاث أقدام ، وارتفاعه ثمانى عشرة بوصة ، وتراءى له كأن من فوقه شبه خوذتين وشمعدان كبير ، وكان الوعاء مكسورا . فاستطاع أن يلمح داخله بعض آنية فضية ، وفوق هذا كله كان بعض الردم المتكلس ، أسمر ومحمر ، سمكه من أربع إلى خمس أقدام ، وصلب كالحجر ، ثم فوق هذا أيضاً ، أسوار الحصون الضخمة ، عرضها خمس أقدام وارتفاعها عشرون قدما .

لقد عثر على الكنز ، والآن برزت مشكلة حفظه من خداع الأتراك ، ولم يكن أحد من العمال قد فطن إليه ، وكانت صوفيا إلى جانبه . فالتفت إليها وقال : « عليك أن تذهبي فورا وتصيحى ، بيدوس ! » .

www.ibtesama.com/vb

وبيدوس « Paidos » كلمة يونانية معناها « فترة راحة » ولم تكن صوفيا قد رأت الكنز بعد ، فأدهشتها فكرة منح فترة راحة فى هذا الوقت المبكر .

وسألته قائلة : « الآن ، فى الساعة السابعة ؟ »

« نعم الآن قولى لهم إن هذا يوم ميلادى ، وأننى لم أتذكره سوى الآن فقط ! قولى لهم إنهم سيحصلون على أجورهم اليوم دون عمل ، واستوثق من ذهابهم إلى قراهم ، ومن عدم مجىء مراقب العمال هنا ، عجلى وصيحى بيدوس » .

ففعلت صوفيا كما قيل لها ، وكانت مهمتها أن تنادى منبهة إلى فترات الراحة ، ومن ثمة ارتفعت السلالم المتآكلة المؤدية إلى السطح ، وسرعان ما انفض العمال مبتهجين بسانحة حصولهم على عطلة غير مرتقبة ، وقلقين بعض الشىء لأنهم لم يحصلوا على مثل هذه العطلة من قبل ، واستبدت الحيرة بأمين أفندى ، إذ كان يخطر عادة بأيام العطلة .

وحين عادت صوفيا كان العمال جميعا قد انصرفوا ، وكان شليمان يحاول استخراج الكنز بمدية صغيرة ، وكان سور الحصن المكون من أتربة وركام وأحجار ثقيلة ، يهدد بالسقوط ، ولكن مخاوفه تبددت لدى رؤيته مثل هذا الكنز الوفير ، فالتفت ثانية إلى صوفيا وقال : أسرعى ، أحضرى لى محرمتك الكبيرة ! »

ومرة أخرى كان على صوفيا أن ترتقى السلالم إلى السطح الأعلى ، ومنه إلى المنزل ، وقد رجعت ومعها محرمة قرمزية هائلة ، مطرزة بوشى ثقيل ، مثل التى ترتديها اليونانيات فى الأعياد ، فسكبوا الكنز فى المحرمة ، وحملوها فيما بينهم عائدين إلى المنزل .

وما كادا يغلقان الباب حتى أفرغا الكنز فوق المنضدة الخشبية الخشنة ، وكثير من القطع كانت معبأة بعضها فى بعض ، مثل هذه الكنوز تتألق فى جدة ، خلف

www.ibtesama.com/vb

الواجهات الزجاجية بالمتاحف ، فى اصفرار شاحب وخمود عجيب ، ولكن حين العثور عليها كانت ذات لون محمر متوهج عجيب ، وكان الكنز مكونا من درع نحاسى ، ومرجل نحاسى ، وإناء فضى وآخر نحاسى ، وقارورة ذهبية ، وقدحين من الذهب ، وقدح صغير من الكهرمان ، كما كان بالكنز أيضا طاس من الفضة ، وثلاثة آنية فضية كبيرة للزينة، وسبعةخناجر نحاسية ذات حدين، وست مدى فضية، وثلاثة عشر رأس رمح نحاسى، وكان بقاع أكبر إناء فضى، تاجان من الذهب، وعصابة رأس ، وأربع قطارات أذن ذهبية ، وستة وخمسون قرطا ذهبيا، وثمانية آلاف وسبعمائة وخمسون خاتما وزرا ذهبيا ، معظمها صغيرة الحجم جدا .

وأعظم ما أثار الدهشة هما التاجان ، فأحدهما مكون من تسعين سلسلة تؤلف لباس رأس ذهبي مزخرف ، به قلائد على هيئة الأزهار وأوراق الأشجار ، وشراريب طويلة مدلاة إلى الجانبين وكانت التيجان الفارسية والرومانية مجرد عصابات ، مرصعة بالجواهر ، تلبس حول الرأس ، أما التيجان الطروادية فكانت مكونة من حلقات ذهبية لاتحصى ، تغطى الجبهة بأكملها ، وما من أحد رأى مثيلها من قبل ، ولم يكتشف نظيرها من بعد .

وفى غمرة من الانفعال الشديد ، رفعهما شليمان نحو الضوء ، ووضعهما على جبهة صوفيا ، ويبدو أنه ظل حتى آخر نسمة من حياته : معتقدا أنهما تاجا ملكة ولكنهما فى الأرجح كانا لملك من الملوك ، وراح يلف أكوام العقود حول عنقها ويضع خواتم الذهب فى أصابعها ، حتى أصبحت تتلألأ فى بهاء بربرى ، وأخيرا ، بعد أعوام عديدة ، كان ابن مغمور لكاهن من مكلنبرج ، يقف فى مكان الملوك أمام امرأة مهيأة كإحدى الملكات .

كان واثقا أنه عثر على كنز الملك بريام ، الذى خبىء سرا فى السور حين كانت طروادة تشتعل فيها النيران ، وظن أن الكنز ، فى آخر لحظة ، عبىء فى صندوق خشبى ، وأنه لم يكن هناك وقت حتى لنزع المفتاح ، وقد ظهر فيما بعد أن المفتاح

www.ibtesama.com/vb

المزعوم إنما هو أزميل من النحاس ، ولم يكن هناك أى دليل قط على أن الكنز وضع فى صندوق ما .

وكان كثير من الغموض ، ولا يزال ، محيطا بهذه الأشياء التى عثر عليها ، فالأوانى الذهبية كانت بديعة الصنعة إلى حد الكمال ، أما التاجان ، اللذان كانا يخلبان اللب عند أول نظرة ، فقد ثبت أن صنعتهما كانت بدائية ، إذ صيغا من السلك وصفائح رقيقة من الذهب ؛ وكانت الحلقات كلها خالية من النقش ، وكان إناء الملوحة الذهبى البديع الشكل آية فى حسن الصياغة ، ولكن ماذا وجد بين المدى ورءوس السهام والأصنام الصغيرة الغريبة المصنوعة من الطين المضيج ؟ ولم يكن الذهب والفضة فقط مودعين فى السور ، فقد كان هناك بعض منحوتات بدائية من العاج ، ومطارق ذات أيد مجوفة مصنوعة من أحجار نصف ثمينة ، ولكن كان هناك أيضا تمثال صغير من الرصاص لامرأة ، وقد حفر صليب معقوف على مثلث عانتها ، فعبادة الأصنام والهمجية كانتا تسيران فى توافق تام مع الرقة الفنية ، فهل هذه طروادة عصر هوميروس ، أو تعود إلى عصر أكثر قدما وأشد توغلا فى الهمجية ؟ .

كان شليمان متيقنا تماما أنه قد استخرج من باطن الأرض الكنز الذى يمسكه بريام ، وفى الأسابيع التى تلت كان يحلو له أن يتحدث ، فى سخرية ، عن الطريقة التى وجد بها « كنز الملك بريام ؛ وذلك الملك الأسطورى ، على مدينة أسطورية والذى عاش فى عصر بطولات أسطورية » تلك كانت طريقته فى القول بأن اكتشاف الكنز أثبت أن بريام كان حقيقيا ، وأن المدينة كانت حقيقية ، وأن عصر البطولات الرائع لم يكن أسطوريا ، وهاهو ذا الذهب شاهد على أن طروادة حقيقيـــة .

كان رجلا يعذبه الذهب ، ويتفاقم عذابه حين يجد الذهب فى حوزته ، ويخشى افتضاح أمره ، ولم يكن قد نجح تماما فى إخفاء اكتشافه ، فالشائعات تطايرت عبر سهل طروادة ، وزاره أمين أفندى فى منزله ، وظل غاضبا ، إنه تيقن أن شيئا

www.ibtesama.com/vb

ما أخفى عنه ، وطلب الرقيب التصريح له بتفتيش المنزل ، وأمر شليمان ، باسم السلطان ، أن يفتح جميع صناديقه ، وحتى حقائب الملابس ، فكان رد شليمان الوحيد أن ألقى به خارج المنزل .

وفى ذلك المساء ، أو المساء الذى يليه ، أخذ الكنز إلى منزل فردريك كالفرت فى ثمبريا ، وبعد ذلك بأيام قلائل هرب خارج البلاد .

وظل شليمان بضعة أيام أخرى ، يتفحص أسفل السور ويسبر أغواره ، ولكنه لم يكتشف أية أشياء ثمينة أخرى ، وفى السابع عشر من يونية أنهى شليمان أعمال التنقيب على حين غرة ، ودفع للعمال أجورهم ، واستحضر كاهنا ليبارك التل المهجور ، الذى أصبح ملغما بالدهاليز والخنادق كأنه ساحة الوغى ، وإذ أعلن أنه سيعود إلى أثينا ، وأنه لن يمس بقدمه أرض طروادة ثانية ، رحل فى هدوء ، حاملا معه قليلا من الأشياء التى جمعها ، إذ كان قد أرسل الباقى من قبل ، وفى التاسع عشر من يونية كان فى أثينا ، وفى ذلك اليوم شرع فى تحرير أول رسالة له من سلسلة رسائله التى أشاد فيها باكتشافه .

كان يشتعل حماسة وانفعالا ، فقد أنجز « أعظم كشف فى عصرنا ، الكشف الذى كان جميع الناس يتطلعون إليه متلهفين » ، ولأول مرة توافر لهذا الرجل الغريب ، الذى لايفتر عن التفاخر ، سبب يبرر تفاخره ، فقد اكتشف طروادة متحديا دواعى الأمل ، ونواهى العقل ، وكل شاهد ودليل ، كان يكفى أن يلوح بالتيجان الذهبية المتألقة ، وإذن فمن يجسر على عدم تصديقه ! .

ولكن الكنز الذهبى ظل ضربا من التبعة ، وعادة الكتمان التى راعاها بعناية فى هيسارليك ، لم يكن من السهل أن يتخلى عنها ، وحين كان يكتب إلى كل المجتمعات المثقفة بأوربا بأنه اكتشف الكنز — كانت رسائله أحيانا تصاغ كأنها الإعلانات — كان منهمكا فى عمل الترتيبات لدفن الكنز تحت الأرض ، وقد أشرك أقارب صوفيا فى المؤامرة ، وفى كل أنحاء اليونان كانوا يخفون أشياء ثمينة ،

مغلفة بالقش ، فى الحظائر والمخازن وساحات المزارع ، وأرسل سفطا مضفورا إلى عم يقيم فى اليوسيس (Eleusis) ، واختفى الكنز نفسه ، بعد فترة قصيرة من قيام شليمان بوزن كل قطعة منه ووصفها بدقة ، ولن تستطيع الحكومة اليونانية أو الحكومة التركية أن تستولى عليه .

وبقى شليمان فى أثينا بينما رحلت صوفيا إلى اسخيا (Ischia) ، فى عطلة طويلة تستحقها ، وبعد ذلك ببضعة أسابيع ، أرسل خادما أمينا ليطلعها شفاها على المكان الذى طمرت فيه كل تحفه .

واستبدت الحيرة بشليمان ، فهو يبغى صهباء الشهرة ، والشهرة زائلة ، وهو يحلم بالثروة ، والثروة أكثر الأشياء دواما ، وهى سلاح يستطيع استخدامه ضد الحكومات ، خاصة الحكومة اليونانية ، فعليه فقط أن يعلن أنه سيوصى بثروته لأية من ثلاث حكومات أو أربع ، حتى تستقبله بأذرع مفتوحة ، وتمنحه كل التسهيلات التى يحتاجها فى أعمال التنقيب ، وحالما عاد من هيسارليك دب الخلاف بينه وبين الحكومة اليونانية ، فقد أعلن أن الكنز فى حوزته ، وأنه سيعطيه لليونان ، ولكن عليها أن تمنحه تصريحا كاملا بالتنقيب فى مايكناى وأوليمبيا ، وكانت الحكومة اليونانية قد رفضت عرضه من قبل ، فرفضته ثانية ، وهذا كما يبدو كان بسبب خشيتها من الوقوع فى مشاكل مع تركيا .

ووقعت المشاكل فى أغسطس ، حين توافر الوقت للأتراك للقيام ببعض تحريات مبدئية ، والاطلاع على الرسائل التى بعث بها شليمان إلى أصدقائه ، وعرف شليمان أن ثمة عقوبة ستوقع على أمين أفندى بسبب إخفاقه فى تشديد الحراسة على أعمال التنقيب ، وكانت عقوبات الموظفين فى الإمبراطورية العثمانية أحيانا بالموت ، ومرة أخرى استبدت الحيرة بشليمان ، فهو لن يرد الكنز ، وهو لن يعود إلى تركيا ليتشفع فى الموظف ، ولكنه ، فى القليل ، يستطيع أن يحرر خطابا « باسم الإنسانية والعدالة المقدسة » موضحا أن أمين أفندى برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

www.ibtesama.com/vb

« إذا كان قد عجز عن مراقبة كل شيء حدث ، فعلة ذلك أنه كان هناك دائما خمسة أعمال فى التنقيب تجرى فى وقت واحد ، وبحق السماء لم يولد حتى الآن من يستطيع مضاعفة نفسه خمس مرات ، ويقوم بمراقبة خمسة أعمال فى وقت واحد .

لقد عثرت على الكنز حين كان أمين أفندى يقوم بالعمل فى قسم آخر من التل ، منفصل تماما ، ولو كنتم شاهدتم علامات القنوط التى ارتسمت على وجه الرجل المسكين حين اتصل به نبأ الكنز من عمال آخرين ، ولو كنتم شاهدتم حنقه وهياجه ، حين اقتحم علىّ حجرتى ، وأمرنى أن أفتح كل صناديق وحقائب ملابسى ، باسم السلطان ، لرثيتم لحاله وأشفقتم عليه .

وما من أحد شدد الرقابة على أعمالى فى التنقيب أكثر من أمين أفندى ، ولكن لابد لمن يقوم بالإشراف على أعمال التنقيب أن يكون هو من علماء الآثار ، وغلطة أمين أفندى الوحيدة أنه لم يكن من هؤلاء العلماء . . . »

* * *

وليس هذا بالخطاب المقنع ، ففيه من التردد والغموض ما قد يلجأ إليه رجل يدافع عن نفسه حين يفطن إلى أنه مخطىء ، واحتج شليمان ، بطريقته ذات الطرف الواحد ، بأنه حينما ألغت الحكومة فرمانه ، استرد حريته ليفعل ما يشاء ، وكتب يقول : « لقد كسرت الحكومة التركية تعاقدنا المسطور بكل معنى الكلمة ومن ثمة تحررت من كل قيد » .

ولكن الحكومة التركية كانت قد صرحت له باستئناف أعماله فى التنقيب ، وما من شك أنها توقعت أن تحصل منه على نصيب عادل من الأشياء التى يستخرجها من باطن الأرض ، وكان شليمان بفطرته يعتبر أى اتفاق مع الحكومات كما لو كان اتفاقا تجاريا ، وطلب الأتراك منه بصفة خاصة أن يرسل جزءا من الكنز كتقدمة ودية منه للمتحف الإمبراطورى بالقسطنطينية ، فرد شليمان بأنه لن يرسل شيئا والتمس فى نفس الخطاب التصريح له بالعودة إلى طروادة والحفر

www.ibtesama.com/vb

لمدة ثلاثة شهور أخرى ، مع وعده بأن يقدم للمتحف كل شيء يكتشفه خلال تلك الشهور الثلاثة .

ومرة أخرى ، كما حدث مرارا فى الماضى ، وجد شليمان نفسه فوق ريح صرصر ، وكانت أسلحته الحيلة والدهاء والجلد وزلاقة اللسان ، فهو يستطيع أن يستخدم كل حيل السوق للمحافظة على مكاسبه ، وسيفعل ذلك ، ولاستيائه من موقف الحكومة اليونانية ، راح يفكر فى الهجرة إلى إيطاليا ، فبالرمو ونابولى من أفضل الأماكن لعالم العاديات ، وسرعان ما قام بالاتصالات للتقرب إلى رجال المتحف الإيطالى المسئولين ، فهو سيشيد متحفا لحفظ كنوزه ، إذا أطلقت يده للحفر كما يشاء .

وفى غضون ذلك كان صيته يزداد ذيوعا ، وقد سمع جلادستون ، رئيس الوزراء البريطانى ، عن اكتشافاته فبهرته ، وديج ماكس موللر ، المستشرق الشهير ، مقالا عنها ، وفى ألمانيا استحر الصراع بين أنصار شليمان وخصومه ، وخلال الخريف وأوائل الشتاء أتم شليمان كتابه « طروادة القديمة » .

(Troianische Altertümer) الذى اشتمل معظمه على يومياته عن طروادة ، وقد زينت بالصور الفتوغرافية ، وفى نفس الوقت وضع له ترجمة فرنسية وأرسل النسختين إلى ناشريه .

ومع انتهاء الكتاب عاد إليه القلق ، فحق التنقيب فى أولمبيا كان قد منح رسميا للحكومة البروسية ، فاستشاط غيظا ولكن لم يكن ثمة ما يمكن عمله بهذا الخصوص ، وقد عزم على أن يقوم بمعاينة أولية لما يكناى ، فهناك ، إن كان ثمة مكان ما ، سيستطيع على حد رأيه أن يكرر ما أحرزه فى طروادة من ضروب النجاح .

وباحتقاره للحكومات والتراخيص ، أقلع فى رحلته العلمية ، مع صوفيا سرا دون أن يطلع أحداً ، فاستخدم عمالا هناك لساعته ، وفى خمسة أيام حفر

www.ibtesama.com/vb

خمسة وثلاثين خندقا صغيرا فى الاكروبول ، فلم يكتشف سوى قطع قليلة عديمة الأهمية من الخزف المحطم ، ومنذ زمن طويل كان قد ساق فى كتابه « ايثاكا والبلوبونيز وطروادة » اعتقاده بوجود مقابر ، تعود فى تاريخها إلى عصر الأبطال ، داخل سور القلعة فى مايكناى ، وكانت أهم نتيجة لهذه الزيارة القصيرة تدعيم اعتقاده ، وقد ارتاب فى وجود غرفة مقببة للموتى ، قرب بوابة الأسد الشهيرة ، وأخرى على كثب منها ، ولم يستطع أن يوضح سبب تيقنه من وجود المقابر هناك ، ويبدو أنه أحسها ، كما أحس وجود الذهب فى طروادة ، وتحدث عن حفر خندق منفرد خلف بوابة الأسد رأسا ، وهذا الخندق ، على حد ظنه ، سيزيح الستار عن ضريح ملوك مايكناى — ثايستيس (ThyesTes) ، واجا ممنون ، والآخرين جميعا — وقد حصل من قبل على رفات أوديسيوس وكنز بريام ، فاكتشاف مقابر مايكناى الملكية سيتوج حياته العملية .

ومن سوء الطالع أنه لم يكن له فى مايكناى ما يستدعى وجوده على الإطلاق ، وحالما سمعت الحكومة اليونانية أنه يقوم بالحفر هناك ، أبرقت إلى حاكم ارجوليس تأمره بمنعه من أن يمس الأرض بمجرفة ، وأعقبت هذه البرقية باثنتين أخريين ، إحداهما تنص على مصادرة كل شىء استخرجه من الأرض ، والأخرى تحتم على تفتيش حقائبه .

وقد أنيط بهذه المهام رئيس الشرطة فى (نوبليا Nauplia) ، فزار المنزل الذى تقيم فيه أسرة شليمان ، وناقش الموضوع فى هدوء أثناء تناول القهوة ، فأراه شليمان ملء سلة من الخزف المحطم ، وكان رأى رئيس الشرطة أن مثل هذه البقايا الخزفية يمكن العثور عليها فى أى زقاق بإحدى القرى ، وفى كل المدن القديمة ، وكتب إلى رؤسائه يقول : « لم أجد شيئا ذا أهمية ، ولذلك صرفت الأمر بسلام » .

وحين عاد شليمان إلى أثينا ، وجد الحكومة متحفزة ضده ، إذ كان قد أضحى موضعا للريبة والتظنن منذ اكتشافاته فى طروادة ، أما رئيس الشرطة ، وحاكم

www.ibtesama.com/vb

ارجوليس ، وعمدة مايكناى أنفسهم غير أكفاء ، وكتب وزير التربية والتعليم يقول : « لقد أثبتوا بتصرفاتهم أن أرض اليونان مهيضة الجانب مكسورة الجناح، وأن فى استطاعة أى شخص من عرض الطريق أن يفعل بها ما يشاء ، دون أدنى اعتبار للقوانين » .

وراح شليمان ، الذى لم يكن قد كشف عن أىشىء ذى قيمة حقيقية ، يزجى وقته رخاء ، إذ كانت مايكناى قد خلبت لبه ، وحالما تسنح فرصة مواتية سيرسل مذكرة إلى الحكومة اليونانية ، يعرض فيها أن يقوم بالحفر فى مايكناى على نفقته الخاصة ، ويعطى الحكومة كل شىء يعثر عليه ، محتفظاً لنفسه فقط بحق الكتابة عن الأشياء التى يعثر عليها ووصفها ، وسنحت الفرصة المواتية بعد ذلك بشهرين ، فقد حدث أن نفس الوزير ، الذى صوره كاص وعدو لليونان . وقع الاتفاق فى توقير .

وقرر أن يبدأ الحفر بمايكناى فى الحادى والعشرين من أبريل ، وكان يقوم بعمل الترتيبات للرحلة ، حين اتخذ الأتراك الإجراءات ضده مطالبين بنصف الكنز ، وقد استغرقت القضية ، التى عرضت على المحاكم الابتدائية والعليا ، عاما كاملا ، نفد خلاله صبره ، فاضطر للبقاء فى أثينا ، وبأمر المحكمة ، حضر شرطى إلى منزله ، وبحث عن الكنز ، فلم يعثر له على أثر ، وقد رفض أن يذكر أين خبأ الكنز ، ورفض أن يجيب عن أسئلة المحقق ، ورفض الاتفاق على أية تسوية ، فقد كان مصراً على أن يقاتل الأتراك حتى آخر الشوط المرير ، وفى الوقت ذاته راح يمطر القسطنطينية بسيل من رسائله ، مطالباً بالحق فى استئناف أعمال التنقيب بهيسارليك : كأنما لم يقم أى نزاع بينهما .

وفى ذلك العام الغريب ، من ابريل عام ١٨٧٤ إلى ابريل عام ١٨٧٥ ، ولعله أغرب الأعوام التى مرت عليه فى حياته تشاجر مع كل إنسان ، تشاجر مع رجال الشرطة الذين تقصوا أثره ، وتشاجر مع المحامين عنه ، وتشاجر مع الحكومة

www.ibtesama.com/vb

اليونانية ، وتشاجر مع ناقديه ، وفى ألمانيا ، بصفة خاصة ، أثيرت الشكوك حول قيمة اكتشافاته بهيسارليك ، وقد رد على هذه الانتقادات ببذاءة غير مألوفة ، لم منحت الحكومة البروسية امتياز الحفر فى أوليمبيا ؟ فراح يحرق الأرم ، ألم يعرض أن يقوم بالحفر هناك على نفقته الخاصة — تلك الكلمات التى تكررت كثيراً فى رسائله — ويعطى كل شىء عثر عليه لليونانيين ؟ فتخطى الوزراء وتقدم إلى جورج ملك اليونان بالتماس يقول فيه : « قدمت إلى بلاد اليونان مستهدفا شيئاً واحداً هو خدمة العلم ، وقد استحضرت معى ثروتى التى حصلت عليها بوسائل شريفة » ووضع خطا تحت الكلمات الأخيرة كما لو كانت « الثروة التى تحصل بوسائل شريفة » هى فى ذاتها جواز مرور إلى الحماية الملكية .

وكى يزيل الخلاف بينه وبين الحكومة ، ويوطد علاقاته مع الأثينيين ، ويرفع من شأنه عندهم ، عرض أن يزيل ، على نفقته الخاصة ، البرج البندق ، الذى شيد فوق الأكروبول ، فى العصور الوسطى ، فالبرج شوه المنظر ، وما من أحد كان مستريحاً لوجوده ، ولكن ما من أحد اهتم بإزالته ، كان ارتفاع البرج ثمانين قدما ، وكان سكان البندقية قد شيدوه من ألواح رخامية من الأكروبول ، والآن عشش البوم فيها ، فأية خدمة يستطيع أن يؤديها لليونان أفضل من إزالته لما يقذى العين ؟ وقدر تكاليف هدم البرج بمبلغ أربعمائة وخمسة وستين جنيها ، وابتهج حين قبلت الحكومة اليونانية عرضه ، وظل أياما طويلة ، يقف فوق الأكروبول ، مشرفا على هدم البرج القديم ، وهو مغتبط راض عن نفسه ، كما لو كان يقوم بالتنقيب عن الذهب .

وحين أجلت المحاكم جلساتها بمناسبة فصل الصيف ، تسلل خارجا من أثينا وقام بجولة عجلى شمالى اليونان ، فزار ارخومينوس ، حيث قام ببعض أعمال التنقيب بعد ذلك بست سنوات ، وكان مقتنعاً بأهمية تلك المدينة القديمة ، حتى إنه عرض أن يمول حملة ارتياد علمية ، تقوم بها جمعية الآثار اليونانية ، وحل ثانية بأثينا ، حيث راح يقاتل النقاد والمحامين ، ويطالب اليونانيين بحق التنقيب فى أوليمبيا ،

www.ibtesama.com/vb

وصفوت باشا بحق العودة إلى طروادة ، والملك بحق التحدث باسم العلم والتنقيب حيثما يشاء ، وكان عام ارتجال متجلد ، وأفكار معتمة ، وهجمات مباغتة ضد أعدائه ، وحين انقضى العام كانت قواه قد أنهكت ، ونغصت القضية حياته وزادت من عمره ، ومرة أخرى راح يتحدث عن مغادرة بلاد اليونان إلى الأبد والإقامة فى جنوبى إيطاليا ، وكان شليمان قد لعب أوراقه بمهارة ، وفصل القضاة اليونانيون فى صالح الأتراك ، وأمروه أن يدفع تعويضاً قدره خمسون ألف فرنك ، وإذ قدر كنز بريام بمليون فرنك ، فالنتيجة أنه كسب القضية ، وللتعبير عن صداقته أرسل للمتحف الإمبراطورى بالقسطنطينية خمسة أمثال قيمة التعويض ، وأرسل أيضا سبعة أوان كبيرة للزينة وخمسة أكياس مليئة بالآلات الحجرية .

وإذ أحرز النصر فقد اعتدل مزاجه ، واستمتع بصهباء شهرته المتزايدة ، وكان جلادستون قد بعث إليه برسالة ودية يحييه فيها ، ففى انجلترا كان يقيم أخلص المعجبين ، ولذلك أقلع إلى انجلترا فى صيف عام ١٨٧٥ ، مصطحبا معه صوفيا واندروماخا ، وتخلف فى باريس ليحاضر بالجمعية الجغرافية ، ولكنه أسرف فى مزاعمه فقوبل خطابه بفتور ، وحين انتهى من إلقائه لم يتقدم أحد لتهنئته ، ولم يخف إلى منزله بمحلة سنت ميشيل أسراب الزائرين .

أما فى لندن فقد أشهروه ، وأشاد جلادستون بذكره ، وخلال شهر يوليو بأكمله ، كانوا يحتفلون به ويقيمون له الولائم بأرقى الأوساط ، وأسكن صوفيا واندروماخا فى برايتون ، وراح يشكو أنه لم يكن ليستطيع أن ينتزع نفسه من لندن غير مرة أو مرتين فى الأسبوع لزيارة زوجه ، ومن لندن كتب إلى جوفيو، سكرتير الجمعية الفرنسية ، يقول :

« هنا تزدحم الجمعيات العلمية بالسامعين حين أخطب فيها، وكل فرد يصفق لى وكل شىء أقوله ينشر ، والقصر الملكى استدعانى للحضور ، وجميع الأمراء

www.ibtesama.com/vb

والأميرات يصغون للاحظاتى باهتمام ، وكل شخص يتهافت للحصول على توقيع مستكشف طروادة الهوميرية ، مسجلا بدفتره الخاص توقيعات العظماء ، وفى القريب سأرحل عن هذا المجتمع الساحر ، حيث يغدق على كل إنسان ضروب التكريم ، ويسبغ على موفور الود ، لأعود إلى باريس ، حيث استقبلت نكأن للوطن ! » .

* * *

وفى باريس لم يقض سوى بضع ساعات ، فقد دعته ملكة هولندا إلى لاهاى حيث أقيم حفل لاستقباله وتكريمه ، حضره جميع عظماء المملكة . ومثل بين يدى الملكة فى مقابلة خاصة ، واستغرق ساعات طويلة ، يتحدث عن التحف المصرية بمتحف ليون ، وهو برفقة الملكة ، التى أعجب بها لسببين عظيمين : تعلقها بعلم العاديات ، وإتقانها التخاطب بسبع لغات ، وكتب إلى فليكس رافيسو ، أمين متحف اللوفر :

« لا تفتأ صاحبة الجلالة تدعونى لتناول الفطور والغذاء والعشاء ، وهى تطالع كثيراً ، وقد وهبت ذاكرة فوق المستوى العادى بكثير ، وأعتقد أن فى استطاعتى أن أقنعها بالقيام ببعض أعمال التنقيب فى آسيا الصغرى ، أو الأرخبيل اليونانى ، أو إيطاليا ، ولكن لامراء فى أننى سأقصر مهمتى على إسداء النصح إليها ، دون المساهمة فى أعمال التنقيب » .

* * *

ثم رحل إلى كوبنهاجن لقضاء أسبوع يطوف خلاله بالمتاحف ، مبتهجاً باكتشافه بين أسلحة العصر الحجرى ، بعض نظائر غريبة لتلك التى اكتشفها فى طروادة ، وذهب إلى روستوك ليلقى خطاباً آخر عما قام به من أعمال التنقيب ، وعند عودته رحب به الإيطاليون ، وقد صرح بنيته فى الإقامة بنابولى بقية أيام حياته ، وقضى بضعة أسابيع فى البا لونجا (**Alba Longa**) ، حيث كشف

www.ibtesama.com/vb

حديثاً عن بعض أوانى رفات الموتى ، ولكن البقعة لم تكن لتبشر ، ولم يكن أوفر حظاً فى جزيرة موتييه (Motyë) القريبة من ساحل صقلية الغربى ، حيث كان هناك يوماً ما مستعمرة قرطاجية ، وعلى الرغم من أنه فحص الخرائب فى سيجنت (Segente) وقام ببعض أعمال الحفر الأولية ، لم يجد ثمة ما يستدعى طلب مد إقامته ، وفى آخر أكتوبر كتب ما يلى : « لست أعلم إلى أين أتوجه ، فالعودة إلى طروادة لم يأزف موعدها بعد ، وإذا عدت إلى اليونان ، فلا مناص لى من مقاتلة نوبات الحسد التى تعصف بهم كل حين » .

وكانت كل شهرته قد نبعت من طروادة ، وحين غادر نابولى فجأة فى أول ديسمبر ، أخذ طريقه إلى القسطنطينية ، حيث قابل صفوت باشا بوزارة التعليم العام ، وطلب فرماناً جديداً ، فلم يعط صفوت باشا إجابة صريحة ، ولكنه وعد أن يستخدم نفوذه ، مشترطاً أن يحافظ شليمان بأمانة على وعده بأن يسلم المتحف الإمبراطورى كل الأشياء التى يكتشفها .

وفى أبريل عام ١٨٧٦ أرسل إليه الفرمان ، ولكن فى هذا الحين كانت فكرة الكشف عن مقابر مايكناى الملكية مستولية على ذهنه ، وعرف كيف يحدد الزمن المناسب لقيامه بأعمال التنقيب ، « فالعودة إلى طروادة لم يأزف موعدها بعد . . . » وحرر تقاريره عن أعمال التنقيب الصغيرة المبعثرة التى كان قد قام بها فى العام المنصرم — لم يكن هناك سوى حفنة من رءوس السهام القرطاجية ، لعرضها عن الأسابيع التى قضاها فى موتييه — وعكف على دراسة مايكناى .

واشتد اجتذاب مايكناى له يوماً بعد يوم ، فهو لا يستطيع التوصل لأوليمبيا ، وقد اكتشف كل ما يستطيع أن يؤمل فى اكتشافه بهيسارليك ، وبقيت ما يكناى ، التى اعتقد الأقدمون أن الذى أسسها هو برسيوس (Perseus) ابن الإلاهة داناى (Danaë) والإله زيوس (Zeus) الذى ظهر لها فى شؤبوب من الذهب ، فهناك ، إن كان ثمة مكان ما ، سيعثر على الكنز .

www.ibtesama.com/vb

الأقنعة الذهبية

فى عهد شليمان كان المسافر القادم إلى مايكناى ، فى الصيف ، يرى سهل أرجوس بأكمله أصفر وأبيض ، بما فيه من هشيم وغبار ، ولم تعد المدينة ، التى كانت يوماً ما قلعة عظيمة ، أكثر من ركام من الأحجار ، فوق أحد سفوح التلال ، تحرس الممر بين جبلين ، يقرب ارتفاعهما من ألفين وخمسمائة قدم ، وثمة لمحة من الوعيد تكتنف الجبلين الزرقاوين القاحلين — غايظين صارمين ، مع عنفوان ، فى قللهما الثقيلة ، وأكنافهما الضخمة — ولا زال الجبلان يتوعدان ، ولا زالت الذئاب تعوى فى سفوح التلال ، ولكن ثمة تغييراً كبيراً قد وقع ، فالسهل ، فى الوقت الحاضر ، منزرع خصيب ، تخترقه طرق معبدة ، وتزهر بساتين الفواكه بين حقول الطباق والقطن ، وينمو الشعير فى سفوح التلال ، ولكن مايكناى ، حتى فى الوقت الحاضر ، مكان يوحى بالوعيد ، إذ تربض دون اتساق ، فى ظل التلال الموحشة ، مشرفة على كل المداخل .

ومايكناى موقع مثالى لمدينة تسود سهل أرجوس ، وخليج نوبليا غير المكشوف ، الواقع على بعد تسعة أميال نحو الجنوب ، والذى يبدو كما لو كان مأهولا بالسكان منذ ما قبل التاريخ ، وهنا حوالى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أقام ملك شديد البأس ، حصوناً عملاقة حول مدينة من أوائل العصر البرونزى كما شيد قصراً جديداً ، وما من أحد يعرف اسم الملك أو من أين أتى ، وكان المدخل إلى المدينة طريقاً معبداً ، يحفه من الجانبين أبراج قوية ، وداخل الأبراج فى الأغوار ، انتصبت ، ولا تزال قائمة هناك ، بوابة الأسد العظيمة ، المشيدة فى قوة ورواء ، وكانت تغلق يوماً ما بباب خشبى مزدوج العوارض ، تعلوه عارضة ضخمة ، متوجة بنقش بارز للبؤتين وجا لوجه ، وحين يلج الزائر بوابة الأسد ويصبح خلف الأسوار ، التى يبلغ سمكها ست عشرة قدما ، يصل إلى منصة مستديرة ، وهذه كانت فى عهد شليمان مغطاة بالركام والمواد المتحللة على مر العصور ، وخلف هذه

www.ibtesama.com/vb

تتراكم خرائب القصور والمنازل الخاصة ، وجميعها قد تأثرت بعوامل التعرية المناخية ، وغطاها الطحلب ، وعلى المنحدرات الصخرية ، وفى السهل المحيط بها ، تربض أطلال المدينة المنخفضة ، وثمة التل جرفتها الريح ، كانت مكاناً قاحلا برياً ، قلما يزوره أحد غير اللصوص ، وظل الحال دون تغيير بضعة قرون ، وفى القرن الثانى بعد الميلاد زار بوسانيوس المكان ، ووجد نفس البرية القاحلة وأرض المراعى وقد تناثرت فيهما المنحدرات الجبلية والشواطىء الصخرية الوعرة ، وكانت حتى ذلك الحين خرابة ضائعة فى ركن من السهل ، قاتمة مشئومة متداعية .

وكانت يوماً ما مدينة مزدهرة كبيرة ، ذات شوارع واسعة ، وطرق للعربات ، وممرات متألقة ، وكان يتولى حكمها ملك قوى مقيم بالقلعة ، وكانت الجيوش تتدفق مخترقة بوابات الأسد ، وكان بها كنوز عظيمة من الذهب ، ويتحدث كل من هوميروس وسوفوكليس عن مايكناى باعتبارها « غنية بالذهب » ويقول بوسانيوس إن المدينة أسسها برسيوس ، الذى أطلق عليها اسمها ، إما لأنه فقد غمده (مايكس) هناك ، أو لأنه عثر على طحلب (مايكس) هناك فى ربيع دعى فيما بعد برسيا (Perseia) ، والواقع أنه ما من أحد يعرف الأصل فى تسمية المدينة ، وفى رأى شليمان أن التسمية جاءت من لفظ (مايكيثموس) بمعنى (خوار) ، نظرا لاشتهار سهل أرجوليس بالثيران ، وهذا ضرب من التكهن ، كغيره من الآراء وهو غير مصر عليه .

وعاشت الأسرة التى أنشأها برسيوس فى سلام ، أما الأسرة التى أنشأها أتريوس (Atreus) ، فقد عصفت بها مأساة مفجعة ، فحين علم أتريوس أن أخاه ثياستيس أغوى زوجته ، قتل اثنين من أبناء أخيه ، وقدم لحمهما لوالدهما فى وليمة ، وحين أخبروا ثياستيس أنه أكل لحم ابنيه تقايأ ما أكله ، وخرج يعدو كالمجنون وهو يستمطر اللعنات على كل ذرية أتريوس ، ثم استشار العراف فأنبأه أنه لا يستطيع القضاء على أتريوس إلا إذا أنجب صبياً من ابنته بلوبيا (Pelopia) ، وفى إحدى الليالى بينما كان ينحر ذبيحة للآلهة ، اقتربت منه صبية فافتضها ، وهو لا يعلم أنه قد افترس ابنته ، فصدقت كلمات العراف ،

www.ibtesama.com/vb

والطفل الذى ولد من هذا الاتصال فى منتصف الليل ، شب عن الطوق وصار رجلا ، ثم قتل أتريوس ، وحكم ثياستيس البلاد مدة ، بعدها أعقبه على العرش أجا ممنون بن أتريوس .

ولم يفلت أحد من قضاء لعنة ثياستيس المحتوم ، فبينما كان أجا ممنون يقاتل فى طراودة ، راح ايجستوس (Aegisthus) بن ثياستيس وبيلوبيا ، يبادل كليتمنسترا (Clytemnestra) ، زوجة أجا ممنون ، الغرام ، وترقب العاشقان الجانيان عودة أجا ممنون ، فأرسلا مراقباً إلى ساحل البحر ، ليخطرهما بمجىء السفن المحملة بالأسرى من طروادة ، وعبر السهل انطلق أجا ممنون ، غير متوقع أية خيانة ، فى مركبته على رأس جيوشه ، وأقيمت مأدبة عند وصوله إلى مايكناى ، وفى المأدبة أو فى حمام قريب ، قتلته زوجته وعشيقها .

وعلى الرغم من موت أجا ممنون فقد ظلت اللعنة معلقة فوق بيت أتريوس كالغمة لا تتحول أو تزيح :

. . . وغمت داخل الغابة المخضبة بالدماء
حيث أطلق أجا ممنون صرخة مـــدوية ،
وجعلت قطرات دمائهم كالنخالة تتســاقط
فوق ذلك الـكفن الغليظ المهـــان .

* * *

وهكذا فإن ت . س . اليوت وكتاب المسرح اليونانيين يصورون تلك الأيام حين كان ينظر إلى اللعنة كشىء بدنى ، يلمس فى هواء نصف الليل ، ويستمر أبدا مثل تموجات الماء عندما يلقى بحجر فى بركة من الماء ، ولم يضع موت أجا ممنون خاتمة للعنة ، فابنه أورستيس (Orestes) ، وابنته الـكترا (Electra) قتلا

www.ibtesama.com/vb

كليتمنسترا وعشيقها ايجسثوس ، واعتلى أورستيس العرش ، ولعل اللعنة التى التهمت أسرة أتريوس فقدت شرتها بمجيئه .

ويسوق كل من هوميروس ، وايسخيلوس ، وسوفوكليس ، ويوريبيديس ، قصة قتل أجاممنون ، فسقوط طروادة وسقوط بيت أتريوس ، عند اليونانيين هما مأساتا البطولة العظيمتان ، اللتان تتغذى عليهما أرواحهم ، واعتبرا مايكناى وطروادة متعادلتين فى القداسة ، فكل منهما آثره الأبطال العظماء بحضورهم ، وبعد اكتشاف طروادة ، اتبع شليمان الطريق المنطق ، حين وجه اهتمامه إلى مايكناى ، وفى طروادة كان قد عثر على الكنز قرب البوابة الرئيسية المؤدية إلى المدينة ، وثمة شعور ساوره بأنه سيعثر فى مايكناى أيضا على كنز قرب البوابة الرئيسية .

وكانت لديه بضعة دلالات يعمل على هديها ، فقد كانت هناك الأساطير والروايات المتواترة ، ولكن قليلا منها كان واضحا ، وبعضها كان مضللا ، وأعظم تقرير يعتبر حجة فيما يتعلق بمقابر الأبطال وصفه بوسانياس : —

« فى خرائب مايكناى ، توجد نافورة يطلق عليها اسم برسيا ، كما توجد مبانى أتردسيوس وأبنائه ، التى تحت الأرض ، والتى طمرت فيها ثروتهم ، وهناك مقبرة أتريوس ، وكذلك مقابر أولئك الذين قتلهم ايجسثوس ، حين عودتهم من طروادة ، بعد الاحتفاء بهم فى الوليمة ، فهناك مقبرة أجاممنون ، ومقبرة قائد مركبته الحربية يوريمدون (Eurymedon) ، ومقبرة الكترا ، ومقبرة تليداموس وبيلويس — لأنهم يقولون إن كساندرا وضعت هذين التوأمين وحين كانا طفلين قتلهما ايجيسثوس مع والديهما ، أما كليتمنسترا وايجسثوس فقد دفنا على كثب خارج السور ، لاعتبارهما غير أهل للدفن داخله ، حيث يرقد اجاممنون وأولئك الذين قتلوا معه » .

* * *

www.ibtesama.com/vb

وراح شليمان الذى كان قد طالع كل ما فى متناول اليد من كتب ومسرحيات عن مايكناى ، يفكر فى هذه الكلمات ، ويحفظها عن ظهر قلب ، وينظر إليها بعين الاعتبار التى ينظر بها إلى كلمات هوميروس ، وحين كتب بوسانياس ، أن ألفا وثلاثمائة عام انقضت منذ سقوط طروادة ، كان بوسانياس يسجل ببساطة أقوالا محلية متواترة ، وكان شليمان يميل إلى قبول هذه الروايات المتواترة لنفس الأسباب التى قبل بها الروايات المتواترة المتعلقة بهننج فون هولشتاين ، فهو مؤمن كل الإيمان بالقصص المتعلقة بالكنوز المدفونة .

وكلما ازداد شليمان تأملا فى كلمات بوسانياس ، ازداد اقتناعا بأن المعلقين السابقين جافاهم الصواب ، ذلك لأنهم ذهبوا إلى أن مقبرة كليتمنسترا مشيدة خارج أسوار المدينة ، وأن مقابر أتريوس وأجاممنون وأولئك الذين ماتوا معه مشيدة داخل أسوار المدينة ، ولكن شليمان خطر بباله أنه حتى فى عهد بوسانياس كانت أسوار المدينة قد تهدمت وأصبحت ركاما ، واحتج بأن بوسانياس قصد أن مقبرة أجاممنون إنما توجد داخل أسوار الأكروبول لا أسوار المدينة التى يمكن تقصى أثرها عبر الريف المحيط ، بهذا الاعتقاد تدعمه معرفته أن كنز طروادة قد وجد قرب البوابة الرئيسية ، بدأ العمل فى اغسطس عام ١٨٧٦ ، بثلاثة وستين عاملا ، جوار بوابة الأسد ، ولم يصرح له ، هذه المرة ، أن يعمل بمفرده ، فثلاثة موظفين من جمعية الآثار اليونانية كانوا يراقبون كل حركة من حركاته .

وكان شليمان يكره دائما الخضوع لأية رقابة ، ويكره ، بنوع خاص ، وجود الموظفين ، وخلف البوابة كانت الأحجار الضخمة تسد الممر ، فكلف عماله بإزالة الأحجار ، وعارض الموظفون ، فأجاب شليمان بأنهم يتدخلون فى صميم أعماله ، وكان قد قسم كالمعتاد عماله إلى جماعات ، مؤملا أن يربك الموظفين بمزاولة بضع مشاريع فى وقت واحد ، وفى حمأة القيظ ، وسحب الغبار الكثيف مخيمة فوق المدينة الخربة ، كان من السهل إثارة شليمان ، وكان الموظفون عادة يشكونه لصوفيا ، التى كانت لاتدخر وسعا فى سبيل تهدئتهم ، وأحيانا كان يتخطاها

www.ibtesama.com/vb

التوفيق ، وكلما تقدم العمل ، وزاد عدد العمال المشتغلين ، وتوعد شليمان بهدم المزيد من الأسوار ، اشتد اعتراضهم على شليمان لتصرفاته العنيفة ، وكتب ستامتاكيس ، رئيس مندوبى جمعية الآثار اليونيانية ، إلى أثينا ما يلى :

« إنه يزيل دون هوادة كل شىء رومانى ويونانى يقع عليه البصر ، كيف يكشف عن الأسوار الضخمة ويعريها ، وكلما عثرنا على آنية يونانية أو رومانية تطلع إليها فى ازدراء ، وكلما وضعت هذه الشظايا فى يده تركها تسقط على الأرض ، وهو يعاملنى كما لو كنت من البرابرة الهمج ، فإذا كانت الوزارة غير راضية عنى ، أرجو استدعائى للعودة إليها ، لأن بقائى هنا على حساب صحتى ، فبعد أن أقضى النهار بأكمله حتى الساعة التاسعة مساء ، وأنا معه حيث يقوم بالتنقيب ، ألازمه حتى الثانية صباحا ، لقيد الأشياء التى يعثر عليها ، وإنى لأسمح بأخذ بعض الأشياء ، التى يرغب فى دراستها ، إلى غرفته ، وقد كاشف شليمان ، حاكم المقاطعة ، بغبطته ورضاه ، لكل هذه المكرمات التى رخصنا له بها » .

* * *

بيد أن الحكومة كانت قد وقفت على طرائق شليمان فى طروادة ، وعقدت العزم على ألا تقع فريسة غفلتها ، فتلقى ستامتاكيس تعليماتها كى يستوثق من :
١ ــ عدم القيام بهدم أية أسوار ٢ ــ الامتناع عن التنقيب فى عدة مناطق ووجوب قصره على مكان واحد فى أية فترة ممنوحة ٣ ــ تحديد عدد العمال وقصره على رقم معقول ؛ واعتبرت الحكومة ستامتاكيس مسئولا عن أية مخالفة لهذه التعليمات .

وكان إعلان القواعد الجديدة أكثر يسرا من تنفيذها ، وبصحبة حاكم نوبليا ، سلم ستامتاكيس الرسالة إلى شليمان ، وقد تقدما إليه فى تردد ، واهتما بمراعاة منتهى الأدب فى مخاطبتهما له ، فعصف الغضب بشليمان ، وطلب إلى الحاكم طرد ستامتاكيس ، قائلا إن اشتغاله مع مثل هذا الرجل أمر لا يطاق ،

www.ibtesama.com/vb

فقال ستامتا كيس شيئاً عن مواصلة العمل « وفقا للقانون والاتفاق الذى وقعته » . فأجاب شليمان محتدا إنها ليست مسألة اتفاقات ، وما من أحد غيره يفهم ما يلزم عمله ، وقد رزئ بموظفين لا يعقلون ، ولا يدركون قط واجب شليمان المقدس فى إزاحة الستار عن مدينة قديمة ، مدفونة فى أغوار الأرض ، وأنه سيستخدم كل أجهزة العلم الحديث لحماية وحفظ المدينة القديمة ، ولكن من الضرورى له أن يعمل فى حرية كاملة ، وإذن فحبذا استبعاد الموظفين !

وبينما كان شليمان يحرق الإرم غيظا ، وصوفيا متخلفة فى الظلال ، راح حاكم نوبليا يتلو فى وقار الرسالة التى تسلمها من أثينا ، ثم واجه ستامتا كيس الأهيف الفارع العود ، شليمان القصير النحيل : الموظف المسئول الذى يدين بالواجب لأثينا ، عالم الآثار الذى يدين بالواجب للماضى فحسب ، فتكهرب الجو ، واستحال وجه شليمان أحمر لامعا ، كما يحدث دائما حين يغضب ، وأخذ يتمتم حانقا ، وكان العمال قد توقفوا عن العمل ، ومن حين لآخر كان يصدر من أحدهم ، وهو مهرج ضخم الجثة ، كان قد انتخب عمدة لقرية محلية ، تعليقا ساخرا ، يلقيه فى همس مسرحى ، وطوال الوقت استمر حاكم نوبليا يتلو الأمر الصادر إليه .

وأخيراً ، وقد انتهت التلاوة ، دار شليمان على عقبيه ، ورفع عقيرته يأمر العمال باستئناف الحفر ، ولم يعر رجال السلطة بعد ذلك أدنى التفات ، فأطاعه العمال ولكن ببطء ودون تحمس للعمل ، لفزعهم من تحديق عينيه الغاضبتين ، وفى ذلك المساء حرر شليمان رسالة مطولة من سلسلة رسائله إلى الوزير ، ولعدم اطمئنانه إلى قيام مكتب البريد بتسليمها له ، طلب إلى صوفيا السفر إلى أثينا فى اليوم التالى ، كى تسلم الرسالة بنفسها للوزير وتنتظر رده عليها .

وهكذا استمر العمل ، بينما كان شليمان وستامتا كيس لا يطيق أحدهما الآخر ويتربصان الفرص ، وكانت علاقاتهما خليطا من الصلح المبتسر ، وتصريحات الحب المتأجج ، ونوبات الكره المفاجىء ، وكان شليمان قد هذب فن مناورات

www.ibtesama.com/vb

التعطيل ، فخطابه للوزير آية فى الحيلة والدهاء ، إذ أعلن فيه حبه الخالد لليونان ، وتكريس نفسه لعلم الآثار ، واعتقاده أن رسالة الوزير إلى حاكم نوبليا كتبت فى لحظة انحراف فكرى ، واستطرد قائلا إنه لم يعد لديه أدنى رغبة للتنقيب فى بلاد تعامله بمثل هذه الإهانة .

ولدى الحكومتين اليونانية والتركية ملفات كبيرة مليئة بمثل هذه الخطابات ، وقد فطنوا فى اليونان إلى براعته فى المناورات واستعدوا لأخذ تهديداته على محمل الجد ، فإذا رغب فى الرحيل عن اليونان ، لن يقفوا فى سبيله ، ولكن صوفيا لم تكن راغبة فى مغادرة اليونان ، وهى ممثلة موهوبة ، ودائما إلى جانبه ، مستخدمة كل فتنتها ، وكل حيلها لهزيمة الخصم ، وسرعان ما راح ستامتا كيس ، وهو فى العادة متحفظ مهذب ، يشير إلى الفتاة الأثينية النحيلة باعتبارها « مسخ غير بشرى » إذ أدرك أن لها نصيب الأسد فى تنظيم الخطط البارعة ، التى يحصل بها شليمان على حرية كاملة فى العمل ، على الرغم من أوامر الحكومة .

وبينما كان شليمان يهدد بالرحيل إلى أمريكا ، كان ستامتا كيس يهدد بالاستقالة ، ذاكرا الأعباء الثقيلة الموضوعة على عاتقه ، وفظاظة شليمان التى لا يصدقها عقل ، وعناده ، وختله ، واعتياده الشيطانى على تحويل الحياة إلى جحيم لكل من هم حوله ، وكانت صوفيا تزجى الوقت فى تربص ، وكلما شحن الجو بالتهديد والوعيد ، تلبثت ترقب فرصتها ، وفى لحظة تتخيرها بنفسها ، تتدخل لفض النزاع ، ببضع عبارات تقولها فتهدئ بها النفوس الثائرة ، فإهاب الصبية يحوى عقل امرأة ناضجة واعية ، وشليمان الذى قلما أثنى على أحد ، كان إعجابه بدهائها لا يقف عند حد ، أليست هى بينلوبا ، وأليس هو أوديسيوس ؟

واستمر العمل جاريا ، ولكن لم يتم اكتشاف أى شىء عظيم الأهمية ، ومن عجب أنهم لم يعثروا على عملة رومانية أو بيزنطية . مثل التى وجدت فى طروادة ، وتحت أطلال المدينة الهللينية عثروا على آنية قديمة رائعة ، مرسوم عليها أشكال

www.ibtesama.com/vb

هندسية ، وأقداح من الطين النضيج ، ذات شبه عجيب بكئوس خمر بوردو ، ووجدوا تماثيل الطفل الصغيرة المعتادة للإلاهات ، مصبوغة باللون الأحمر الفاقع ، كذلك وجدوا مدى وزرابى وحيوانات من الطفل ، ورءوس سهام ، لا تختلف عن تلك التى استخرجت من موتييه ، ومئات من نماذج أجهزة التأنيث ، المصنوعة من الحجر الأزرق الجميل ، والأمشاط والإبر وشظايا البلور ، ووجدوا أيضاً أحجار الرحى وفئوسا صغيرة وقطعا من العظام التى كان شليمان يعتقد أنها أجزاء من الآلات الموسيقية المستعملة فى ما يكناى ، وبدا الحال كما لو كان قد قدر لشليمان أن يكرر نفس العملية التى عانى منها فى طروادة ـ نماذج لا حصر لها من أجهزة التأنيث ، ونماذج لا حصر لها من أجهزة التذكير ، وتماثيل إلاهات صغيرة لا حصر لها من الطين ، ولا شيء سوى ذلك له أهمية كبيرة .

وأخيرا فى الأسبوع الرابع أو الخامس وقع العمال ، الذين كانوا يحفرون جنوبى بوابة الأسد ، على نصبى ضريحين ، ارتفاع كل منهما حوالى أربع أقدام ، من حجر الرمل وعليهما رسوم بارزة ، بطريقة شبيهة بحفر الخشب البدائى ؛ وأحد الرسوم لصياد فى مركبة حربية ، يطارد غزالا ، ومعه كلب صيد يعدو بجانب المركبة ، والرسم الآخر لمركبة حربية أخرى ، يقود جوادها جندى عار مسلح بحسام عريض .

وظن شليمان أنه رأى بعض التشابه بين طريقة النقش على نصبى المقبرتين ، وطريقة نقش السباع الشهيرة على بوابة الأسد ، إذ لاحظ أن ذيول الجياد والكلب والغزال كانت كثيفة وطويلة على غير المألوف ، وعلى الرغم من أن المركبات الحربية لم تكن غير رسوم تقريبية غير دقيقة ، فقد انتهى إلى أنها صور أمينة للمركبات الحربية التى استخدمت خلال حروب طروادة ، وفى الأيام التالية ظهر بعض بقايا أخرى من نصب المقابر ؛ وتم اكتشاف شيء أكثر أهمية وهو زر من الذهب ؛ وبالذهب ونصب المقابر أحس شليمان أنه يسير على الدرب الذى يوصله إلى طريدته .

www.ibtesama.com/vb

وكان قد عثر على نصب المقابر داخل الرحبة المستديرة الكبيرة خلف بوابة الأسد ، وإذ واصل عمله هناك ازدادت حيرته بما اكتشف ، فحول الدائرة جميعها وجد ألواحا حجرية مرتبة بحيث تكون حلقة متصلة تقريبا من المقاعد ، وقد أوحى هذا بأن الدائرة تمثل مكان الاجتماع فى الهواء الطلق ، حيث يحضر أشراف البلاد الذين يستدعيهم المنادون لسماع ما يذاع ، ولعلها استخدمت أيضاً كحلقة للرقص ، وكمكان يجتمع فيه الشعراء لمدح الملوك وتمجيدهم ، فالخطباء يقفون هناك ، والجوائز توزع هناك ، وهناك أيضاً يطلع الشعب ، بين الفينة والفينة ، على رموز القوة المقدسة .

وكانت تلك الأماكن أرضا مقدسة ، وعادة كانت ترتبط بالأبطال الراحلين ، وأحيانا كانت مقابر الملوك تقع تحت الأحجار ، ومثل هذا المكان كان يسمى أجورا (Agora) ، وعلى الرغم من تقديسهم له كان يستعمل منتدى للتعامل التجارى ، ويتحدث يوريبيديس فى مؤلفه « الكترا » عن أهالى ما يكناى حين استدعائهم « إلى الأجورا لرؤية الحمل العجيب ذى الجزة الذهبية » (The Agora of Megara) ، وكذلك يتحدث بندار عن الأبطال الذين توسدوا الثرى فى الأجورا بجزيرة ثيرا ، فابتدأ شليمان يعتقد أن مقابر الأبطال ستكشف داخل تلك الحلقة من الأحجار .

ولعلة لم يوضحها قط ؛ لم يسرع فورا فى التنقيب داخل محيط الدائرة ، وكان إلى جنوبى الدائرة يوجد منزل ضخم ، به سبع حجرات كبيرة ، لا نوافذ لها ، وإذ ظن أنه القصر الملكى ، استقر رأيه على أن يقوم هنا بالتنقيب فى اهتمام جاد ، وكانت باكورة الأشياء التى عثر عليها ، تثبط العزيمة : نماذج الحجر الأزرق من أجهزة التأنيث المختومة ، الفئوس الصغيرة والكبيرة المختومة ، قطع الخزف الملون المختومة ، أما الاكتشاف العظيم فكان إناء للزينة ، ارتفاعه نحو اثنتى عشرة بوصة ، وقد رسم عليه مصور قديم ثلة من الجنود تسير إلى ساحة الوغى ، وقد رسمت الجنود باللون الأحمر القاتم ، والأرضية باللون الأصفر الخفيف ،

www.ibtesama.com/vb

وهنا نرى لأول مرة استعداد الجنود ، الذين قاتلوا فى الحروب قبل طروادة ، ومما يثير الدهشة تلك الرشاقة البادية فى هذه الصور العجلى ، وما توحى به من طابع عصرى عجيب ، فالجنود يبرزون من ماض سحيق ، ولكننا سنتعرف عليهم إذا ولجوا علينا الحجرة .

وجدير بالاهتمام أن نتوقف لدراسة هؤلاء الجنود ، فمن المحتمل أن أبطال هوميروس كانوا يرتدون ملابس تماثل ما يرتدون ، من خوذات ذوات قرون ، يعلوها الريش ، وأمثال هذه الخوذات تظهر فى النقوش المصرية البارزة ، التى تصور الوقائع الحربية بين المصريين و « القوم القادمين من بلاد البحار » ، وهم يحملون حرابا طويلة معلقا بها زجاجات خمر ، ودروعا ثقيلة نصف مستديرة ، وهم يرتدون دروعا صغيرة تشبه الأطواق ، فوق لباسهم المزرود ، المثبت عند الخصر بحزام قد يكون من المعدن ، ويصل لباسهم المزرود فقط إلى أفخاذهم ، التى تحميها شراريب يحتمل أن تكون من الزرد ، كذلك كانوا يرتدون جوارب نعلها هى الأخرى من الزرد ، وإن كان شليمان يميل للاعتقاد بأنها من القماش ، وبالخوذات المصورة نقط بيضاء ، ويرى شليمان أن المصور أراد أن يمثل بها بريق البرونز ، وأكثر احتمالا أن تكون الخوذات مصنوعة من الجلد المدبوغ ، وقد رقشت بأشواك معدنية ، كالتى وجدت على قطعة صغيرة من إناء تزينه صورة محارب ، اكتشفه شليمان بعد ذلك بأيام قليلة .

وحيرت شليمان تلك القرون (أجهزة التذكير) التى على الخوذات ، فكتب يقول : « لست أجد أى تفسير على الإطلاق لما يمكن أن تستخدم فيه هذه القرون ، وما من كلمة فى هوميروس ، يمكن ترجمتها لتبين وجودها بالخوذات فى عهده » ولكن شليمان هذه المرة كشف عن غفلته ، فقد أشار هوميروس إليها بوضوح فى السفر الثالث من الإلياذة ، خلال وصفه للمبارزة بين منلوس وباويس « استل منلوس سيفه ذا المقبض الفضى ، ولوح به من الخلف ، ونزل به على قرن خوذة العدو ، فتكسر نصل السيف وسقط من يده » لقد كان الغرض من القرن

www.ibtesama.com/vb

تلقى ضربة السيف ، ولكن لعله كانت هناك أسباب أخرى : لتفادى العين الشريرة ، ولتقوية رجولة المحارب ، ولإمداده بالإحساس أن له عينا إضافية ، وكانت هناك خوذات لها قرنان ، وأخرى لها أربعة قرون ، وأحيانا كانت أجهزة التذكير منحنية كقرون الماعز .

ولكن على الرغم من أن هذه القرون المنحنية المدببة ، تقدم تفسيراً هاماً لمسلك الجنود وهم يسيرون مبتعدين عن المرأة ذات الخصر النحيل ، التى تلوح لهم إلى اليسار ، فهناك دلالات أخرى أكثر أهمية ، فيبدو أن ريشات الزينة هى ريش طائر وليست شعر جواد ، والحزام السميك يشير إلى عصابة هوميروس ، وهى شريط عريض من المعدن لحماية أسفل البطن ، ونعلم أن طراميق هوميروس ، كانت مزودة بمشابك فضية عند الكاحل ، ويبدو أن هذه المشابك مبينة هنا ، وحتى الأنوف الطويلة ، والعيون الواسعة ، واللحى المشذبة ، هى ما قد نرقبه ، فهؤلاء الجنود يتصلون بأولئك الذين حاربوا الفرس بعد ذلك بمئات السنين ، وهم يسيرون بنفس الخطوة الراقصة ، وإذن فهذا الإناء المحطم يصور تاريخ اليونان القديم بطريقة غير عادية قط .

وهكذا مرت الشهور ولم يكن قد اكتشف ما يستحق الذكر سوى قطع نصب المدافن الأربعة التى وجدت فى الأجورا وإناء المحاربين ، وكان شليمان يشتغل من الصباح إلى الغسق ، تحت الشمس المحرقة ، ومعه مائة وخمسة وعشرون عاملا ، وكانت سحب من الغبار الساخن تعج عبر ما يكنناى ، وكانت عيناه ملتهبتين ، ومزاجه غير معتدل ، وكان لا يكف عن العراك مع الموظفين ، الذين كانوا أكثر اهتماماً ، على حد ظنه ، بأن يترك كل شىء فى مكانه ، من أن يتم الكشف عن الماضى .

وأقبل الزائرون ، ولكن إذا استثنينا قطع الخزف والمسابح والتماثيل الصغيرة المطلية ، لم يجدوا هناك سوى القليل ليشاهدوه ، وقدم إمبراطور البرازيل ، دوم

www.ibtesama.com/vb

بدرو الثانى ، راكبا من كورنثوس ، لفحص أعمال التنقيب ، فابتهج شليمان لقدوم مثل هذا الزائر الكبير ، وأقام له مأدبة عظيمة فى مقبرة تحت الأرض تحمل اسم خزينة اتريوس ، وكانت قد اكتشفت منذ أمد بعيد ، ولذلك كان الرجاء ضعيفاً فى أن يسفر التنقيب بها عن أى شىء ، وتحدث شليمان عن اكتشاف الكنوز فهو سيعيد فى ما يكناى ما سبق أن قام به فى طروادة من اكتشافات طبقت شهرتها الآفاق ، فابتسم الإمبراطور ، إذ كان اليونانيون قد حذروه من ضروب تفاخره ، وأبدى اهتمامه بالمقابر ، وكان نموذجا للدماثة ، وفى بهاء وارتياب ووداعة ، بهر الإمبراطور شليمان بمعرفته فى علم الآثار ، وأسرف فى الثناء عليه ، وتحدث عن « الخدمات التى لاتقدر بثمن ، والتى تقدمها فى سبيل تفهم الحضارات القديمة .

وإذ تأثر شليمان بهذا المديح ، أهدى إلى الإمبراطور قطعا من الخزف المطلى وتعجب قليلا حين علم بعد رحيل الإمبراطور بأيام قليلة أن ضابط الشرطة ليونيداس ليوناردوس تسلم ، خلال زيارة الإمبراطور ، مبلغاً تافهاً قدره أربعون فرنكا ، لتوزيعه على قوة الشرطة ، وشاع بين رجال الشرطة أن الضابط كان قد تسلم ألف فرنك ، واختلس المبلغ كله ما عدا أربعين منه ، فأجرى تحقيق وطرد الضابط من وظيفته .

فاهتاج شليمان ، إذ كان يعرف الضابط جيداً ، وأبرق إلى رئيس الوزراء فى أثينا ، دون نتيجة ، وإذ علم أن دوم بدرو كان فى القاهرة أرسل شليمان إليه البرقية التالية : —

« حين مغادرتكم لنوبليا ، سلمتم مبلغ أربعين فرنكا لضابط الشرطة ليونيداس ليوناردوس ، لتوزيعه على رجاله ، وللطعن فى كرامة هذا الرجل المبجل يزعم عمدة نوبليا أنه تسلم ألف فرنك من جلالتكم ، وقد طرد ليوناردوس أخيراً

www.ibtesama.com/vb

من وظيفته ، وإنى الآن ألاقى أشد العناء لإنقاذه من السجن ، وإذ كنت قد خبرته سنين طويلة ، وعرفت فيه الأمانة التامة ، أناشد جلالتكم باسم الحق والإنسانية المقدسين ، أن تبرق إلى بالمبلغ الحقيق الذى سلمته لضابط البوليس . »

* * *

وكان دوم بدرو رجلا ضعيفاً ، ولكن كان فى استطاعته أن يكون كريما أحيانا ، فأبرق يقول إنه فعلا سلم ضابط الشرطة أربعين فرنكا ، وابتهج شليمان إذ عاد ليونيداس ليوناردوس إلى عمله سريعا .

وانتهى الصيف ، وهطلت الأمطار على الأجورا ، محولة الأنقاض إلى طمى ، واستمر العمل جاريا ، وفى منتصف أكتوبر تقريبا كان شليمان يقوم بالحفر متعمقا فى أغوار الأجورا حين وقع على مقبرة طولها عشرون ذراعا وعرضها عشر أقدام ، منفصلة عن منحدرة الصخرة العارية ، ولابد أن اللصوص نهبوا المقبرة ، فلم يجد بها سوى بعض الألواح الحجرية ، والأزرار الذهبية ، والقرون العاجية ، ومن المحتمل أن هذه كانت من ضروب الزينة لحجرة الموتى ، ثم حفر أكثر قليلا إلى الجنوب صوب مركز الدائرة ، وعلى عمق خمس عشرة قدما وصل إلى طبقة من الحصى ، وتحت هذه وضعت ثلاث جثث ، مغطاة بطبقة كثيفة من الطفل ربما بدا كأنه رماد محرقة جنائزية ، ومن خلال الطفل سطع بريق الذهب .

وحين أصبح الكنز على مرمى البصر ، وموظفو الحكومة يتطلعون من فوق كتفه ، عرف شليمان مرة أخرى ذلك الانفعال القوى الذى غمره حين اكتشف كنز طروادة ، ومرة أخرى لجأ إلى صوفيا يستمد منها العون ، وكان من فرط فرقه وانفعاله عاجزا عن أن يكشف العظام بنفسه ، فانحنت صوفيا على الحفرة وأزالت الطفل عن الجثث بمدية صغيرة .

www.ibtesama.com/vb

كان مع كل جثة خمسة تيجان ذهبية ، وخمسة صلبان ذهبية مع الساعدين ، فى هيئة أوراق شجر الغار كانت فوق الجثة الأولى ، وخمسة فوق الثانية ، وأربعة فوق الثالثة ، وهذه التيجان كانت تختلف عن تيجان السلاسل الذهبية المزخرفة التى وجدت فى طروادة ، فقد كانت مصنوعة من صفائح رقيقة من الذهب المطروق ، بها حلقات وحدبات للزينة ، وبينما كانت طروادة مظهرا لخداع البصر البالغ ، على الرغم من بساطة تصميمها ، كانت تيجان مايكناى تتميز ببساطة عجيبة ، وبساطتها كانت تجريدية ، توحى بالقوة فى تجردها الصرف غير المشوب .

وقد تبعثرت حول حفرة المقبرة مدى صغيرة من الزجاج البركانى ، وقطع من آنية الزينة المطلية ، وقدح من الفضة ، وظن شليمان أنه وجد أثر نار ، وقد تكلم بعد ذلك عن الطريقة التى لابد أن تكون الأجساد قد حرقت أو شويت بها ، وكان من رأيه أن الحصى الموجود فى باطن المقبرة ، كان يهيء التهوية ، على نحو ما ، للمحرقات الجنائزية ، وقد اعتقد شليمان ، وشاركه دوربفلد (Dorpfeld) بعد ذلك فى معتقده ، أن من عادة أهل مايكناى شى اللحم لنزعه عن العظام ، واستطاع الحصول على أشكال الهياكل العظمية ، ولكن الرطوبة كانت قد أضرت بها ، وسرعان ما تفتت ، وأصبح كنز مايكناى مكونا الآن من خمسة عشر تاجا وأربعة عشر صليبا .

وعزم شليمان الآن أن يرتاد جانب دائرة المقبرة الواقع على أقصى بعد من باب الأسد ، فوجد على بعد تسع أقدام بعض الهياكل العظمية ، وعلى مقربة منها مدى من الزجاج البركانى ، ولكن لم يكن هناك كنز ما ، فتحير قليلا ولكنه واصل الحفر ، وإذا كانت المقبرة الأولى مخيبة للآمال ، والثانية لم تعط سوى حفنة من الأشياء الثمينة ، فالكنز الثالث الذى عثر عليه بعد حفره قليلا تحت الهياكل العظمية ، كشف عن تحف رائعة غير مرتقبة تخلب اللب ، فهنا كان فيض الله ، ذلك لأن الحجرة بأكملها كانت مكدسة بتحف من الذهب تتألق ببريق مخمر .

www.ibtesama.com/vb

وفى هذه الفترة كان معظم العمال قد انصرفوا ، وقامت حلقة من الجنود حول حجرة الكنز لحراستها ، ومرة أخرى انحنت صوفيا وأقحمت نفسها بين الهياكل العظمية والذهب ، وراحت تزيل بعناية التربة التى كانت لا تزال تغطى المقابر الملكية ، واشتغلت بصبر وتريث ، خشية الإضرار بالأشكال المنقوشة برقة فى صحائف الذهب الرقيقة ، وكما كان فى المقبرة الثانية ، عثروا هنا على ثلاث جثث ، إحداها تلبس تاجا ذهبيا ، تعلوه أكثر من ثلاثين حلية على هيئة أوراق الشجر ، وكانت هذه الأوراق مثبتة بخفة فى التاج ، ولابد أنها كانت تهتز وتتألق كلما لبسه الملك ، وكان هناك ثمانية تيجان أخرى ، وستة صلبان من الذهب ، بعضها مزدوج وفى غاية التنميق ، وكانت هناك عقود ذهبية وطاسات وآنية للزينة وجرار خمر ، لها أغطية ذهبية متصلة بسلوك رفيعة من الذهب ، وكانت هناك زهرة ذهبية على ساق من الفضة ، ومعها كرات متألقة من البللور الصخرى ، لعلها كانت رمانات السيوف الملكية .

أما أعجب كشف فكان عدد ضخم من الأقراص الذهبية المسكوكة — أحصى منها أكثر من سبعمائة فى هذه المقبرة وحدها — بعضها على هيئة أوراق الشجر ، والبعض الآخر يشبه الفراشات وحيوانات الأخطبوط والنجوم وأزهار عباد الشمس ، كما كان هناك بعض أشكال هندسية محضة ، وقد استنتج شليمان أنها كانت منمنمات للدروع ، ولكن فى الأرجح أنها كانت رموزا لحياة الاحتمال التى من المرتقب أن يغشاها الموتى خلال وجودهم تحت الأرض .

ومع الأقراص وجد عدد كبير من مشابك الصور الذهبية ، لا يزيد طول الواحد منها على بوصة ، ولا تختلف عن مشابك الصور الذهبية الصغيرة التى عثر عليها فى فارس خلال التنقيب فيها ، وتعود فى تاريخها إلى عهد الملكين قورس (Cyres) وإجزرسيس (Xerxes) ، وفى رشاقة بالغة صاغ الفنان قطعة من الذهب مزخرفة على هيئة أسود ، ووحوش الجرافين الأسطورية ، وأسماك الحبار ، والظباء ، والنسور ، والبجع ، ولعل هذه أيضا كانت من ضروب الزينة التى تحاك على أرواب الموتى .

www.ibtesama.com/vb

وزعم شليمان أنه وجد فى المقبرة الثالثة ، ثلاثة هياكل عظمية لإناث ، مستنداً إلى صغر حجم العظام والأسنان ، ولكن هناك نفس الاحتمال بأنها هياكل رجال ، لملك وأميرين ، مصفوفين فى زردهم الكامل ، ووجد بين العظام خنجراً وصولجانا من الفضة الموشاة بالذهب .

ومع المقبرة الثالثة وهى مفتوحة ، شرع شليمان فى حفر بقية الأجورا ، وإذ كان متحيراً فى اختيار المكان الذى يحفر فيه ، تذكر أنه قد استرعى انتباهه منظر التربة القاتمة غربى المقبرة الثالثة ، فقد كانت تلك التربة سوداء تقريبا وظاهرة الاختلاف عن أية تربة أخرى بالأجورا ، وقد حفر إلى عمق خمس عشرة قدما ، ولكنه لم يجد سوى بقايا خزفية ، فتعمق تسع أقدام أخرى ، حيث اكتشف ما ظنه مذبحا مستديرا ، ارتفاعه أربع أقدام ، ذا فتحة كفتحة البئر فتيقن أنه مذبح أقيم لتكريم الأبطال الراحلين ، المدفونين تحته دون شك ، ولعل الهدايا كانت تتدفق فى هذا المذبح لأجل الموتى ، وكان لمقابر سمريا (Sumeria) أقماع من الطفل ، تسكب فيها التقدمات ، ولكنها لم تكن قد كشفت فى عهد شليمان ، فاضطر كمألوف عادته أن يعتمد على تكهناته الخاصة ، ومازال المذبح يحير الدراسين ، ولكن تكهن شليمان الرئيسى كان صحيحا ، فحفر ثلاث أقدام أخرى تحت المذبح ووجد مقبرة أخرى مليئة بالكنوز ، كانت هناك ثلاث جثث أخرى مغطاة بالذهب والمجوهرات ، وكانت ثلاث منها ترتدى أقنعة من الذهب ، وكان موضوعا قرب رأس الجثة الرابعة قناع مضفور عجيب ، شكله كرأس أسد ، حتى لقد ظن شليمان فى مبدأ الأمر أنه خوذة .

وأحد هذه الأقنعة الأربعة كان قد تفتت إلى حد أنه فقد تقريبا هيئة تقاسيم الوجه البشرى ، وإذ تفرس فيه شليمان لبضع دقائق ، ظن أنه قد استطاع أن يتبين فيه وجها فتيا بجبهة عالية ، وأنف إغريقى طويل ، وفم صغير رقيق

www.ibtesama.com/vb

الشفتين ، وليس لهذا القناع ميزة ما ، ولكن اثنين من هذه الأقنعة الذهبية هما فخر المقبرة الرابعة ، ففيهما تتجلى القوة والعنفوان مع جمال مروع ، وللموت عليهما طابعه ، ولكن لا أثر للهجوع بتلك القسمات المهيبة ، وهما يختلفان تماما فى طبيعتهما عن الأقنعة الرصينة القسمات المرسومة على الخشب ، التى تظهر على توابيت الفراعنة المصريين ، وواضح أنها تخدم غرضا مختلفا ، فالفنان لم يحاول أن ينقل الرسم عنهم وهم أحياء ، فالعلامات التى لا يضلها أحـــد تبدو واضحة كل الوضوح ، وظن شليمان أن الأقنعة التى وجدها تحمل صور الموتى ، ولذلك كتب بهذا الصدد يقول : « لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك بأن كل قناع منها يمثل صورة المتوفى ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لبدت جميع الأقنعة فى صورة مثالية موحدة .

أما إذا كانت تحمل صور الأحياء حقا ، فهى مبسطة إلى حد أنها فقدت تماماً تلك القسمات التى كانت تعرف بها فى الحياة ، فقد تتضاءلت إلى حد التجريد ، ففى قناع ، رمز إلى خواء الموت بعينين منتفختين تترائيان كما لو كانتا ستبرزان من محجريهما ، وفى الآخر كانت الجبهة الثقيلة الحافة ، والشفتان المغلقتان بإحكام ترمز لآلام الموت ، ومثل أقنعة بيرو الذهبية ، التى تتشابه جميعها بصورة غير عادية ، فهى لا تمثل صور الموتى بقدر ما تمثل صور الموت ، فقد نحتت وصبت وكأن الذى صنعها قد نقل إلى صفحة الذهب الرقيقة ، ما يملأ قلبه من فزع ، أمام منظر الجثمان المتحلل ، ويتألق ، فى ثنايا الأقنعة ، جمال غير أرضى ، وإنا لنرى أولئك الملوك أو الأمراء كما كانوا بعد موتهم بساعات طويلة ، عن طريق عينى فنان لم يحاول إظهارهم كما كانوا بالضبط ، وإلا لكان قد صورهم مراعياً المزيد من الدقة فى التفاصيل ، والمزيد من النزعة الإنسانية ، فهم يكادون أن يكونوا أشباه آلهة ، ويبدو أن نية الفنان كانت متجهة لأن يوحى بالألوهية فى الولاة الراحلين ، الذين حملوا إلى القبر السلطان الغامض الذى كانوا يمارسونه خلال حياتهم ، ويمكن تفسير هذه الأقنعة باعتبارها صور الملوك لحظة انحلالهم حين أصبحوا آلهة .

www.ibtesama.com/vb

وإن المرء ليتطلع إلى هذه الأقنعة فى رهبة وإحساس بالخسران ، فخلال تاريخنا الغربى بأكمله راح الفنانون يتصارعون مع الموت ويحاولون تصويره ، ولكن قلما وفقوا مثلما وفق هؤلاء الفنانون المجهولون فى ما يكناى ، فهنافى مستهل حضارتنا ، يصور الموت دون خشية ، بقوة هائلة وبساطة متناهية .

ومع ذلك فما من أحد يعرف الغرض الدقيق الذى استهدفته هذه الأقنعة ، فلا هو ميروس ولا أى كاتب آخر إغريقى ، يشير إلى أقنعة الموت من أى نوع ، ونعلم أن الأقنعة كانت تلف حول وجوه الموتى ، وتظهر الثقوب القريبة من الأذان المنبسطة كيف كانت تثبت فى مكانها بوساطة خيوط الكتان ، ومن سوء الطالع أن جماجم الجثث الخمس كانت فى حالة من التحلل لم يتيسر معها إنقاذ أى منها ، ولسنا نعرف الوضع الذى وجدت فيه بالضبط ، وها نحن أولا قد حصلنا على الأقنعة ، كما حصلنا على المجوهرات مبعثرة حول الجثث ، بيد أننا لا نعرف سوى التافه عن اليونان القديمة ، ومن ثمة لا نستطيع تخيل المنظر حين وضعت الجثث فى مقابرها الصخرية .

وحين اكتشف شليمان قناع الأسد لأول مرة ، كان منبسطاً معطوباً ، فقدت منه بعض قطع صغيرة كما ظهر ، ولظنه أنه خوذة وضعه جانباً ، وبعد ذلك فحصه بمزيد من الدقة ، وتبين عينى الأسد وأذنيه ، وفمه وأعلن أنه قناع ومن ثمة يلبس فوق الوجه .

وفى عهد متأخر عن ذلك كان الملوك يرتدون رءوس أسود نحوذات ، وأفواه السباع مستقرة على جباه الملوك ، كما نشاهد على عملة الإسكندر الأكبر ، ومن المحتمل أن قناع الأسد كان خوذة بعد كل هذا .

وحتى شليمان ضللته ثروة الكنز بالمقبرة الرابعة ، فالأقنعة لم تكن غير شطر صغير من الكنز ، وكانت جثتان ترتديان وقاء ذهبيا للصدر ، وأخرى تحمل تاجا بأوراق أشجار راقصة ، وكانت هناك إحدى عشرة طاسة ضخمة من الذهب ،

www.ibtesama.com/vb

منقوش على مقبضى إحداها رسم حمامتين لطيفتين ، بالضبط مثل قدح خمر نسطور بالإلياذة ، (المرصع بأزرار من الذهب ، والمزين بحمامتين ذهبيتين) ، وكانت هناك أحزمة وأوشحة للزينة من الذهب ، ورباط للساق من الذهب ، وإكليل من الذهب ، وقلائد ذهبية ، ودبابيس ذهبية ، وكانت هناك فئوس قتال صغيرة من الذهب مزدوجة الرأس ، لا يزيد عرضها على بوصة واحدة ، وكان هناك اثنا عشر زرا ضخماً مصفحاً بالذهب ، وأكثر من مائة قطعة مستديرة ذهبية ، يحتمل أنها كانت قطع نقود ، وأكثر من مائة وخمسين قرصاً ذهبياً ، وكانت هناك سمكة حبار متقنة الصنع من الذهب ، وكانت هناك عشرة صحائف ذهبية لعلها استخدمت كمقابض للسيوف ، وكانت هناك مراجل من النحاس ، وسيوف من البرونز تشبه المهند ذا الحدين غير العريض ، وكان هناك رأس بقرة من الفضة ، بقرنين متألقين من الذهب ، التى لابد أنها كانت ، كأشياء كثيرة أخرى وجدت بالمقبرة ، شعار العشيرة المقدس ، وكان أعجب كشف ، وسط هذه الأكوام الهائلة من الذهب ، عدد هائل من أصداف المحار ، وبعض المحارات التى لم تفتح قط .

وكان خندق المقبرة الرابعة فى مايكناى ، يحتوى على كنوز أكثر مما تم اكتشافه فى طروادة ، ولكن شليمان لم يكن راغباً فى التوقف عن العمل ، فبينما كان لايزال يقوم بالتنقيب فى هذه المقبرة ، شرع فى الحفر شمالها مباشرة ، وهنا وجد مقبرته الخامسة والأخيرة ، التى كان كل ما بها يقوم دليلا على نهبها ، فلم يكن بها سوى جثة واحدة سرعان ما تفتت صعيداً جرذا ، ووجد فى المقبرة تاجا من الذهب ، وقدحا ذهبيا للسقيا وإناء أخضر للزينة ، وبضعة شظايا من الطين النضيج .

وكان العمل فى المقبرة الأولى قد توقف حين امتلأت المقبرة بالطمى ، وبعد أن اعتدل الطقس عدة أسابيع جف الطمى ، وقضى أيامه الأخيرة بمايكناى ، وهو يعيد فحص المقبرة الأولى بعناية ، فوجدها خالية ، وبمزيد من الحفر وجد

www.ibtesama.com/vb

ثلاث جثث محنطة فى الأسوار الداخلية ، وكان واضحاً أنها دفعت بعيدا ، كى تفسح المكان لجثث أخرى ، ولكن كل أثر لهذه كان قد فقد ؛ ووجد مع الجثث بقية صغيرة من الكنز ، وكانت اثنتان منها تلبسان أقنعة من الذهب ، وإحداهما كان اللحم لايزال ملتصقاً بجمجمتها ، وعلى الرغم من ثقل الأنقاض ، فكانت تحمل قسمات واضحة ، وقد استبد الانفعال بشليمان إذ ظن أنه قد تعرف على وجه أجا ممنون .

كان وجها مستديرا لرجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، مازال محتفظاً بكل أسنانه سليمة تماما ، وكان يرتدى زردا واسعا من الذهب ، وقد تناثرت أوراق الشجر الذهبية فوق جبهته وصدره وفخذيه ، وعلى الوجه قناع مسطوح ، فرفع شليمان القناع إلى شفتيه وقبله ، ثم أبرق إلى الوزير فى أثينا قائلا :

« بالمقبرة الأخيرة ثلاث جثث ، واحدة عاطلة من الزينة ، أخطرت نوبليا لإرسال مصور لحفظ قسمات الميت ذى الوجه المستدير المماثل لصورة أجا ممنون التى كونتها منذ عهد بعيد » .

* * *

وتقاطر الناس من كافة أنحاء سهل أرجوس لمشاهدة جثمان بطل قديم حفظت قسمات وجهه بمعجزة ، واستدعى مصور من نوبليا لنقل صورته ، وظل شليمان يومين يراقبه وهو فى حمى من القلق ، متخوفا لئلا يتفتت الوجه إلى مسحوق قبل أن يتيسر تحنيطه ، ثم وصل أخصائى فى العقاقير من أرجوس ، فسكب عليه محلولا ، جعله صلبا متماسكا ، وبعد ذلك بوقت قصير نقل الجثمان فى انتصار لأثينا .

ولا تتيسر المقارنة بين الكنز الذى عثر عليه بالمقبرة الأولى ، وأكوام الذهب الهائلة التى وجدت بالمقبرة الرابعة ، فلم يترك لصوص المقابر هناك غير القليل المبعثر ، ولكن كانت هناك أقداح ودروع من الذهب ، وسيوف من البرونز بمقابض ذهبية ، وقد أحصى شليمان ثمانين سيفا ، معظمها رفيع مرهف ، وكان هناك

www.ibtesama.com/vb

اثنا عشر دبوسا للصدر من الذهب ، بعضها تمثل ظباء تطاردها السباع ، ووجد أيضا فأسا للقتال وحلية ذهبية للسيف ، كما وجدت أيضا أشرطة طويلة من الذهب مجدولة فوق إحدى جثث الأبطال ، ولكن أروع اكتشاف كان قناعا فاق فى جماله حتى تلك الأقنعة التى كان قد اكتشفها من قبل .

وهذا القناع الأخير ، الذى كاد أن يكون آخر شىء اكتشفه شليمان فى مايكناى ، يتميز بكمال لم يتوافر فى غيره ، ففيره من الأقنعة كان يتحدث عن الموت بقوة ، وكان من الأرض ، أرضيا ، أما هذا الأخير فيتحدث فى جلال رصين مصفى ، وفى قوة لا تقل شأنا ، ومرة أخرى لا تطالعنا صورة بل تمثال أو أيقونة للموت ، فليس ثمة وجه بشرى يشخص إلينا ، فبينما تعرض الأقنعة الأخرى الأبطال لحظة انحلالهم ، يعرض هذا القناع البطل فى اللحظة التى أعقبت تحوله إلى إله ، ففيه تبدو الرقة الوديعة دون أن يكون به أى أثر لما فى الأرض من ضروب القلق والاضطراب ، فالعينان الواسعتان مغلقتان ، والجفنان مخطوطان فى وضوح ، والشفتان الرقيقتان مطويتان فى بسمة غامضة ، وثمة أثر للحية ، والهدبان محزوزان فى ثقل ، ومعقوصان إلى أعلى ، فى محاكاة للشارب المتعالى ، ولكن الأثر الكلى للهدبين والشارب والبسمة هو إعطاء الوجه عمقا غريبا ، كما لو كان يرى ، وهو يومىء ، عند نهاية رواق طويل ، وقد عظمت قسماته وتضخمت ، فهو وجه يرقى إلى المقارنة بتماثيل الفسيفساء العظيمة للسيد المسيح ، فى دافنا (Daphne) ، وكيفالو (Cefalu) ، وباليرمو (Palermo) ، ومتصل بأعظم مآثر الفن القديم وأرفعها شأنا .

وكانت أكاليل طروادة وتيجان مايكناى وجميع أكوام كنوز الذهب الهائلة تتحدث عن شعب فظ همجى ، وتخبرنا زهرية المحاربين كيف كانوا يذهبون للحرب ، وتخبرنا الحلى الذهبية التى عثروا عليها كيف كانوا يزينون أنفسهم فى المناسبات السارة ، ولكن هذا القناع وحده هو الذى يحدثنا عن التوقير العميق الذى كانوا يقدمونه لآلهتهم .

www.ibtesama.com/vb

والآن تم العمل ، وبينما كان شليمان يتطلع حول الأجورا التى كانت تشبه خلية نحل محطمة ، بعد حفر مثل هذه الخنادق الكثيرة بها ، لم يكن يتوقع أن يجد كنوزا أخرى ، وكان قد وجد خمس مقابر وظن أنه حظى برؤية وجوه أجاممنون وكليتمنسترا والآخرين الذين اشتركوا فى مأساة الأبطال ، وفى يوم ما قرب أواخر نوفمبر أرسل برقية إلى ملك الهللينيين جاءت كما يلى :

« مع بالغ الابتهاج أخطر جلالتكم أننى اكتشفت المقابر التى عينتها الأساطير ، وفق ماردده بوسانياس ، بأنها مدافن أجاممنون ، وكساندرا ، ويوريميدون ، وجميع رفاقهم الذين قتلوا حين اشتراكهم فى مأدبة مع كليتمنسترا وعشيقها ايجيستوس ، وقد أحيطت بدائرة مزدوجة من الألواح الحجرية ، التى ما كانت لتشيد لو لم يكونوا من الشخصيات العظيمة الشأن ، وقد وجدت داخل المقابر كنوز هائلة من أقدم التحف المصنوعة من الذهب الخالص .

وستملأ هذه الكنوز وحدها متحفاً عظيما ، أعجب متحف فى العالم ، ولقرون مستقبلة سيتقاطر الأجانب على اليونان لرؤية هذه الكنوز ، وأنى لأعمل بدافع من الحب المجرد للعلم فحسب ، ومن ثمة فلا مأرب لى فى هذه الكنوز ، وأقدمها لليونان سليمة وفى حماس متأجج ، وأسأل الله أن يجعل هذه الكنوز حجر الزاوية فى ثروة قومية هائلة » .

* * *

وأحس مرارة من الرد الذى تسلمه من سكرتير الملك ،فقد كان رداً مقتضباً ، شكره فيه على كشوفه الهامة ، وغيرته ، وحبه للعلم ، وأضاف الملك أمله الكريم فى أن تتوج أعماله القادمة فى التنقيب بنجاح مماثل .

ولأول مرة عاد شليمان من تنقيبه صفر اليدين ، فكل شىء اكتشفه فى مايكناى أصبح ملكا للحكومة اليونانية ، وكان ستامتاكيس البغيض ، الذى

www.ibtesama.com/vb

ظل طويلا شوكة فى جنبه ، قد راح يعلن عن الاكتشافات ، وفى فزع أبرق شليمان إلى الحكومة يقول :

« حرموا النشر على ستامتاكيس ، فهذا حق ، لاحق الحكومة . »

ومرة أخرى راح يناطح الحكومات ، وتدخلت مدينة نوبليا فى النزاع مطالبة بأن تحتفظ بكل الكنوز لعرضها هناك . فهذا لصالح المدينة ، ثم أليست نوبليا منطقيا هى المالكة ؟ فثار شليمان فى خيمته ، وأبرق إلى كل الجمعيات العلمية ، واستعرض مجموعته الضخمة من الصور الفتوغرافية ، التى جمعها خلال قيامه بأعمال التنقيب ، ودون مذكراته ويومياته ، وكالعادة مال الألمان للزراية بمطالبه ، وأبدى الفرنسيون اهتماما قليلا ، ولم يشاركه تحمسه سوى الإنجليز .

وقضى فصل الشتاء فى أثينا ، وفى أحد أيام شهر يناير بعث بواحد من المساعدين ، الذين سبق أن استخدمهم فى مايكناى ، لعمل رسم تفصيلى للأجورا لأجل سجلاته ، وكان هذا المساعد ڤاسليوس دروسينوس ، مهندساً شابا ، سبق أن اشتغل معه فى غرف المقابر ، وقد تعرف — بالقرب من منزل جنوبى الأجورا كان قد اكتشف جزء منه — على بعض أحجار منحوتة دون صقل ، تماثل الأحجار التى بغرفة القبر ، فناقش دروسينوس الأمر مع ستامتاكيس ، الذى كان قد عاد إلى مايكناى فى ذلك اليوم ، فاستحضر عامل بفأس إلى هذه البقعة ، ومع ضربة الفأس الأولى أو الثانية ، خرج للضوء قدح من الذهب ، وفى أقل من نصف ساعة كان هناك كنز صغير مؤلف من أربعة أقداح ذهبية ، كلها ذات مقابض لطيفة على هيئة رأس الكلب ، وقدح مسطوح خال من الزينة ، وعدد من الخواتم المصاغة من أسلاك ذهبية ، وخاتمين من الذهب ، واحد منهما عليه بعض رءوس الحيوانات وسنابل القمح ، كلها مختلطة معا ، ولم يستطع أحد قط أن يدرك مايعنيه ؛ وكان الخاتم الثانى آية فى الفن .

ونحن نعرفه الآن باعتباره خاتم الإلاهة الأم ، وهو يشير ؛ كالقناع الذهبى

www.ibtesama.com/vb

الذى وجد فى المقبرة الأولى ، إلى عمق غير مرتقب لشعور دينى بين أهالى مايكناى، فثمة حفل دينى مقام . هو أبسط الحفلات جميعاً — قربان للآلهة — فليس هناك معابد ولا مذابح ولا حجاب ولا طقوس ، وفى صمت يقدمون قرابينهم ، ويبدو أن الفنان التقط صورة الممثلين بالحفل فى لحظة عابرة مليئة بالمعنى .

وتجلس الإلهة تحت الشجرة المقدسة ، وفى شعرها أزهار ، وفى يديها مزيد من الأزهار ، وهى تتسلم تقدمة من الأزهار ، من امرأتين باديتى النبل لعلهما كاهنتان ، وتقف إحدى وصيفات الملكة أمامها ، وقد راحت تقدم إليها هاتين المتعبدتين ؛ بينما تعتلى وصيفة أخرى مهرما صغيراً من الأحجار ، وتقطف الفاكهة المقدسة من الشجرة ، وتقدمها إلى سيدتها الإلهية ، وكن جميعاً يرتدين السراويل المزدوجة المزركشة الرائعة التطريز ، التى كانت تتميز بها حضارة مايكناى خلال عصر الأبطال ، وكن جميعهن عاريات الصدر مثل الإلهة الأم ، ويزين رءوسهن بالأزهار وغيرها من ضروب الزينة .

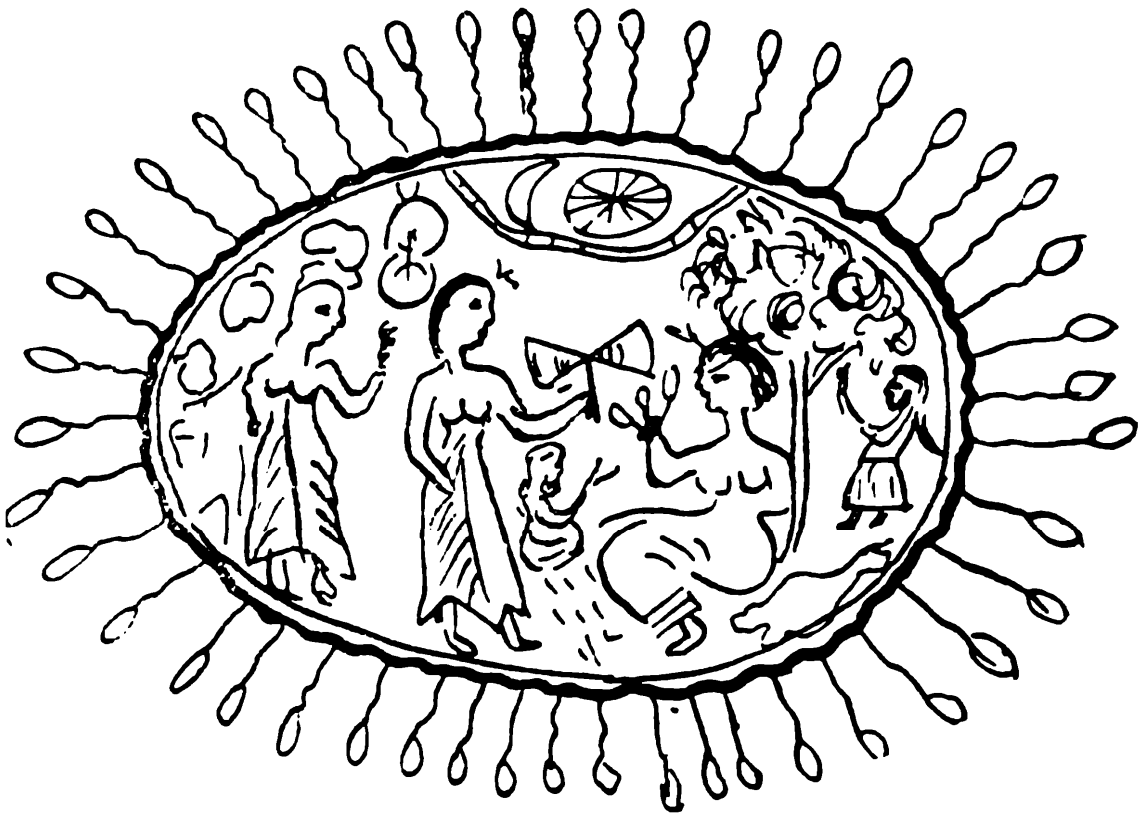

وبين أولى المتعبدات والإلهة انتصب فأسان مزدوجان ، الأصغر يعلو

www.ibtesama.com/vb

الأكبر ، ولعل هذه الفئوس تمثل القوى الروحية والأرضية ؛ وخلف شعار القوى الغريب المذكور ، تسبح إلاهة على رأسها خوذة ، وتمتشق حربة ، وتختفى وراء درع على هيئة الرقم (8) اللاتينى ، وهذه أول صورة عرفناها لإلاهة مسلحة — ومن فوق هذا المنظر تشرق الشمس فى كامل بهائها إلى جانب الهلال: فالوقت حالا ظهر وليل بهيم .

ولكن أعظم ما يسترعى النظر فيما يتعلق بهذا الخاتم هو ما تتميز به أولئك المشتركات فى تقديم القرابين ، من هدوء ورصانة واتزان ، فما كان فى الاستطاعة نقش مثل هذا الخاتم إلا فى لحظة من الثقة بالنفس ، والخاتم صغير جداً ، لا يكاد يزيد قطره على بوصة واحدة ، ولكن الفنان سكب فيه المعرفة المتراكمة خلال قرون من التأمل الدينى ، وتتدفق قوة السموات فى حلقات من الضوء ، وتنبثق قوة من الإلاهة وهى تستجم فى غارها المقدس ، وخلت وقفة الكاهنتين من الخنوع ، فقد قدمتا إليها كما لو كان هذا حقهن ، وراحتا تقدمان القرابين فى وقار بدافع من حبهما للالاهة ، وقد تسامقتا فوقها ، فى غير ذلة كما هو الحال فى الصور المصرية التى تمثل تقديم القرابين للآلهة ، فثمة وقار بشرى يكتنفهما ، وفى غمرة من ضوء الشمس والقمر ، تقفان وتتحركان وفقاً لإرادتهما الخاصة .

ولا نستطيع أن نأمل فى إدراك كل المعنى الذى يربض وراء نقوش الخاتم ، فمثلا نحن لا نعرف المعنى الذى نستطيع أن تفصح عنه تلك الأشياء الستة الغريبة التى تزين الجانب المواجه للشجرة ؛ فقد تكون أقنعة ذهبية أو جماجم أو خوذات أو أزهار مقدسة ، أو لعلها مجرد زينات لتوفير التوازن مع الشجرة بثمارها الكثيرة ، وما من أحد يعرف نوع الشجرة المعروضة ، أما شليمان فقد قام بدراسة الخاتم من الصور الفتوغرافية التى حصل عليها بصعوبة من ستامتاكيس ، ومن ثمة صرح بأنها شجرة أناناس أو شجرة خبز مثل التى شاهدها فى أمريكا الوسطى وفى ظنه أن النساء يرتدين أقنعة حديدية ، وقد أذهلته تقاطيعهن المذكرة ، وقد لاحظ أن شرائط سراويلهن المتوازية المنحنية تعكس الأشكال الهلالية التى ترى فى كل مكان من الخاتم ، ولأمر ما زعم أن الخطوط المتموجة التى تحت الشمس والقمر ،

www.ibtesama.com/vb

تمثل البحر ، وإن كان الأقرب إلى الاحتمال أنها تمثل حلقات من النور السماوى أو من المجرة .

وفى الإلياذة يصف هوميروس كيف أن هفاستوس (Hephaestus) صنع لأخيليس درعا عظيما ذا خمس صفائح ، الأولى تمثل « الأرض والسماء والبحر ، والشمس التى لاتكل ، والقمر وهو بدر وجميع الصور السماوية » وحين شاهد سليمان الخاتم لأول مرة ، وصوفيا إلى جانبه ، صاح قائلا : « لابد أن هوميروس قد رآه حين وصف كل العجائب التى نقشها هفاستوس على درع أخيليس » وكان من دواعى حزنه الشديد أنه لم يكتشف الخاتم ، ولكنه تعزى إذ رأى أنه كان من المحتمل أن يظل مطموراً لو لم يرسل مساعده إلى مايكناى .

وانتهى العمل فى مايكناى ، فلم يعد سليمان إليها قط ، لشعوره أنه قد أنجز عمله ، وفى ثمانية أسابيع وضع كتابا عن الأشياء التى عثر عليها ، ثم شرع فى ترجمته إلى الفرنسية والإنجليزية ، وبعد ذلك كتب إلى جلادستون يطلب إليه أن يوليه شرف وضع مقدمة لمؤلفه من رجل السياسة الإنجليزية المسن العظيم ، ولكن جلادستون ، وهو أحد دارسى أدب هوميروس الممتازين كان نافرا من القيام بهذه المهمة ، خشية إساءة تأويل ثنائه . وفى الصيف زار سليمان لندن ، حاملا معه كنز طروادة ، الذى عرض فى متحف كنزنجتون الجنوبية ، ولم يكن سليمان مقتنعا تماما أن هـذا هو كنز طروادة ، ولكن معارف سليمان بهرته ، وأخيراً وضع مقدمة حافلة من أربعين صفحة تقريباً .

وخلب خاتم الإلاهة الأم بنوع خاص لب جلاد ستون ، وقد ناقش نفسه فيما إذا كانت الأشياء الستة ، التى على جانب الخاتم نجوما أو رءوس سباع ، وألمح إلى أن الحزمة المتموجة أسفل الشمس والقمر تمثل الأرض الأم « بسطحها غير المستوى من النابسة والبحر المتموج » وكان يميل إلى الاعتقاد أن الجثة التى وجدت فى المقبرة الأولى هى جثمان أجا ممنون ، فسلامة التقاطيع واحتفاظها يوحى بأن الجثمان كان قد حنط ، وهذا لايحدث إلا مع شخصية عظيمة الشأن جداً ،

www.ibtesama.com/vb

وتذكر الإلياذة أن أجا ممنون كان يصحبه دائماً اثنان من المنادين الكهان ، وهما دون شك صاحبا الجثتين الأخرين اللتين وجدتا بالمقبرة .

وامتلأ شليمان فخراً بما ناله فى لندن من ضروب التكريم ، وتناول العشاء مع جلادستون ، وأمطر صوفيا بسيل من البرقيات ، وكانت مريضة فى أثينا ، ولكنه لم يكن ليستطيع قط أن يتحمل غيابها طويلا ، وأخيراً حين طلب أعضاء جمعية الآثار الملكية أن تخطب فيهم ، حضرت على عجل من أثينا ، ووقفت إلى جانب زوجها على المنصة ، وراحت تروى لهم كيف ظلت خمسة وعشرين يوما راكعة على ركبتيها بين المقابر ، وهى تزيل باعتناء عن جثث ملوك وملكات مايكناى القدامى ، طبقات صفيقة من الطفل ، وخطبت بالإنجليزية فى بساطة بالغة قوبلت بحماس شديد ، وابتسم شليمان موافقاً ، فهو الذى دبج الخطابة وابتهج لأنها ألقتها دون تلعثم ، وازدادت بهجته لحملها ابنه آنذاك ، وكان قد ولد فى أواخر ذلك العام ، وكان قبل ذلك قد تخير الاسم الذى سيطلقه على ابنه — أجا ممنون .

وللشهرة عواقبها الوخيمة ، والإغواء بالاستكانة إلى أكاليل الغار ليس أقلها سوءاً ، فقد قضى شليمان ثمانية عشر شهراً مستدفئاً فى شمس شهرته النامية دون عمل ما ، ولم يعد لوضع مجرفة فى الأرض حتى صيف عام ١٨٧٨ .

وإذ كان لايزال يبحث عن الكنوز ظن أن فى استطاعته أن يعثر عليها فى ايثاكا بقصر أوديسيوس العظيم ، وقضى أسبوعين من شهر يوليو يحفر بين الأسوار الهائلة عند قمة جبل ايتيوس ، وعلى الرغم من عثوره على خرائب مائة وتسعين منزلا ، لم يجد سوى القليل مما يستحق القيمة ، ومن ثمة أوقف أعمال التنقيب .

واستدعته طروادة — طروادة التى لاقى فيها هزائم كثيرة من تركيا ونجاحا كبيراً — ومرة أخرى راح يستخدم كافة مواهبه للحصول على فرمان ، ولم يكن هذه المرة وحيداً ، فقد أصبح جلادستون مشجعا لأعمال التنقيب فى طروادة ، ومن ثمة ظهر عظم نفوذه فى القسطنطينية ، حيث عين أوستن لايارد ،

www.ibtesama.com/vb

مكتشف مدينة نينوى (Nineveh) ، سفيراً لبريطانيا ، فمنحه الأتراك « فرماناً » ولكنهم حرصوا فأرسلوا مندوبا خاصاً وعشرا من رجال الشرطة للاشراف على أعمال التنقيب .

وهذه هى رحلة شليمان السادسة إلى هيسارليك ، وقد بدأ العمل فى سبتمبر ، ولمدة شهرين تقريباً لم يتم اكتشاف أى شىء ذا قيمة ، ولكن طالعه كان مجدوداً ، ففى الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٨٧٨ ، وفى حضور بعض ضباط الأسطول البريطانى ، اكتشف فى الشمال الشرقى من قصر بريام ، على كثب من المكان الذى سبق أن وجد فيه كنز طروادة الأول ، كنزاً صغيراً من عشرين قرطاً ذهبياً ، وعدداً من الخواتم المضفورة الذهبية ، وأسورتين ثقيلتين من الكهرمان ، وأحد عشر قرطاً من الفضة ، ومائة وثمانية وخمسين خاتماً من الفضة ، وعددا كبيراً من المسابح الذهبية ، وبعد ذلك بأيام قلائل عثر على كنز أقل شأناً ، مكون من قضبان وحبات ذهبية ، وأسورة ذهبية وخنجر من الفضة ، وفى السادس والعشرين من نوفمبر توقف العمل ؛ وصرح لشليمان ، فى هذه المرة ، أن يحتفظ فقط بثلث الكنز الذى اكتشفه ، والباقى استولى عليه المتحف الإمبراطورى بالقسطنطينية .

وجاء ختام حظه ، الذى ظل متألقاً ، فى الربيع التالى ، حين استأنف الحفر ، بمساعدة إميل بيرنوف ورودلف فرتشو ، ووصل شليمان فى فبراير إلى طروادة ، وكانت خطته أن يكشف عن سور مدينة طروادة ، ويضع خريطة وافية لطروادة كما صورها هوميروس ، وفى أبريل اكتشف مخبأين صغيرين لكنز مكون من أقراص ذهبية وسلاسل وأقراط وأساور ، ولم يعثر قط على أى كنز آخر ، وكان هوميروس قد ذكر أن هناك ثلاث مدن غنية بالذهب — طروادة ومايكناى وأورخومينوس ، وكانت مدينة عظيمة فى بويوتيا Boeotia يوما ما — وكان أمل شليمان أن يتوج فى العام التالى مآثره بكنز أورخومينوس

www.ibtesama.com/vb

الذهبى ، ولـكن على الرغم من حفره للمقابر الشبيهة بخلية النحل وتخطيطه لأسوار المدينة القديمة ، فقد كانت النتائج مخيبة للآمال .

لقد انقضت الأعوام التى حالفه فيها الحظ ، وقدر له أن يظل طوال السنوات العشر الأخيرة من حياته هائماً على وجه ، يذرع وجه الأرض ، مؤملا فى كل حين أن يقع على آثار ذهب ، باحثا عنه دون هوادة ، كما لو كان يجذبه ضرب من القوة الداخلية ، ولـكنه لايجده قط ، وزال السحر القديم ، وكان يتسم باشتياق الطفل ولهفة المراهق ، ولـكن فى إهاب متجعد لرجل طاعن فى السن ، ولابد أن يجد الجذور فى مـكان ما ، وهـكذا أخيراً ، استقر منه الرأى ، بعد أن تصالح مع أثينا ، على أن يشيد منزلا جديرا بقدره فى قلب المدينة .

وصمم المنزل بنفسه على نمط القصور التى قد كشف عنها فى طروادة ومايـكناى ، وسماه « قصر طروادة » ، ويقع فى « شارع الجامعة » عند سفح جبل ليـكابيتوس (Lecabettus) المطل على الاسطبلات الملـكية ، وهو منزل ضخم قارس البرودة ، وله درجات من الرخام وأسقف من الفسيفساء ، مرسوم عليها الأقداح الذهبية والزهريات التى اكتشفها فى طروادة ، وتمتد على طول الحوائط أفاريز مزينة بمناظر من الأدب اليونانى القديم وصور الأبطال اليونانيين مقرونه بأقوال مأثورة من ملاحم هوميروس .

وعرض كنزه فى الأدوار السفلى ، وفى الدور الأعلى كان مـكتبه الخاص ، وعلى بابه هذه العبارة : « كل من لايدرسون الهندسة يبقون فى الخارج » وكان المـكتب مـكتظاً بالـكتب ، كما كان به بعض التحف الثمينة التى كان قد جمعها ، وعلى الحوائط كانت مناظر هادئة من نيويورك وإنديانابوليس ، وهما مدينتان نالتا إعجابه بصفة خاصة ، وكان يجلس أياما برمتها ، فى مقعد ذى مسندين ، معنى بتنجيدة ، يدرس الآداب اليونانية القديمة ، بينما كان المقعد الصغير الذى بجانبه ، مـكدساً بقوائم عالية من قوائم بورصة العقود ، التى كانت تصل إليه

www.ibtesama.com/vb

كل صباح من باريس ولندن وبرلين ، وكان الاتصال البرق دائماً فى متناول يده ، فهو ما زال رجل أعمال ، وكان عليه أن يقضى بضع ساعات كل يوم فى تصريف شئونه المالية التى امتدت إلى جميع أنحاء العالم .

وكان سلوكه فى منزله يتسم بالاستبداد كأى أمير هوميروسى ، فكلمته كانت قانونا لاينقض ، وكانت جميع مكاتباته ترسل باللغة اليونانية القديمة ، وهى اللغة التى كانت تستخدم بين علية القوم على مائدته ، وأعاد تسمية جميع خدمه ، فسمى البواب بليروفون ، ورئيس القلعة تلامون ، ومربية ابنته أندروماخا سماها داناى ، ومرضعة أجا ممنون بوليكسينا ، والبستانى الشيخ كالخاس (Calchas) ، وهو اسم العراف الذى يفتتح الألياذة بلعناته ، ولأن اليونانيين القدماء استخدموا أثاثا قليلا ، فقد حذا حذوهم ، ولم يكن هناك سوى القليل من المقاعد والأرائك منزوية فى أركان الغرف العارية المعرضة لتيارات الهواء ، ورفض استخدام الستائر ، إذ لم يرد على خاطره قط أن يقيم أخيليس فى منزل به ستائر ، وكانت خرائب بومبيا تخلب لبه بصفة خاصة ، وهكذا فى هذا المنزل العظيم المشيد على طراز قصور بلاد اليونان القديمة ، بنى ساحة للرقص على طراز مقاف بومبيا القديمة ، وأحاط سورها بإفريز من الملاط الأبيض والأزرق ، وكان الملاط مصوغا على هيئة أناس كان قد عرفهم أو قابلهم خلال أسفاره ، وكانت من بينها صورة لشليمان بنظاراته ذات الإطار المصنوع من قرن الحيوان .

وفوق سقف المنزل السطح المواجه لأربعة أركان السماء؛ انتصبت تماثيل رخامية لأربعة وعشرين إلهاً ، بينهم زيوس وأفروديتا وأبوللو وأثينا ، تقوم على حمايته وتشجيعه خلال أعوام الانحلال من حياته .

www.ibtesama.com/vb

الأبطـــال

وكان شليمان يطالع ، خلال الأربعة والثلاثين عاما الأخيرة من حياته ، الإلياذة بافتتان ، فهى توراته ، الـكتاب الذى يرجع إليه ويستوحيه كل ساعات النهار ، والنبع الذى يستقى منه تقريبا جميع الأفـكار التى تخطر على نفسه ، وما كان ليؤثر منه شطرا على آخر ، وكانت مكتبته حافلة بكل طبعات الـكتب التى فى متناول اليد ، وكان عدد كبير منها فى ملازم مجلدة بالجلد المراكشى الغليظ ، ولـكن كان معها أيضا طبعات توكنتز الرخيصة المجلدة بالورق ، التى كان يحملها فى أسفاره ويملؤها بالهوامش ، ومرة حين كتب مراسل أنه وجد الإلياذة مليئة بالصعوبات ، أجاب شليمان بأنه على العكس وجدها صافية شفافة كينابيع كاستليا ، فليس ثمة صعوبات بها على الإطلاق ، وفى استطاعة أى شخص متمتع بكامل قواه العقلية ، أن يطالعها كما يطالع قصة عصرية ، فعند شليمان كانت كل من الإلياذة والأوديسا من الأسفار المقدسة ، التى باركتها الآلهة ، والتى دونت بنبالة وروعة ، لا تـكاد تصل إليهما مقدرة البشر ، فلو أن إنسانا جلس ليطالع هذه الأسفار باهتمام ، لتوافر له الامتلاء والابتهاج ، ولاستعرض فيها مأساة الإنسان فى جلاء ، فهنا قصة تتسم بالـكمال ، يسوقها شاعر كامل أصيل ، وليس ثمة ضرورة للذهاب وراء ذلك .

وقد احتج شليمان أكثر من مرة بأنه من المستحيل إيثار أى شطر من الإلياذة عن الآخر ، ولـكنه خالف قاعدته فى مناسبة واحدة ، فقال إن أكثر فصولها روعة ورد بالسفر الثالث : قصة هلن وهى تنهض وقد توقفت عن التطريز — كانت تقوم بتطريز نوع من الطنافس يظهر الطروادين والأخائيين وقد استحر بينهما القتال — وأخذت طريقها صوب باب سكاى ، وهناك على باب أحد الأبراج المطلة على سهل بريام ، حيث احتشد شيوخ المدينة « كحشرات زيز الحصاد ، قد استقرت فوق الأشجار وراحت تصدح فى ابتهاج » .

www.ibtesama.com/vb

وجاء نبأ بأن الحرب سيخمد أوارها ، وأنه عوضا عن الحرب سيتبارز منلوس وباويس ، زوجها ومغتصبها ، وأن مصيرها ستحسمه نتيجة المبارزة ، واقتربت من البرج وقد وضعت على وجهها نقابا أبيض وبرفقتها إحدى وصيفاتها ، فخفض الشيوخ حين رأوها قدمة ، وقد بهرهم جمالها وأسعدهم ظهور حل للمعركة الطويلة الناشبة ، وأخلى لها بريام مكانا إلى جانبه ، وراح يسألها عن العدد قائلا : « من هذا الرجل ، الذى يعلو قامة عن الآخرين ، والذى يكتنفه جو من الهيبة والجلال » ؟

فأجابته بأنه أجا ممنون شقيق زوجها الأكبر ، ثم سألها عن رجل عميق الصدر ، أصغر بدنا ، ترك درعه ملقى على الأرض ، فأجابت : « إنه أوديسيوس » وثمة رجل ثالث فارع العود بديع القسمات ، قالت عنه : « هذا هو أجاكس » ، ثم تتعرف على ايدومنيوس ، ملك كريت ، ألطف ضباط أجا ممنون ، ولكنها لا تستطيع رؤية شقيقيها كاستور وبوليديوكس (Polydeuces) ، أحدهما مذلل شهير للجياد ، والآخر ملاكم ذائع الصيت ، وشخصت إليهم ، وفى صمتها ترسبت كل وحشة الأسى ، فهى لا تعرف شيئا عما حدث لهم ، ولكنها ترتاب متوقعة أسوأ الأمور ، ويعلق هوميروس قائلا :

كانت الأرض المثمر قد وضعتهم فعلا فى حجرها .

بمكان قصى فى لكيديمون ، الإقليم الذى أحبوه .

* * *

وهناك سبعة أو ثمانية فصول أخرى من هوميروس ، يلج فيها الأسى بمثل هذا التجرد أو يكاد ، فالأسى ـ الأسى على ما هو مقدر للانسان ـ هو موضوع القصة الرئيسى ، فهوميروس يعلن منذ البداءة أن محور كتابته هو غضب أخيليس ، والدمار الذى سيخلفه ، مؤديا إلى موت الكثيرين من الرجال الطيبين ، فثمة قوة متفجرة ، تتعلق بالموت ، تنطلق عارمة من محبسها ، ونحن نرقبه فى أنفاس مبهورة ،

www.ibtesama.com/vb

وقد راح يحطم كل شيء فى طريقه ، ويتمارك مع كل من هم حواليه ، ولا يهدأ له بال قط حتى يقضى على أعدائه ، وليس هذا فحسب ، بل ويمثل بجثة هكتور ، ويشوهها فلا يتعرف عليها أحد ، حتى إنه أخيرا حين سلم جثمان الملك بريام ، لم يكن قد تبقى شيء بشرى أو شبيه بالآلهة فى منظر البطل الشاب ـ فبريام أصبح لا يزيد على ذبابة مهروسة .

وإن أخيليس لبطل ، ولكنه بطل يعشق الموت ، وأولئك الذين أنصتوا للقصة كانوا قوما يعشقون الحياة ، وكان يدهشهم التدمير الذى تقوم به الآلهة وهم الذين صنعوا الأرض بهذا الحسن وملئوها سخرية حزينة ، فالزرد المتألق ، والنظرات الجريئة ، وأجسام البشر الملونة ، والرقص والآلهة ـ جميعها تنتهى بالدموع ـ فالإلياذة ، بمعنى ما ، لا تزيد على أن تكون صلاة طويلة على المصائر الحزينة التى ختم بها شباب الأبطال حياتهم .

وفى ثنايا الإلياذة برمتها تدوى صرخة الألم ، لم يتحتم حدوث هذه الأشياء ؟ لماذا يصر اليونانيون على التخريب ؟ أى سرور يستخلصونه منه ؟ ومنذ البداية نعلم أن هكتور لابد سيسحب من عقبيه حول أسوار طروادة ، وأن أخيليس سينتصر ، وأن هلن ، فى أثوابها البيضاء اللامعة ، ستجتاز القصة كأنها الشبح ، دائما جميلة صعبة المنال ، وتعيش فى فزع من جمالها الخاص ، وفى سبيل هذا الشبح شن البشر هذه الحرب ، وفى سبيله لاقوا حتفهم ، فموت الرجال أمر لا مناص منه ، وبكاء النساء أمر لا مناص منه ، وإراقة الدماء أمر لا مناص منه ، وكل هذا عبث لاطائل منه ، فثمة مصير قاتم غير أصيل يخيم على كل شيء .

أما أن الحياة باطلة ومن ثمة لا معنى لها فهذا أمر كان هوميروس يعرفه جد المعرفة ، كذلك كان هوميروس يعرف القتال ، وهو لم يقاتل فى حروب طروادة ، ولكنه عرف انفعالات المعارك الصغيرة ، ومنظر الجثث حين كانت ملقية فى العراء ، وعرف الفقر والمسغبة ، إذ بدون ذلك ما وجد مثل هذه المتعة فى وصف الولائم ، وملابس الرجال الأبطال المطرزة ، وتقرر القصص المتواترة أنه كان ضريرا ،

www.ibtesama.com/vb

وهذا يتفق مع تنويهه الدائم بتألق الأشياء ، وأنه كان من أهالى جزائر إيجه ، وهذا يتفق مع شعوره الغريب بالوحدة والانعزال ، ذلك لأن عواطفه لم تكن مع اليونانيين أو الطرواديين ، إنما مع فرادى الكائنات البشرية الذين وقعوا بين براثن تلك الحرب الهوجاء الضروس .

ويبرز ثلاثة أشخاص فى بهاء هائل ، أخيليس المشاغب ، وأوديسيوس الماكر ، الذى حاكى كثيرا من طبائع أخيليس فى الفصول المرعبة الأخيرة من الأوديسة ، وهكتور المحتوم المصير ، الذى يظل البطل الخاص فى الملحمة الحماسية ، كما أن أخيليس هو البطل العام ، وتكاد جميع الفقار الخالصة الرقيقة أن تكون متعلقة بهكتور ، وهو يكاد أن يكون «هملت» ، فهو الرجل الذى اقتنصه العنكبوت وهو فى نسيجه ، وراح يرقب مصيره فى صبر نافد ، محاولا الفكاك ، مؤملا فى الفرار ، غارقا فى الأحلام ومتنصلا منها ، متذكرا طفولته ، مدركا أكثر من أى شخص آخر لعدم بقاء الحياة وزوالها ، وللتبعات الفظيعة التى يحملها ، وهو يخاطب زوجته فى مساء المعركة المشئومة قائلا :

سيأتى اليوم ، وروحى تعرف أنه آت ،
حين تصبح مدينتنا المقدسة طروادة أطلالا ،
طروادة والملك الباسل وشعب الملك معه ،
وأنا غير متأثر كثيرا بأحزان الطرواديين —
سيأتى الحزن — حزن هكوبا ، وحزن أبى ،
حزن الكثيرين من القوم الأخيار ، وهم يتوسدون
الثرى المخضب بالدماء ، تحت أقدام الأعداء .
أفكر فى موتك ، وعندئذ يهتصرنى حزنك ،
وأحزن لفكرة حملك بعيدا ، وأنت تبكين

www.ibtesama.com/vb

بأيدى الأعداء ، ذوى اللباس البروزى لرق أكيد .
سيجعلونك تديرين مغزل أحد الناس بأرجوس
أو تحملين الجرار بقرية نائية فى مكان ما ،
دون اكتراث قط لإرادتك ، لأنك أسيرة .
وحين يرونك تبكين ، سوف يقولون :
« تطلعوا إلى زوجة هكتور ، القائد العظيم ،
لفرسان طروادة ، حين قاتلوا عن مدينتهم . »
وعندما تسمعينهم سوف يزداد أوار حزنك ،
لعدم وجود رجل مثلى يحررك من الرق .
آه ، دعينى أموت ، أو دعى الثرى ينهال فوق
قبل أن أسمعك تبكين أو تصفين كيف استعبدوك .

* * *

هكذا تكلم ذو البريق ، ومد ذراعيه لولده ،
ولكن الصبى صاح يستنجد مرضعته ذات الحزام الجميل ـ
افزعه من لمعة السلاح ، وعرف الخوذة من شعر الخيل .
وعلى حين بغتة راح الأب والأم يضحكان ،
ونحى هكتور المتألق خوذته بعيدا ،
ووضعها تتوهج على الأرض ، وأمسك براحتيه
ابنه الحبيب ، وراح يقبله ويهدهده بين ذراعيه .

* * *

www.ibtesama.com/vb

وما من أحد يستطيع أن يكتب مثل هذه المناظر المتسمة بالحدة النفاذة غير المحتملة ، دون أن يهزه التأثر بالشخصية التى ابتدعها ، وهناك وجه للقول بأن الإلياذة هى اعتذار هكتور ، فهو يتحدث مسترسلا خلالها ، وصوته هو الذى نسمعه ، تارة يصيح متحدياً ، وأخرى يهتز حنقاً ، وطوراً يكون هادئاً متزناً ، واضح النبرات إلى أقصى حد ، وهو يقول : « لقد حدثت هذه الأمور ، فهذا المصير حل بنا ، ولقد قاتلنا مقاتلينا صامدين ، وانتزعنا ، من كل دقيقة عابرة ، تلك البهجة القليلة التى تخلفت لنا . » وهذا رد عصرى غريب ، ونحن إذ نطالع هوميروس نجد أنفسنا دائما نواجه عالما عصريا غريبا .

ونحن نعرف أخيليس جد المعرفة ، فهو يمثل المارد الفوضوى العنيف الذى يربض فى أعماق الروح البشرية ، وهو يقتل لمجرد ولعه بالقتيل ، مستهيناً بالأخطار ، واثقا فقط من بركات التخريب والدمار ، والقول بأنه قاس منتقم لا يرحم يقلل من شأن صحوه الرهيب ، فهو يقتل بلا هدف ، كما يقتل صيادو الوحوش ، وهو لا يراوده أى شعور بالذنب ، ولا يكترث إطلاقا للشيوخ أو الأحداث ، وحين يقع على الطفل ليكاءون (Lyeaon) ، صائحاً « الموت للجميع ! » ويسخر بالطفل الذى يلتمس منه الإبقاء على حياته ، يحس نفس البهجة التى يشعر بها حين يقاتل هكتور ، عالما أن الآلهة ستحمى حياته من كل سوء ، وحين يقول أوديسيوس ليومايوس (Eumaeus) بالأوديسا « كان مبحث ابتهاجى هو السفن والقتال والمزارق والسهام — الأشياء التى تجعل الرجال يقشعرون للتفكير فيها » نسمع ثانية نبرات أخيليس الطبيعية غير المتكلفة ، فهو عزمى لا يطلب العفو ، وهو يحتقر العالم ، وهو راض بأن يتنازل عن كل امتيازاته فى سبيل ابتهاجه بتدمير العالم ، فأخيليس لم يشترك فى حرب طروادة لإنقاذ هلن : لقد ذهب للحرب لأنه أراد أن يقتل ، ولأنه أراد أن يرى طروادة بأكملها وقد استحالت رمادا ولهيبا .

وكما نعرف أخيليس ، كذلك نعرف أوديسيوس ، « المقاتل المحترف » الرجل

www.ibtesama.com/vb

الذى لا يهتم كثيراً بالآلهة ، ولكنه يعتمد على قوته الوحشية ، وهو الجندى القدير « شويك » ترقى لمرتبة القائد ، وكان جندياً ممتازا ، وأرقى بحار من الهواة ، إذ كيف ، لو لم يكن كذلك ، قضى مثل هذا الوقت الطويل فى القيام بالرحلة الطويلة نسبياً من الدردنيل إلى إيثاكا ؟

ونعرف هكتور أكثر من الجميع ، فهو الوحيد الذى لا يسحره ساحر ولا تجوز فيه تعاويذ ، وآخر من انحدر من سلالته هما هملت وأمير اكويتين ، ويلبس هكتور وجه عصرنا الخاص ، فهو يتحدى العرافة ، وسيصنع كل ما فى طاقة البشر للافلات من مصيره المحتوم ، ولكنه يعلم أنه لا مفر منه ، وهو سيسلك فى كل الأوقات بنبالة أصيلة ، ولكنه يعرف أن الشرف لن يكسب أية حروب ، وعلى وجهه ، كما يقول هوميروس ، غبرة الغسق ، « فلا أحد غير الآلهة كان يستطيع لقاءه وصده إذا وثب مقتحماً الباب » وهكذا أخيراً طعن فى عنقه ، وجرد من زرده ، وسحل فوق الثرى ، وذلك لأن الآلهة ساعدت خصمه وتخلت عنه ، وكل هذا كان معروفاً لديه منذ البداية .

وفى كل عصر يقرأ الناس هوميروس ، ولكنه لم يقرأ قط بمثل هذه الوفرة وهذا الاهتمام كما هو الحال فى العصر الحاضر ، فهو يمسك بالمرآة أمام الطبيعة ، والعالم الذى يصفه هو عالم اليوم ، ذلك لقلة ماحدث من تغيير خلال القرون الثلاثين منذ حريق طروادة ، فالنيران تندلع ، والمحاصرون يقومون بمحاولاتهم اليائسة للخروج ، وفى كل مكان يمكن سماع صرخات من أخذتهم الصيحة ، وجميعنا طرواديون ، وهوميروس الضرير المتجول بين الجزائر القديمة يصف حالتنا الراهنة فى تألق بالغ : إن مجمل الأمر هو أنه ما من أحد آخر وصف قط حالة البشر بمثل هذه الروعة والجلال .

وحين توجه شليمان للبحث عن طروادة ، كان يبحث أيضاً عن منبع الحضارة الغربية ، فهو أيضاً كان ذا مزاج عصرى ، إذ كان قلقاً ، مضطربا ، يتنقل

www.ibtesama.com/vb

بين الظلال والأشباح ، وكان موصوما بكثير من رذائل الفكتوريين ، ولكنه كان يملك أيضاً ، إلى حد غير مألوف قط ، العزم على النفاذ من زخارف المدينة الصاخبة المحيطة به ، وإذ لم يكن له جذور ، فقد التزم بأن يفتش عن جذور حتى فى أغوار الماضى السحيق ، فى أمكنة خالية من معالم للطريق ، وعلى السائرين أن يأخذوا حذرهم عند المسير .

وكانت له طريقة عصرية خالصة نحو الدارسين الذين يقنعون بتكوين نظرياتهم دون ملاحظة الأدلة والشواهد ، فلزام عليه أن يتلمس الدليل ويبرزه إلى النور ، وأن يبرهن بما لا يدع مجالا للخلاف ، أن هوميروس وجد وكتب عن المعارك التى ما زالت تحتدم فى حوافظ البشر ، وعندما تخطى هذا ، وحاول أن يبرهن أنه شاهد وجه جثمان أجا ممنون وعلق تاج هلن على جبهة زوجته ، قوبل بضحكات السخرية والاستهزاء ، ولكن فى القليل ، من المحتمل أن يكون هناك ما يبرر زعمه ، وكانت ميزته العظمى تتجلى فى تجسيده لما يسوقه هوميروس من وقائع خيالية ، وإعطائها مادة أكثر مما كان لها فى يوم من الأيام ، ولم يكتشف كتابات سوى شذرات عجلى قليلة فى طروادة ، ولكن جميع اكتشافاته كانت من ضروب أشعار هوميروس ، استخرجت فجأة من باطن الأرض وبسطت أمام عالم لا يؤمن أو يصدق ، لقد وجد مصدر النبع ، ولم تكن ثمة حاجة للذهاب إلى ماورائه .

ونحن لا نعلم . حتى هذا اليوم ، ماذا حدث فى طروادة ، ولماذا وقعت المعركة ، ولا نعلم ما إذا كان هوميروس قام بزيارة الترود فى يوم ما ، ولكن قصة سقوط طروادة تبرز لنا بكثير من التفصيلات الطبيعية الأصيلة حتى لم يعد فى الاستطاعة الشك فى الخطوط الرئيسية ، وأعاد هوميروس تشكيل أبطاله ، مكبراً لهم ومشوهاً إياهم ، وفق أغراضه ، كما يفعل الشعراء ، وقد أقحم عواطفه فى أغوار صورته عن هكتور ، وكان يعتقد أن الحرب قد شنت بسبب اغتصاب باريس لهلن ، والدارسون المعاصرون الذين يؤكدون أنها لا بد أن تكون

www.ibtesama.com/vb

قد شنت للتحكم فى مضيق الدردنيل ، ينسون أن الحروب تبدأ دائماً فى حماقة لأسباب بعيدة عن الشئون الاقتصادية .

ويسوق هيرودوت (Herobotus) تعليقاً ساخراً على قصة هوميروس ، فقد أخبره الكهنة المصريون أن الحرب كانت خالية من كل هدف أو معنى ، ذلك لأن هلن وباريس كانا بعيدين عن طروادة ، حين هاجمها اليونانيون — كانا قد فرا إلى ممفيس عاصمة مصر ، حيث قبض عليهما بأمرفرعون — وقد استجوب باريس وطلب منه أن يشرح سبب وجود هلن الحسناء إلى جانبه ، فلم يوفق فى شرحه إلى إقناع فرعون ، ومن ثمة أبعد إلى خارج البلاد ، وبعد ذلك بوقت قصير حضر منلوس ، زوج هلن الشرعى ، إلى ممفيس ، وتقدم مطالباً بها ، وعاد معها إلى بلاد اليونان .

وفيما يلى رواية هيرودوت عن الأصل الغامض للحرب :

« لقد استفسرت من الكهنة عما إذا كان ثمة نصيب من الصدق فى القصة اليونانية عما حدث بطروادة ، وقد ساقوا ، فى ردهم على ، بعض معلومات جاءت رأساً — على حد قولهم — من فم منلوس ، وأرسل اليونانيون ، حسب رواية الكهنة ، قوة عظيمة لمناصرة قضية منلوس ، حين علموا باغتصاب هلن ، وما كادوا يصلون إلى اليابس ، ويستقرون فوق تربة طروادة ، حتى أرسلوا سفراء — كان منلوس واحداً منهم — إلى المدينة ، وحين استقبلوهم داخل الأسوار ، طلبوا إرجاع هلن ومعها الكنز الذى كان باريس قد سرقه ، كما طالبوا بتعويض عن هذا التعدى ، فأجاب الطرواديون بأنه لا هلن ولا الكنز فى حيازتهم : فهى قد فرت إلى مصر حيث احتجزها الملك المصرى ، وأنه من الظلم الصارخ أن يعاقبوا على جرم لا ناقة لهم فيه ولا بعير .

وتشبث الطرواديون بهذا الرد ولم يتحولوا عنه قط ، وكانوا دائماً مستعدين لأن يقسموا أن هذا هو ما حدث بالضبط .

www.ibtesama.com/vb

ولـكن اليونانيين اعتبروا هذا الرد تافهاً لا طائل منه ، فحاصروا المدينة ، وواصلوا القتال حتى سقطت ، ولـكنهم لم يعثروا على أثر لهلن ، وفى الهزيمة روى الطروادیون نفس القصة التى ذكروها منذ البداية ، وحين تحقق اليونانيون فى النهاية أن القصة صحيحة ، أرسلوا منلوس إلى بروتيوس (فرعون مصر) ، فاجتاز النهر إلى ممفيس ، وبعد أن تقدم بوصف صادق لما حدث ، أكرم المصريون وفادته إلى أقصى حد ، وردوا إليه هلن مع كل مقتنياتها ، ولم تصب هلن بأى سوء فى مغامراتها .

وعلى الرغم مما لاقاه منلوس من كرم وفادة المصريين ، فقد برهن على أنه لم يكن صديقاً لمصر ، فإذ كان مشرفاً على مغادرة البلاد ، عطلته رياح مضادة عدة أسابيع ، وكى يغير اتجاه الرياح ، أمسك باثنين من صغار الأطفال المصريين ، وقدمها ذبيحتين للآلهة ، وعندما افتضحت هذه الجريمة المنـكرة تحولت صداقة المصريين له إلى بغضاء ، وراح المصريون يطاردون منلوس ولـكنه وفق فى الفرار بسفنه إلى ليبيا ، وما من أحد من المصريين استطاع معرفة ما حدث له بعد ذلك » .

* * *

هذه هى رواية هيرودوت عن حرب طروادية تم فيها القتال فوق الأشباح ، وهى غير خالية تماماً من الأسانيد ، ففى ملاحم هوميروس تلميحات غريبة لرحلة قام بها باريس إلى صيدا فى فينقيا ، وأخرى قام بها منلوس إلى مصر ، ومع كل إعجاب هيرودوت بهوميروس فقد وجد أنه من الصعب أن يصدق أن بريام بلغ به الخبل حد التضحية بطروادة وجميع الطرواديين لا لشىء سوى أن يتيسر لباريس امتلاك هلن ، ولقد كتب يقول : « لست أصدق أن بريام كان سيمتنع عن تسليمها ، لإنهاء هذه السلسلة من الكوارث ، حتى ولو كان هو نفسه الذى تزوجها » ، وما من أحد حتى ولا هيرودوت عرف ماذا حدث ؛ ثمة شىء واحد متيقن ،

www.ibtesama.com/vb

هو أنها كانت حرباً شعواء مخبولة ، تجل عن الخيال ، وفى نفس الوقت لم تكن أشد حماقة من أية حرب أخرى .

ولكن بينما نحن لا نستطيع قط أن نستوثق من أسباب حرب طروادة ، نعرف الكثير عن الرجال الذين تقاتلوا خلالها ، ولم يعثر أحد على مقابر طروادية ، أما مقابر مايكناى فتعود إلى عهد سابق لهذه الحرب ، ولكنا نعرف أولئك الجنود جيداً ، فهوميروس وما أسفرت عنه أعمال التنقيب يتحدثان بنفس الصوت ، والفرق طفيف بين عهد الملوك غير المعروفين الذين عثر عليهم فى ما يكناى ، والعهد الذى وقعت فيه حرب طروادة : منظر الشعب ، وعاداتهم الاجتماعية ، وأساليبهم فى القتال وحرث الأرض وعبادة الآلهة ، ونحن على بينة مما كانوا يرتدون ، وكيف كانوا يتزينون ، وماذا كانوا يأكلون ، حتى إننا لو رأيناهم يسيرون حولنا عبر حقل لعرفناهم على الفور .

وكانوا يرخون شعور رءوسهم ، ويربطونه بخيوط من الذهب والفضة ، وفى الصيف كان الرجال يرتدون معاطف ذات أكمال ، تصل إلى الركب ، وفى الشتاء كانوا يلبسون أردية فضفاضة ، تلقى على الأكتاف ، ويستخدمونها فى الليل أغطية للفراش ، وكانوا يبتهجون بأحزمة الزينة ، والأقراط والعقود ، والأكاليل المرصعة بالجواهر ، والشرائط ، وكانوا يرتدون قفازات وفراء ، وكانت الكاهنات والنساء الثريات يرتدون مطارف مطرزة طويلة ، ذات فراويز مختلفة الألوان ، وأحياناً كانت المطارف مقسمة ، كما نراها بخاتم الأم العظيمة ، أو فى بقايا إفرز وجد فى تيرينس (Tryns) وكان المحاربون يلبسون خوذات مصنوعة من حلقات من أنياب الخنازير البرية ، مثل الخوذة التى أعارها مريونيس لصديقه أوديسيوس ، والأنياب المعوجة التى وجدت فى مقابر مايكناى تتفق تماما مع الوصف الذى أورده هوميروس ، وكل شىء نعرفه عن براعتهم فى التزين يوحى بفش بالغ .

وكان لديهم مقاعد ومناضد ، ولكن تعوزهم الأطباق وكان الطعام يؤكل

www.ibtesama.com/vb

من فوق المائدة التى كانت تغسل بعد ذلك بالأسفنج ، وكانوا يأكلون اللحوم : لحم الضأن ، والماعز ، والخنزير ، ونادراً ما كانوا يأكلون لحم البقر ، وكانت هذه الحيوانات تستدجن ، وكانت الدواجن تحفظ بساحات المزارع ، والأوز يتجول داخل المنازل وخارجها . وكانوا يصطادون الغزلان والخنازير البرية ، والمعز البرى ، والأرانب ، والذئاب ، وكانوا يأكلون الأسماك ، ويسرون بالمحار ، وكانوا يزرعون القمح والشعير والدخن والفول والبسلة والعدس ، ويغرسون الكروم وأشجار الزيتون ، وكانوا يضيفون الشهد إلى خمرهم ليعطوها مذاقاً حلواً ، ويستمتعون بثمار بساتينهم ، وكانت حديقة الكينويس مليئة بأشجار الكمثرى والتفاح والتين والرمان ، وكان الأطفال يأكلون اللحم والحساء والصلصة والشحم والخمر ، ولكن يبدو أنهم لم يستسيغوا اللبن ، أما الجبن فكانوا يعتبرونها طعاماً شعبياً يستمتع به حتى الفقراء المعدمين ، ولم تكن هناك قطط — ظهر القط ببلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد تقريبا — ولكنهم كانوا يحتفظون بكلاب للصيد وكلاب للحراسة .

وكانت البطانة التى تحيط بذات ملكهم المقدسة بسيطة بدائية ، وكانت المؤسسات الصناعية تكاد أن تكون معدومة ، أما العملة وقطع النقد فلم يكن لهم بها أية دراية ، وكانت كل جماعة تزدرى وتعادى كل ماعداها من الجماعات ، وعلى الرغم من ذلك كانت تستطيع أحياناً أن تكون أحلافا للصداقة والسلام ، وكما لاحظ ولتريف منذ زمن طويل « لم تكن منظماتهم من القوة بالحد الذى تستطيع معه أن تخضع أجسام الرجال الراشدين » من بين جميع الأحياء المعاصرين ، كانوا أكثر شبها بالبالغين ، أولئك القوم المتكبرين الرشقاء ، الذين يقضون حياتهم فى العمل المتواصل ، فى وفاق مع الآلهة وفصول العام ، تحت حكم الراجات المثقفين والمستبدين .

وكان الطرواديون يعبدون الآلهة وأرواح الموتى ، ولكن عبادتهم كانت مرحة ، فهم لم يعرفوا صوما أو تهجدا ، أو شعورا بالجرم ، أو قضاء محتوما

www.ibtesama.com/vb

عن جريمة ارتكبت بحديقة منذ عهد طويل ، وكانوا يتسمون بالشباب والنضارة (كانوا يعيشون فى عالم فطرى تنيره أضواء الشمس ، وكانت دماء الشباب تجرى حارة فى عروقهم ، والآلهة يحيطون بهم من كل جانب ، ولم يزعجهم ويحيرهم كثيراً أنه كانت للآلهة مرتبة ونظام خاصين بهم : فأبوللو ، رب القوس الفضى ، كان « أقوى الآلهة » ولكن هكذا أيضاً كان زيوس ، فعندهم كاد الآلهة أن يكونوا بشراً ، وكاد البشر أن يكونوا آلهة ، وكان النصر الأكبر للانسان هو أن يلج ملكوت الآلهة ، وكان محتملا أن يجرح ديوميدس البشرى الإلاهة أفروديتا ، الآلهة يسيرون فى الأسواق ، وهم الآخرون كانوا معرضين للأذى ، وكانوا يقشعرون أمام « مملكة الموت المظلمة » .

وكانت الأضواء الساطعة أشد ما يحبون ، والظلمة أشد ما يبغضون ، وفى رأيهم أن الآلهة كانوا بالنسبة للبشر أقرب من حبل الوريد أو يكادون ، فهم شىء خفيف كالهواء ، محسوس كالجسد ، يشبهون وهج لهب نيران المعسكرات فى الليل ، ولمعان البرونز ، وازهار أشجار الزيتون ، ووجوه البشر ، وكان أخيليس يتعرف على الإلاهة أثينا عن طريق « نظرتها الملتهبة القوية » وكانت علامات الألوهية هى الفأس المزدوج ، والصليب المعقوف الدائر ، وتماثيل الإلاهة الأم الخزفية الصغيرة ، وأجهزة التأنيث الغريبة ، المصنوعة عادة من الحجر الأزرق ، التى يبدو أنها كانت ترمز للرحم والبدايات الخفية للأشياء ، وكان لكل غدير تابعاته من حوريات الماء ، وكانت كل قصفة رعد كلمة من إله خفى ، وكانت الأنهار وزبد البحر والجبال والأشجار وكل كائن حى ، لها جميعاً نصيبها من الألوهية ، ولكن الآلهة بأكملهم كانوا يقفون عاجزين عند باب الموت ، وكان الآلهة يذلهم الموت ، والبشر يخشونه فى فزع لا يحمد أواره والسموات كلها تقشعر عند ذكره ، فكان الموت خطأ دمغ به وجه العالم ، ولهذا كانوا يجفلون من الموت ، بأنفاس مبهورة ، ورعب مرتعد ، وما من شىء يسترعى الالتفات فى ملاحم هوميروس قدر صفة فزعهم من الموت الخاصة — هذا الفزع الذى هو أيضا ضرب من

www.ibtesama.com/vb

الكبرياء — وعلى الرغم من كراهيتهم للموت وفزعهم منه كان فى استطاعتهم مواجهته فى تهكم وسخرية وبعيون متألقة غير خابية .

وعلى حد ما ذكره هوميروس ، كان الطرواديون والأخائيون يحرقون موتاهم ، ومثل البالنيين كانوا يرقصون حول محرقاتهم الجنائزية،وقدوضع جثمان بتروكلس فوق محرقة ، وحرق معه خراف وثيران ، وخيول وكلاب ، بل وأيضا اثنا عشر من شباب الطرواديين ، ولكن هذا كان حفلا خاصاجداً ، أمر بإقامته أخيليس الفظ الغليظ القلب ، تكريما لصديقه الراحل ، وليس من المحتمل تكراره كثيراً ، وقد مثل أخيليس بجثة هكتور مدة اثنى عشر يوما حتى كبح أبوللو جماحه ، ولا بد أن هذا أيضا قد حدث بصفة استثنائية جداً ، ويشير كل ماندينا من أدلة إلى أن اليونانيين فى عهد هوميروس كانوا يحيطون الموتى بكل إجلال وتوقير .

وأشار الدارسون فى بحوثهم إلى أن أوصاف هوميروس للمحرقات الجنائزية لا ترتبط من قريب أو بعيد بغرف المقابر التى وجدت فى مايكناى ، وقدذكروا مراراً أن عادات مايكناى فى دفن الموتى تشير إلى حضارة أسبق بكثير من حرب طروادة ، وصحيح أن أنفاق المقابر المكدسة بالذهب تعود فى تاريخها إلى ما قبل حرب طروادة بقرون عديدة ، ولكن الذهب لهيب ، ويقول هوميروس إن أرواح الموتى لا تلج مملكة الموتى إلا بعد الحرق ، ومع ذلك فمن الممكن جداً أن نتخيل أن قناعاً ذهبياً هو نفسه ضرب من اللهيب ، فملوك مايكناى يرتدون أقنعة من الذهب ، وبتروكلس يرتدى لباساً من اللهيب ، ولعل هذا عند الإغريق لم يكن أكثر من لون آخر من العادة ذاتها .

والإلياذة ، كجميع الملاحم الحماسية العظيمة تقريباً مثل « إينياد » و« بوولف» « ونشيد رولند » و « الفردوس المفقود » ، هى قصة هزيمة تم اجتيارها ببطولة فى وقت مشئوم ، فالأخيار يهلكون ، والأشرار يزدهرون ، بيد أن حساب

www.ibtesama.com/vb

الآلهة للبشر غير مؤسس على ما يفعلونه من خير أو شر ، فالآلهة لا يكترثون لمصائر البشر ، وأهم شيء ذى مغزى عند الآلهة هو بسالة الإنسان الفطرية ، وهى الجلال الذى يسربل به نفسه حين يطأ موطن الخطر ، متحدياً الآلهة أن يبرزوا أسوأماق جعبتهم ، وأسمى فضائل الإنسان هى جسارته ، التى تجعله أكثر شبها بالآلهة ، ثم رقته التى تجعله أكثر إنسانية ، ولهذا يقول أوديسيوس فى الإلياذة : « لا تبالغ فى مديحى ، ولا تقرعنى ، بل دعنا نسير قدماً إلى الأمام ، فنحن من الليل فى الهزيع الأخير ، وقد أوشك الفجر على الظهور » .

وبين هذين العالمين من الجسارة المتناهية ، وأفصح ضروب الرقة ، يتنقل هوميروس بخفة يغبط عليها ، مصوراً عالما ما زال فيه البشر أبرياء ، وفى عروقهم تضطرم نار من الصفاء قبل أن تروعهم الذنوب والمخاوف والمآسى التى تتكرر فى حلقات لا تنتهى ، وهم صامدون ، دون مبالاة ، للرياح ، البسيطة والعاصفة ، قبل بدء التاريخ ، وإذ كتب فى سن متقدمة ، وبعد مرور الأحداث التى وصفها بمائتى عام ، فمن المحتمل أنه زاد من روائها وسحرها أكثر من واقعها ، بأن خلط القصص المتواترة عبر الأعوام ، بذكريات شبابه الخاص .

كان متسما برزانة الشيوخ وحبهم لنوازع الشباب المضطرمة المتحمسة ، وكان قد شاهد بعينى رأسه مثل جريمة القتل التى وصفها فى الأسفار الأخيرة من الأوديسا ، جثث الخطاب ملقاة على الأرض ، والوصيفات معلقات على المشانق بساحة القصر ، كما شاهد رئيس قبيلة من الشباب ، يقتل ويسحل ، والدماء لا زالت تنزف منه ، خلف عجلة حربية حول أسوار المدينة الخربة ، وسمع الشيوخ يخفتون أصواتهم « مثل قضقضة طيور الخطاف » حينما تمر بهم امرأة حسناء ، وكان قد أصيب بجرح ، وأحب امرأة جميلة كهلن ، وجلس فى خيام الملوك حين كانت النساء الأسيرات يوزعن على المنتصرين ، وكان قد شاهد كل هذا ، ولكنه حدث منذ عهد بعيد ، ومن ثمة فقد راح يطوف من مدينة إلى أخرى ،

www.ibtesama.com/vb

راويا تلك القصص عازفاً على قيثارته ، ومن بعده كان تلاميذه يروون القصص ذاتها ، ثم دونت فى الوقت المناسب .

وتتابعت الأجيال ، وتغيرت القصص قليلا ، ولكن الصوت الذى لا يروى غليله ، لم يخب أواره قط ، وكان صوتاً من القوة والإبانة بحيث تيسر له أن يؤدى أشكال وألوان حضارة بأكملها ، ولم يحدث قط شىء مماثل لهذا ، وكانت الحضارة التى صورها هوميروس غنية ، جميلة ، مليئة بالجلال المحسوس ، حتى لقد انساق الناس إلى الاعتقاد بأنها كانت متسربلة بغلالة حلم من الأحلام ، ثم جاء شليمان وبهر العالم إذ بين له أن هذه الحضارة لم تكن أضغاث أحلام ، إذ ولدت وترعرعت فى ضوء الشمس ببحار أيونيا .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الأعوام الأخيرة

ولم يظهر شليمان ، مع مرور الأعوام ، سوى القليل من علائم التغيير ، فقد كان فى شبابه صلباً لا يلين ، وكذلك فى شيخوخته كان صلباً لا يلين ، وكان يتكلم بلهجة الآمرين ، ويتحدث بصوت أجش مقتضب ، ويسلك كرجل يخشى العنت ، وطوال حياته كانت دائرة مكاتباته فسيحة مترامية ، وكان يحرر الخطابات ويضع الكتب وهو واقف أمام قطر مرتفع ، ولم يستخدم كاتم سر قط وحتى بعد أن أثرى واشتهر وامتلك قصراً جديراً به ، ظل يرى ألا ضرورة لاستخدام كاتم سر ، واستمر يحرر خطاباته بالطريقة المألوفة ، منتقلا من لغة إلى أخرى وفق مزاجه الخاص .

وازدادت ثروته ، وظل ساهراً لا يغفل عن سوق المواشى وعن المنازل التى يمتلكها فى باريس وبرلين وأثينا ، وصرح بأن خلو منزل من سكانه كان يكلفه ليلتين مؤرقتين ، وثمة علامات تغيير طفيفة كانت تظهر بين الفينة والفينة ، ففى الماضى كان لا يهتم بلباسه ، أما الآن فقد أخذ يوجه بعض الاهتمام إلى ملابسه وثيابه الداخلية وقبعاته ، وكان فيه شذوذ وحيد : فثمة منديل حريرى أحمر كان دائماً يتدلى من جيب معطفه ، ولعل هذا يعود إلى ذكرى الشال الأحمر الذى جمعت صوفياً فيه كنز طروادة ، وكان إذا ضمه مجلس من الناس اعتصم بالسكون ، واقتصد فى الكلام ، وكان يبغض الجدال فيما يتعلق بأعماله فى التنقيب ، ولكنه كان دمثاً ودوداً مع الطبقات الدنيا ، وكان الطموح لا يزال يستبد به ، وشهوة الذهب العارمة لا تزال تستعبده ، وفى كل هذا كان جلياً أنه ذات الرجل الذى قذفت به الأمواج إلى شاطىء جزيرة تكسلى وقد اضطرم فى أعماقه طموح عارم كى يكون فى العالم من المفلحين .

وكان دائم العجلة والقلق ، وإحساسه بمرور الوقت كان حاداً ، فكان

www.ibtesama.com/vb

يكره ضياع أية لحظة منه ، وكان يقسم لنفسه عمل اليوم — كذا من الساعات للمكاتبات ، وكذا من الساعات للقراءة ، وكذا من الساعات لدراسة سوق الماشية — وفى الصيف كان يستيقظ فى الساعة الثالثة صباحاً بالضبط ، ثم يركب إلى خليج فليتون للاستحمام ، مصطحبا معه زوجته ، وكان لا يزال يعتقد أن الاستحمام فى البحر يشفى كافة أمراض الجسم ، وكان دائم الإشادة بخصائص الماء الملح العلاجية ، وكلما تقدم فى السن ، كان يزداد تشبثاً بعاداته الاسبرطية ، وكان فى الرابعة والستين حين استؤصل من شفته كيس دهنى دون استخدام مخدر ، وقبل ذلك بأشهر قليلة ، حين سقط من صهوة جواده ، وانغرست فى خديه شظايا من نظارته ، لم يحمل نفسه مشقة استدعاء طبيب ، ولكنه ترقب فى صبر خروج الظايا بنفسها .

ولم يدر أن استمراره على الاستحمام فى البحر كان يقتله ، وفى نوفمبر عام ١٨٧٧ ، فى نحو الوقت الذى راح جلادستون يكتب فيه مقدمته الشهيرة لكتاب « مايكناى » شكا لأول مرة من الصمم والمرض ، فقد سبب له ماء البحر ، الذى كان يدخل فى أذنيه ، التهابات مع صداع شديد ، وظل السنوات الثلاث عشرة الباقية من حياته يعانى من أمراض الأذن وألوان الصداع ، على فترات متقطعة ، وأحياناً كان يبدو كرجل جمده الرعب حين يفكر فى كل الألم الذى كان لا مناص له من تحمله .

وكانت طروادة ، التى منحته أعظم استحقاق للشهرة ؛ لا زالت تستدعيه ، وفى كتابه (طروادة القديمة) « Ibos » الذى نشره عام ١٨٧٩ ؛ قدم وصفا كاملا عن أعمال التنقيب التى قام بها فى هيسارليك ، وأضاف إليه شذرة مسهبة عن سيرته الذاتية ، وصوب بعض نظرياته الأولى ، وبذلك ضمن وصفه أحدث اكتشافاته .

ولكن ثمة مشاكل كانت ما تزال تمضه ، : أتل هيسارليك هو طروادة ؟ أمن الممكن أن يمثل التل الصغير تلك المدينة المترامية الأطراف التى وصفها

www.ibtesama.com/vb

هوميروس ؟ لقد قدر أن هذه المدينة التى على التل ، كان فى المقدور أن تتسع فقط لخمسة آلاف من السكان ، مع جيش من خمسمائة جندى ، وإذن فأين كانت الأثنان والستون من حجرات القصور المنيفة التى وصفها هوميروس ؟ وكانت قلعة طروادة أصغر حتى من قلعة ما يكناى ، الذى ظل حينا وهو يعتقد أنه قد استخرج من باطنها أجاممنون وكاليتمسترا ورفع الركام عن كل باحة قصر أترداى الذهبى .

وكلما ازداد تفكيره فى هيسارليك ، كلما تناوشته الشكوك ، فلعل طروادة بعد كل هذا لم تكن سوى أسطورة من غراس خيال هوميروس ، وقد كتب إلى ناشر كتبه بروكهاوس : « إن المشكلة الوحيدة الباقية ، هو ما إذا كان لطروادة وجود حقا ، أو كانت غراس خيال الشاعر ، فإذا كانت موجودة فلابد من أن يتوفر فى الأذهان بكافة أنحاء العالم أن تل هيسارليك هو موقع طروادة الحقيق ، ولكن هذا كان استجداء للسؤال ، وقد عرف ذلك ، وهو سيواصل ، حتى نهاية حياته ، أعماله فى التنقيب بطروادة ، مؤملا أن ثمة شذرة من كتابة قديمة ، أو خبيئة أخرى من كنز ، تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هيسارليك هى طراودة التى ذكرها هوميروس ، وكشبح يتردد على معالى شبابه ومغامراته ، كان يعود المرة بعد الأخرى إلى التل المخلى ، الذى فتنه منذ أن وقعت عليه عيناه ، فى أحد أيام الصيف عام ١٨٦٨ .

وحتى هذا الحين كانت كل معرفته بالترود تتألف من هيسارليك وبونارباشى ووادى اسكمندر والقرى الصغيرة التى على شاطئيه ، وقد عزم الآن على أن يوسع مساحة الأرض التى يزرعها ، متلمسا أن يجد فى الريف المحيط مايلقى بعض الضوء على المشكلة ، وفى مايو ١٨٨١ قام برحلة طويلة على صهوة جواد عبر الترود ، وكانت رحلة خالية من الأحداث بصورة غريبة فلم يفد منها إلا قليلا ؛ ولكنه وفق فى تسلق جبل إيدا . من حيث كانت الآلهة فتطلع بازدراء إلى المعارك الناشبة فى أسفلة ، وذكر هوميروس أن جبل إيدا هو « موطن الوحوش البرية »

www.ibtesama.com/vb

ولكن شليمان لم يلمح به أى كائن حى سوى طيور الوقواق ، المألوفة فى كل نواحى الترود ، وفى نتوء من الجبل وجد مقبرة وحيدة لراع غير معروف ، وعلى نتوء آخر ، عثر على لوح من الرخام ظن أنه بقايا عرش زيوس .

وكان العرش مليئا بزنابق العيسلان الزرقاء وأزهار البنفسج ، وكانت هيسارليك أسفل الجبل على بعد قصى ، فى حجم زر معطف أو تكاد ، فتعجب كيف استطاع زيوس أن يميز حركات الجيوش من هذا البعد الشاسع ، وأعلن شليمان عن وثوقه التام بأن هوميروس سبق أن وقف فوق جبل إيدا ، فقد بدا أنه ما كان ليجسر قط على الوقوف فى مكان لم تطأه قدم هوميروس .

وفى ذلك العام قام بقليل من أعمال الحفر المتقطعة فى هيسارليك ، ولكن المشكلة الرئيسية التى شغلت ذهنه كانت متركزة فى كيفية التصرف بكنز طروادة الذى يملكه ، وفكر ، فى أوقات مختلفة ، أن يهبه لليونان وإيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وثمة فترة قصيرة فكر فيها أن يبيع المجوهرات لروسيا ، وقضى بضعة أسابيع فى تراسل مشوش مع عميل بروسيا ، وعده بعمولة سخية إذا اشترى متحف هرميتاج الكنوز ، والواقع أن شليمان لم يكن شديد الرغبة فى بيع الكنز الذى كان لايقدر بثمن — أى مبلغ يمكن دفعه ثمناً لمعبد البابوات الستينى ؟ كان من طبع الرجل أن يتردد دائما كلما راح يرقب الأحداث ، وكتب فى أواخر عام ١٨٧٨ إلى تاجر من برلين يقول إنه لن يترك الكنز لبرلين ، تلك المدينة التى لم تظهر قط أى تقدير لعمله ، ولم يدر أنه بعد ذلك بأقل من ستة شهور سيكون لغصن عوسج تأثير كبير على تصرفه بهذا الكنز ، فهو سيكون فى النهاية من نصيب برلين ، لأن صديقا قطف العسلوج وأهداه إليه .

واستخلص شليمان لنفسه طوال حياته صديقين ، أحدهما وإلهم دوربفلد ، وهو شاب من علماء العاديات ، أرسلته الحكومة البروسية للعمل فى التنقيب بأولمبيا ، والآخر رودلف ڤيرشو ، عالم الأمراض الذائع الصيت ، وكان ڤيرشو

www.ibtesama.com/vb

مستكملا لكل مايعوز شليمان من محاسن ، فهو هادىء ، منظم ، لبق ، صارم المنطق ، زاهد فى المال ، وأشد زهداً فى الشهرة ، وكان واحداً من أولئك القوم القادرين على نثر ضروب نشاطهم فى مائة من الاتجاهات المختلفة ، ومع ذلك يحتفظون بإحساس من التناسق الهادىء فى كيانهم ، وقد غبطه شليمان ، ورعى صداقته ، وأمطره بأسئلة طبية ، وتلمس نصيحته فى أمور مختلفة ، مثل الملابس الواجب ارتداؤها فى حفل ما ، والوصفة المناسبة لطعام الأطفال .

وفى مناسبة ما بعد زيارة لهاناى — تيب « Hanai · Tepe » قرب طروادة ، سمع شليمان أن ڤيرشو يفكر فى نشر تقرير عن الأشياء التى عثر عليها ، فأبرق شليمان فوراً يقول : « لاتنشر شيئاً عن هاناى — تيب ، وإلا فستقضى على صداقتى وحبى لألمانيا ! » .

وفى ربيع عام ١٨٧٩ ، خلال فترة راحة بأعمال التنقيب فى هيسارليك ، اقترح شليمان القيام برحلة علمية ، حذاء شواطىء نهر سكامندر ، فابتهج ڤيرشو إذ أتيحت له الفرصة لمرافقة شليمان فى رحلة قصيرة بالوادى ، ووصلا إلى سفح جبل إيدا ، وكان شليمان صامتا على غير عادته ، مستغرقا فى أفكاره ، وحين سأله ڤيرشو عما به أجابه بصوت أجش أن ثمة أموراً عديدة تشغل ذهنه ، وأنه غير معقول أن يصفها جميعا .

وبعد ذلك ببرهة وجيزة إذ كانا يستريحان فى ظل عوسجة ، سأله ڤيرشو ثانية عما يضنيه ؛ فذكر شليمان أن ذهنه مشغول بما سيحدث لكنزه بعد موته ، وفجأة التقط ڤيرشو عسلوجا من عوسجة مزهرة ، وقدمه إلى شليمان قائلا فى هدوء : « باقة من انكر شاجن ! »

ولم يدرك ڤيرشو بعد ذلك قط سبب تفوهه بهذه الألفاظ ، فقد جاءت عفواً ،

www.ibtesama.com/vb

وقد لاحظ ماطرأ على قسمات صديقه من تغيير مفاجىء ، فقد بدا كما لو كان عبء ثقيل قد انزاح عن كاهله .

فقال شليمان : « نعم ، باقة من انكر شاجن » ، ودون أن يتبادلا أية عبارات أخرى ، أدرك كلاهما أن القرار قد تم .

وبعد ذلك ببضع ساعات ، إذ كانا عائدين من الرحلة ، قال ڤيرشو عرضا : « من الواجب حقا أن يئول إلى الشعب الألمانى ، الذى سيعنى به ، وسيكرمك لمنحه إياه ، فالأمر فى غاية البساطة ، وسأتحدث بعد إذنك إلى الأمير بسمارك فى هذا الأمر » .

فأومأ شليمان موافقا ، وبذلك جاء فجأة رد السؤال الذى ظل يكد ذهنه سبع سنوات ، والآن بعد أمد طويل ، فى أحد أيام الربيع ، وهو يتطلع إلى عسلوج العوسج ، الذى ذكره بمجموعات الأزهار العظيمة ، بالحديقة فى انكر شاجن ، وضع قراره الأخير .

وحين كان يتدبر الأمر فى هدوء ، كان يذكر دائما أن القطرين اللذين كان يحس فيهما أنه فى وطنه ، واللذين عومل فيهما بمنتهى الكرم ، هما انجلترا والولايات المتحدة ، ولكن حياته كلها تدور حول حيازة الكنز . وتنازله عن الكنز معناه تضحيته بحياته كلها ، وأى مكان يستطيع أن يستدير إليه سوى وطنه ؟ فالكنز سيكون إكليلا لتتويج قرية انكر شاجن ، حتى ولو وضع فى برلين بمتحف عظيم يحمل اسمه .

وراح ڤيرشو طوال الصيف والخريف يؤدى المهمة فى هدوء وكفاية ، فقد خشى أن يغير شليمان رأيه ، وعرف أن عليه أن يرتب كل شىء على وجه السرعة ، فى أناقة ، بطريقة ترضى مشاعر شليمان ، الذى كان يحس بجرح كرامته لأتفه الأسباب ، وقد أوضح فى سلسلة طويلة من الخطابات أن هدية عظيمة بهذا المقدار

www.ibtesama.com/vb

يلزم إعدادها بعناية ، وأن الأثر الكامل لمثل هذه الهدية البارزة ، هذا الأثر الذى لابد أن يفضى دائماً إلى الإشادة بذكر شليمان ، لن يحس إلا إذا تمت المفاوضات على أعلى المستويات ، فتصيد الوقت ، وتشاور مع كل شخص — مرة ما ظل ساعتين بغرفة انتظار الأمير بسمارك ، ورأى أن الوقت لم يذهب هباء ، إذ كان المستشار الألمانى تلهبه فكرة وضع الكنز بمعرض دائم فى برلين ، وكان مستعداً لأن يذهب إلى أبعد الحدود لتكريم مكتشف الكنز — وقد سأله الأمير بسمارك قائلا : « أى ضرب من التكريم يؤثره الدكتور شليمان ؟ » وفيما يتعلق بهذا الموضوع كان ڤيرشو محتاطاً للمداورة والتملص ، فاكتفى بالتعليق بأن شليمان رجل متعطش للاعتراف بفضله ، متلهف للاغداق عليه بكل ضروب العطاء ، شريطة أن تصدر من أرق الدوائر .

وداور شليمان مراعياً الظروف كعادته ، فقد كان يقاتل الحكومات دائماً ، وهو الآن مصمم على أن يحصل من الحكومة الألمانية على أفضل الشروط المستطاعة ، وقد شكا أنه يمنحه الكنز لألمانيا ، نفر منه بريطانيا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا ، ومن ثمة فسيضطر للاقامة ببلاد اليونان وألمانيا فقط ، وأفضى سراً إلى ڤيرشو بشروطه وهى كالآتى : — كتاب تزكية خاص من القيصر ، وسام الاستحقاق وهو أرفع وسام خاص يستطيع القيصر منحه ، لقب مواطن فخرى ببرلين ، عضوية أكاديمية العلوم البروسية ، والمتحف الذى يضم كنزه لابد أن يحمل اسمه على الدوام ، وألمع إلى أنه لن ينفر من لقب يمنح له ، ولكنه لم يصر على نواله ؛ ولم ينل وسام الاستحقاق ، ولكن ڤيرشو ، بمفرده تقريباً ، وفق فى عمل الترتيبات اللازمة لإجابة بقية مطالبه ، أما صوفيا فهى وحدها التى أزعجها تقدم المفاوضات ، ولكنها لم تكن نداً لزوجها حين يستقر منه الرأى على مسلك معين ، وانفثأ غضبها عندما طالعت اسمها بكتاب التزكية الذى حرره القيصر بيده .

وأخيراً فى ديسمبر عام ١٨٨٠ ، عبىء الكنز الذى كان معروضاً بلندن ،

www.ibtesama.com/vb

فى صناديق أرسلت إلى برلين ، وبعد ذلك بستة شهور حضر شليمان الاستقبال الملكى فى برلين ، حيث قدم الكنز فى مهابة « للشعب الألمانى فى حيازة دائمة وحفظ مستقر » وقد أفرد له جناح بمتحف فولكركند ، وكتب اسم شليمان على الأبواب بحروف ذهبية متألقة ، وفى حفل الاستقبال رافق ولى العهد ولهلم ، القيصر ولهلم الثانى فيما بعد ، صوفيا إلى المأدبة ، وكان ذلك فى السابع من يوليو عام ١٨٨١ ، وصوفيا فى الثامنة والعشرين من عمرها ، وزوجها ينقص ستة شهور عن سن الستين .

وظل الكنز فى برلين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وحين شبت الحرب خبىء فى نفق سرى تحت حديقة الحيوانات ببرلين ، وفى ربيع عام ١٩٤٥ عثرت الجيوش الروسية عليه وبعثت به إلى مكان لا يعرفه الآن سوى الروس .

وفى ذلك اليوم من يوليو ببرلين وصل شليمان إلى قمة شهرته . فالقيصر والقيصرة وأمراء البلاط وأميراته ، أحاطوه بحفاوتهم ، ولكن هذا كان فى اعتباره أقل ضروب التكريم التى نالها ، أما أعظمها فهو لقب مواطن برلين الفخرى ، الذى لم يسبق منحه لأحد سوى رجلين هما الأمير بسمارك والكونت هلموث فون مولتكه ، وكلاهما يعود إليهما الفضل فى بعث ألمانيا ، وهكذا راح الصبى الذى ألصق وجهه بنافذة منزل كاهن مغمور ، وقد هزه الجذل لرؤيته عالما أسطوريا فى الخارج ، يرى عالم الأساطير وقد دبت فيه الحياة ؛ ألم يستدع للمثول فى حضرته أكثر الملوك الراحلين عراقة ، وكذلك منكا من الأحياء ؟ وقد امتلأ إذ راح يستعرض حياته المليئة بمثل هذه الأعمال الباسلة الكثيرة والمآثر العديدة .

ومع ذلك كان لا يزال هناك الكثير لإنجازه ، ولم تكن طروادة قط بعيدة عن تفكيره ، وقد راوده الأمل قبل وفاته كى يستكشف مقابر ملوك طروادة وأن يضع خريطة مفصلة تشمل جميع المدن التى شيدت فوق تل طروادة ، حيث وجد أقصى سعادته .

www.ibtesama.com/vb

وأخيراً ، بعد استعدادات دقيقة ، قام فى أول مارس عام ١٨٨٢ بزيارته التاسعة لهيسارليك ، واستأنف الحفر ، وكان قد مر أربعة عشر عاما منذ زيارته الأولى ، وقد أصبح مرة أخرى معتدل المزاج ، مبرءا من ضروب الصداع وأوجاع الأذن ، وكان ؛ عند أول زيارة له ، محروما تقريبا من كل مدد ، ولا يحمل سوى آلات بدائية ؛ أما هذه المرة فقد حضر مدعما بمدد ملكى ، فالسادة شرودر بلندن أهدوا إليه كميات كبيرة من لحم البقر المعلب بشيكاغو والخوخ والجبن الإنجليزى ولسان الثور ، مع مائتين وأربعين زجاجة من الخمر الخفيف ، وقد شربها شليمان بأكملها فى مدة خمسة شهور ، معلنا أن «الخمر الخفيف هو أحسن علاج ، اكتشف حتى الآن ، للامساك الذى عانيت منه طوال السنوات الثلاثين الماضية » .

وثمة خلاف لا مناص منه شجر بينه وبين الأتراك ، الذين بعثوا من وزارة التعليم العام بشخص يدعى بدر الدين أفندى لمراقبة تنفيذ شليمان لنص اتفاقه مع الحكومة التركية ، وكان مسخا فضوليا ، يفحص بدقة كل شىء تتناوله أيدى شليمان ودوربفلد ؛ مساعده القدير ، وبذلك أثار اضطرابا لا آخر له .

واستورد دوربفلد أجهزة لمسح الأرض ، ففحص بدر الدين أفندى الأجهزة ، وأعلن أنها قد صممت لأخذ أبعاد غابة كوم — كيل الصغيرة ، التى تبعد عن هيسارليك بخمسة أميال ، فاحتج دوربفلد ولكن دون جدوى ، وعرض الأمر على سيد باشا ، قائد المدفعية بالقسطنطينية ، فوردت الأوامر بمنع استخدام أجهزة مسح الأرض منعا باتا ، وحين رأى التركى دوربفلد وشليمان يدونان ما عن لهما من ملاحظات ، أثار مزيداً من المتاعب ، إذ ظن أنهما كانا يقومان برسم القلعة المتداعية ، وصدرت إليهما الأوامر ألا يدونا أى شىء ، وإلا أرسلا مصفدين إلى القسطنطينية ، فهز شليمان كتفيه ازدراء ، إذ كان يتمتع بذاكرة قوية ، فما من أحد يستطيع منعه عن تسجيل ملاحظاته فى حافظته .

وفى زيارته التاسعة ، اتبع شليمان فى معيشته ، نفس النظام الذى اتبعه فى

www.ibtesama.com/vb

زيارته الأولى ، فكان يستيقظ كل صباح قبل شروق الشمس ، ويذهب إلى هلسبونت ممتطيا جوادا ، وهناك يستحم فى البحر والشمس طالعة تتهادى ، وكان يرافقه دائما خلال هذه الرحلات ثلاثة حراس يحملون البنادق ، وكان يشتغل بالنهار مع مائة وخمسين عاملا ، مرتديا خوذة شمس مسطوحة ، ونظارة كبيرة ومعطفا ضخما ، يتدلى من جيبه منديل حريرى أحمر ، وكان وكيله العام وحارسه ورئيس صيارفته ، هو زفيروس جناكيس ، الذى كان يقوم بالعمل أيضا كخازن وبائع للخبز والتبغ والخمر للعمال بفائدة باهظة .

وكان الشتاء جافا ، وفى يوليو نضب ماء نهر سكمندر تماما ، وخلا الوادى من الأزهار طوال ذلك الربيع ، وفى يونية حل الجراد ، وازداد فضول بدر الدين أفندى عما قبل ، ومن ثمة أسرف فى مطالبه غير المعقولة ، وعند نهاية شهر يوليو قرر شليمان أنه لم يعد فى استطاعته أن يتحمل مضايقات الموظف التركى ، وأنهى أعمال التنقيب ولكنه أرسل قبل ذلك برقية للأمير بسمارك يطلب حمايته من الأتراك ، ولم تسفر البرقية عن شىء ، وقليل ما تم إنجازه فى طروادة ، وإن كان دوربفلد قد نجح فى رسم خريطة بارعة للمدن المختلفة التى قامت يوما ما فوق التل ، ولم يتم العثور إلا على ختم وتحف من البرونز ، وجميعها أشياء قليلة القيمة .

ونشر شليمان فى العام التالى مؤلفا بعنوان « طروادة » وهو ثالث كتاب له عن تنقيبه بطروادة ، وفيه جعل القصة حديثة مشتملة على كل ما استجد ، وهو أقل كتبه إثابة ، ويحتوى الشطر الأكبر منه على فهرست بما عثر عليه من توافه خلال قيامه بالتنقيب عامى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، وكان حظه قد أخذ يقلب له ظهر المجن ، فلم يعد الذهب يبرز من الأرض لدى لمسته السحرية ، وظل بقية حياته قلقا يذرع الأرض بحثا عن الكنوز ، فلا يحصل من بحثه إلا على بقايا خزفية يبوء معها بصفقة المغبون .

وقبل ذلك بأعوام مرت فترة باشر فيها عدداً كبيراً من المشروعات

www.ibtesama.com/vb

المتفرقة فى إيطاليا وصقلية ، وكانت هناك دائما رءوس سهام موتييه ، تذكره أن النجاح لا يأتى إلا لماماً ، وفكر أن يقوم بالتنقيب فى ثيرا ، حيث تحطمت به السفينة يوما ما ، وفى سيثرا ، حيث انبثقت أفروديتا من زبد البحر ، وفى بيلوس على الشاطىء الغربى من البليبونيز ، حيث جرت معركة عظيمة وصفها ثيوكيديديس (Thucydides) ، وفى لحظة ميمونة اتجه ذهنه إلى جزيرة كريت ، وكانت لا تزال تحت حكم الأتراك ، فهناك فى عام ١٨٧٨ كان تاجر من كندیا يحمل اسم مينوس كلوكايرينوس (Minos Kalokairinos) الأسطورى ، قد قام ببعض أعمال للتنقيب فوق تل يسمى كفالا تسيلمبا ، وهو الموقع التقليدى لمدينة كنوسوس Cnossus القديمة ، وقام شليمان بتحريات عن الأشياء التى عثر عليها وفكر جديا فى نقل نشاطه إلى كريت ، ولعله لو حفر فى كنوسوس كان قد اهتدى إلى الاكتشافات العظيمة التى توصل إليها سير أرثر إيفانز بعد ذلك بسنوات عديدة ، ولكن كريت بدت ، فى تلك الأيام أقل احتمالا لتحقيق آمال علماء الآثار المعقودة عن بقاع اليونان الداخلية .

ولعله كانت هناك أماكن مسرفة فى كثرتها ليختار منها ، وخرائب مثلها تدعوه إليها وهو كما نراه خلال هذه السنوات الأخيرة ، يبدو متردداً ، ولأول مرة كان غير واثق من نفسه ، ولقد قرر أن يقوم بالحفر على كثب من ماراثون بالقرب من أثينا ، حيث يوجد تل صغير مشهور ، فالأقوال المتواترة التى دعمها بوسانيوس ، ذكرت أن جثث مائة وتسعين أثينى سقطوا فى المعركة ضد الفرس كانت مدفونة هناك ، وفى فبراير عام ١٨٨٤ حصل شليمان على ترخيص للتنقيب فى التل وهو عمل لا يستغرق سوى أيام قليلة ، فشق فيه نفقا ولكنه لم يعثر على أى أثر للموتى الأثينيين ، وكان يؤمل أن يعثر على حراب وسيوف وخوذات ودروع ، وبالجملة كل ما يرتديه المحاربون ولكنه لم يجد سوى القليل من البقايا الخزفية ، وبعض الشواهد على أن التل أقيم فى أزمان خالية قبل أن يطأ الفرس بأقدامهم بلاد اليونان .

www.ibtesama.com/vb

وبقيت ترينس ، القلعة العظيمة على سهل أرجوس التى سبق أن زارها فى سياحته الأولى داخل بلاد اليونان ، وقام بالتنقيب بضعة أسابيع قليلة ، قبل الفترة الطويلة التى استغرقت الصيف والخريف ، والتى شاهدت اكتشاف أقنعة مايكناى الذهبية .

وكانت ترينس قد تعتقت ، بينما كانت مايكناى فى صباها ؛ وقد ولد هرقل هناك ، وزار زيوس المدينة فى هيئة رذاذ من الذهب ، وأنجب طفلا من دناى (Danaë) المعتقلة هناك فى برج نحاسى ، ومن هذا التزاوج ولد برسيوس ، بطل الأرجوسيين الذين قطعوا رأس المسخ ميدوزا ، بل إن اليونانيين القدماء كانوا يوقرون ترينس ، وقد صاح بوسانيوس قائلا : « لماذا نتحمل مشقة الانتقال لمشاهدة الأهرامات ولدينا هذه ؟ » .

وفى الرابع عشر من مارس عام ١٨٨٤ بعد التنقيب غير الموفق فى الماراثون بأسابيع قليلة ، وصل شليمان إلى نوبليا ، للاشراف على العمل ، وكان يرافقه ولهلم دوربفلد ، الذى سيقع على عاتقه نصيب كبير من العمل ، وأرسل السادة شرودر من لندن ، هذه المرة أيضا ، كميات هائلة من المئونة : لحم البقر المعلب بشيكاغو ، وثمار الخوخ ، وأفضل أنواع الخمر الخفيف الإنجليزى ، واستخدم سبعين عاملا ، واستعمل أربعين عربة نقل إنجليزية ، وعشرين مخلاّ حديديا كبيراً ، وخمسين فأسا صغيرة ، وخمسا وعشرين فأسا كبيرة ، ورافعة للأثقال ، ولم يسبق له قط أن جهز حملة على مثل هذا الأساس العلمى ، وقسم شليمان ودوربفلد تبعاتهما فيما بينهما ، فشليمان يبين أين يريد هدم الأسوار وبدء الحفر ، بينما يقوم دوربفلد بمسح الأرض ، واستشارة المهندس ، ووضع الخرائط ، وإبرام العقود ، ومجمل الأمر أن شليمان كان هو المشرف على الخزف والتحف ، ودوربفلد على المبانى .

وأقاما فى نوبليا ، وهناك كان شليمان يستيقظ كل صباح قبل شروق الشمس كمألوف عادته ، ويحمله زورق إلى البحر قبل طلوع الشمس ، وبعد أن يبتعد عن الشاطىء ، يقفز فى الماء ، ويسبح مدة عشر دقائق ، ثم يعود إلى القارب متسلقا

www.ibtesama.com/vb

سكانه ، وبعد ذلك يمتطي صهوة جواده ويعود إلى ترينس فى خمس وعشرين دقيقة، وفى الساعة الثامنة تبدأ الاستراحة الأولى ، حين يحتشد كل العمال تحت ظلال الشرفات الحجرية العظيمة لتناول وجبة الفطور ، وعند غروب الشمس ينتهى العمل، ومن ثمة يعود شليمان ودوربفلد إلى نوبليا كل على صهوة جواده .

وقاما بالعمل حتى شهر يونية ، وخلال أول صيف كشف العمال عن تخطيط أرضية كاملة لقصر هوميروسى ، وكان الحصن الكبير قائما فوق صخرة شامخة من الحجر الجيرى ، مطلة على سهل ملىء بالمستنقعات ، وكانت الشرفات المقامة على كتل ضخمة من الأحجار ، قد استخدمت عدة أجيال كحظائر للضأن، وفى بعض الأماكن صقلت الخراف الأحجار ، وشاهد بوسانيوس هذه الأسوار العملاقة وصرح بأن قطيعا من البغال لن يستطيع زحزحة أصغر حجر منها ،وعلى الرغم من أن شليمان كان يميل إلى تصديق كل كلمة كتبها بوسانيوس عن ترينس ومايكناى، فقد سره أن يكتشف وجود أحجار صغيرة كثيرة يستطيع العمال رفعها بسهولة .

وذهب مرة ثانية إلى ترينس خلال الصيف التالى ، واكتشف صورة بالجص لصبى يقفز فوق ظهر ثور ضخم ، وأجزاء من إفريز هندسى ، والكثير من نماذج أجهزة التأنيث من الحجارة الزرقاء ، ووجد مدى وسهاما من الزجاج البركانى ، ولم يكتشف من الذهب سوى فأس ذهبية صغيرة لاتزيد على بوصة واحدة .

وكتاب شليمان« ترينس» الذى نشره عام ١٨٨٦ ، كان مخيبا للآمال مثل كتابه الأخير عن طروادة أو يكاد ، إذ اكتفى بوصف الأشياء التى عثر عليها بين الركام ، تاركا لدوربفلد مهمة وصف القصور العظيمة التى أزاحا عنها النقاب ، وكثير من أوانى الزينة من الطين النضيج صيغت بإبداع ، بحيث برزت فى طريقة صنعها أوانى الزينة التى اكتشفت فى طروادة ومايكناى ، ولكن مثار دهشة العالم حقا هو الثور الضخم بقرونه المنحنية ، ووجدت مثل هذه الثيران ، بعد

www.ibtesama.com/vb

ذلك ، فى كنوسس ، ومن المحتمل أن فنانا من منوا هو الذى رسم ثور ترينس ، ولكن تأثير منوا على داخل بلاد اليونان كان لايزال إلى حد كبير غير مشكوك فيه ، وكان الرأى عند شليمان أن القلاع فى مايكناى وترينس بناها وسكنها الفينيقيون ، الذين عمروا بلاد اليونان وجزائر بحرى إيجه وايونيا ، فى عصر قصى قبل التاريخ ، حتى طردهم الغزاة الدوريون حوالى عام ١١٠٠ بعد الميلاد .

وانحلال البطولة التدريجى من النظريات التى اعتنقها شليمان طوال حياته ، وقد بدا له أن البطولة تركزت فى أبطال بلاد اليونان القديمة العظام ، بدرجة غير مألوفة قط ، ولم تزدهر قط منذ ذلك التاريخ بنفس السرف ، عظام الرجال وطأوا أرض طروادة ومايكناى ، ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم قاسى العالم على يد أناس أقل شأنا ، ولكن ثمة استثناءات كانت تطرأ على القاعدة بين الفينة والفينة ، وكان شليمان يميل للاعتقاد بأن اسكندر الثانى قيصر روسيا ، الذى قتله العدميون بسنت بطرسبرج فى مارس عام ١٨٨١ ، كان من مصاف الأبطال الأصائل ، كذلك كان الجنرال جوردن ، الذى تتبع مصيره بالسودان فى اهتمام بالغ ، مثالا أشد تألقا .

وكل من شليمان وجوردن يلقى على الآخر قبسا من الضوء ، فهما يتشاركان فى أشياء كثيرة : الجسارة ، والإيمان الراسخ فى نفسيهما ، والأنفة الغريبة بأشياء الأرض الخفية ، ولوثوق شليمان بهوميروس وبوسانيوس ، كشف النقاب عن المدن المطمورة طروادة ومايكناى وترينس . ولوثوق جوردن فى كلمات الكتاب المقدس الموحى بها ، طاف بالأرض المقدسة وآمن بأنه اكتشف المواقع الصحيحة للجلجثة وجبعون وجنة عدن ، وكل منهما كان نسيجا وحده ، قصر كل مطالعاته على تلك المؤلفات التى بدت له ذات إلهام مباشر . وكانت تراودهما الأحلام ، كما كانا قلقين فى حضارتهما الخاصة ، إذ كان كل منهما يرى نفسه كشبح فى ماض قديم لايسترد ، وكان جوردن إذا رغب أن يطمئن إلى المستقبل ، فتح الكتاب المقدس عفو الخاطر ، ورأى المستقبل مدونا فى وضوح أمام عينيه ، وكان

www.ibtesama.com/vb

شليمان يعود دائما إلى هوميروس للسبب عينه ؛ فهما رجلان كان فى الاستطاعة أن يفهم أحدهما الآخر .

فمن أثينا تطلع شليمان عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الخرطوم ، حيث بطل العصر الحقيق — أقرب الناس إلى هكتور فى عهده — كان يحاصره جيش المهدى الوحشى الذى لا يرحم ، وكانت إمدادات النجدة قد انقطعت ، فقل الطعام ،وأخذت الذخيرة فى النفاد ، ونصح البعض جوردن بأن يسد نوافذ القصر بأكياس من الرمل ولكنه رفض ذلك ، وبدلا من ذلك أمر بوضع مصباح به أربع وعشرون شمعة بإحدى النوافذ ، وصرح قائلا : « حين كان الجبن يقسم بين الناس أنصبة ، جاء دورى والجبن قد نفد ، اذهبوا واخبروا جميع سكان الخرطوم أن جوردن لا يخاف شيئا . »

وفى مساء الثالث من فبراير عام ١٨٨٥ أصبح المهدى ودراويشه على كثب من القصر ، هبطوا كالسيل على المدينة ، وكان جوردن فى انتظارهم على درجات القصر ، وسيفه فى يده ، فحارب فى بسالة ، وهاجم العدو ، ولاقى حتفه وسط كومة من الجثث أسفل الدرج ، وحين جز رأسه ، ولف فى قطعة من القماش ، وقدم للمهدى ، صدرت الأوامر لتعليقه بشجرة ، وظلت الصقور تنهش الرأس الدامى بضعة أيام .

وكان الحدث بالنسبة لشليمان ضربا من الجثام (الكابوس) ، فالحب الذى كان يكنه لجوردن من بين جميع الأحياء بلغ الذروة ، وما من أحد ، حتى الملكة ڤكتوريا ، إلا وكان يعتقد أن جوردن لاقى حتفه نتيجة لحماقة لا تأويل لها ارتكبها جلادستون ، الذى عجز عن إرسال إمدادات عسكرية فى الوقت المناسب، وكان شليمان يعرف جلادستون جيدا ، أليس جلادستون هو الذى سبق فوضع مقدمة مسهبة لكتابه « مايكناى » ، ودعاه لتناول الغداء معه برقم ١٠ دوننج ستريت (مقر رئيس وزراء انجلترا) ؟ ولكن شليمان ، وهو يتميز من الغيظ ،

www.ibtesama.com/vb

أزال صورة جلادستون الفيتوغرافية الموقعة منه ، التى كانت معلقة بمكتبه ، و بحير ماذا يصنع بها ، أيلقى بها فى اليم أم يمزقها إربا ، فقرر أن يكون أكثر حيطة ، وبدهاء مكلنبرجى أصيل ، عاقب جلادستون بوضع صورته فى دورة المياه .

وخلال تلك السنين الأخيرة ، كان مع مرور الأيام يزداد اقتناعا ، بأن أعظم الاستكشافات المجزية سيتم فى كريت ، وإذن فعلى ثيرا وسيثيرا وبيلوس الانتظار ، وشاركه دوربفلد فى تحمسه لكريت ، ومن ثمة فقد زارا كنوسس عام ١٨٨٦ معا وفحصا الموقع ، وثارت مجادلات طويلة مع المالك ، وهو تركى كانت حاسة المتاجرة عنده معادلة لحاسة شليمان على الأقل ، وطالما احتدمت المناقشة بينهما وهما يتناولان أقداح القهوة التركية ولكن دون جدوى ، فقد طلب التركى مبلغ ستة عشر ألف ريال ثمنا للحقل ، وهو ثمن باهظ . أثار سخط شليمان ، وكان قد حصل من محافظ الجزيرة التركى على فرمان يرخص له القيام بأعمال التنقيب ، شريطة حصوله على موافقة المالك ، ولكنه أخفق فى الحصول عليها ، وكان لا يزال يؤمل فى التراضى مع المالك حين عاد إلى أثينا .

وفكر فى العودة إلى طروادة ، ووضع خططاً طويلة المدى للتنقيب فى كريت ، وراح يناقش نفسه عما إذا كان من الأفضل أن ينتقل لزيارة منازله فى باريس ، أو أن يقوم برحلة أخرى إلى ايثاكا ، ولم ينفذ أيهما ، وكلما تقدمت به السن ، واشتدت متاعبه ، ازداد اختفاء فى قوقعة نفسه ، يطالع هوميروس طوال النهار حتى منتصف الليل ، كما لو كان هوميروس قد أصبح العقار الوحيد الذى يحفظ عليه عقله ، واستمر فى تحرير الرسائل بغير حساب ، وأحيانا يبدأ الرسالة بلغة ما ، ويستمر فيها بلغة أخرى ؛ ويختتمها بلغة ثالثة ، ولكن يده كانت قد أخذت تتشنج عند الكتابة ؛ وراح يكثر من الكتابة بلهجة أحد أبطال طروادة ، وهو يقذف الإخائيين من تحته بالسباب ؛ وتلك الابتهالات الرهيبة التى تدفقت يوما ما من أفواه أبطال هوميروس تبدو مستغربة وفى غير موضعها ؛ حين يكتبها رجل أشيب نحيل يشبه أستاذا جامعيا هيّابا .

www.ibtesama.com/vb

ولـكن شليمان كان غير هياب ولم يوهن السن من حدته ؛ وكان دائم السخط على الإمعات من الرجال ؛ أولئك المشعوذين الذين رفضوا الإشادة باستكشافاته العظيمة ؛ أو تمادوا فافتئوا غلهم فى قدحه ؛ فعلى سبيل المثل انبرى رجل يدعى كابتن بوتيشار ، ووضع بحثا يبين فيه أن تل هيسارليك كان مدينة ضخمة للموتى ، ومن المحتمل أنها فارسية الأصل ، فأنفق شليمان رزما من الورق فى هدم هذه النظرية الهازلة ، وكان من عادته أن يزأر كأسد جريح عند أقل إهانة ، ولم يسبق للدوق حاكم مكلنبرج قط أن أقر أى إهداء ، فأرسل شليمان برقية ـ كان شغوفا بالبرقيات ، ونصفها كان كالمتفجرات ، والنصف الآخر كصفحات نزعت من محاضر الجلسات التى تعقدها مجالس الإدارة ، فسمح الدوق الحاكم لنفسه بأن يسرف فى سك مدلاة ذهبية تـكريما لشليمان ، ومن ثمة عادت المياه إلى مجاريها واستتب السلام .

ونحى علم الآثار جانبا عـدة شهور ، وبدلا من شليمان عالم الآثار الذى طبقت شهرته الآفاق ، برز شليمان رجل الأعمال ، وراح يطوف حـول العالم ليطمئن على سلامة ممتلـكاته وأمواله المستغلة ، وكان يملك ضياعا كبيرة فى كوبا ، ومن ثمة قام برحلة عجلى إلى هافانا ، كذلك كانت له أملاك فى مدريد وبرلين ، فأقلع على عجل لتفتيشها ولعقد مؤتمرات يدافع فيها عن نظرياته المتعلقة بأصل طروادة ، واغتبط بالمال لما هيأه له من قدرة على السفر إلى أية بقعة على الأرض فى أية لحظة يشاء .

وكان آخذا فى التغيير من الناحية البدنية ، وأخذ جسمه بجلده المشدود الذى لوحه الطقس ، وجبهته الضخمة الشبيهة بالبصلة ، وشـاربه الـكث الـكئيب ، يأخذ هيئة المومياء ، وكاد يصـاب بالجنون من فرط أوجاع أذنيـه ، وأحيانا كانت شفتاه تختلجان ، ويداه تهتزان ، ولسانه يتهته بكل اللغات التى يعرفها ، والآن بات حتما عليه أن يتبع نظاما خاصا صارما فى التغـذية ، وكان يستيقظ مبكراً ويستحم فى البحر ، ويتناول فطوره المكون من ثلاث بيضات وقدح من الشاى الخفيف ، ويطالع الصحف وتقارير بورصة العقود ، ويقوم بتصريف المراسلات ،

www.ibtesama.com/vb

ثم يطالع ثلاثمائة بيت من هوميروس وسوفوكليس ويوروبيدس ، ـ فلما كان يطالع أفلاطون ويبدو أنه لم يهتم قط بأرسطو — ويعقب ذلك وجبة الغداء ونزهة قصيرة ومزيد من الدراسة ، وفى المساء يتردد عليه الزوار عادة ، وفى العاشرة مساء يكون بفراشه ، ولكنه كان يعانى من الأرق ، وأحيانا كان يطالع فى أثناء الليل .

وكلما تقدمت به السن أولى أحلامه عناية خاصة ، فلا يفتر عن تحليلها باهتمام . وكان يضطرب بشدة كلما حلمت صوفيا بالغربان وأعواد الفول أو بضيوف من خارج البلاد ، فعنده أن هوميروس كان يتكلم بلسان قدماء الآلهة الأصيل ، ومثله الأحلام ، وكذلك الذهب ، ففى تلك السنين حين بدأ فى طريق الانحدار البطىء من هذا العالم ، لم يكن لديه من مباهج الحياة سوى القليل غيرها .

ومع ضمور البدن ، وتفاقم أوجاع الأذنين ، وارتعاشه من رياح أوربا القارصة ، قرر أن يقضى بالجنوب ما بقى فى حياته من فصول الشتاء ، واجتذبته مصر إذ كان قد قرأ كثيراً من تقارير علماء الآثار الإنجليز والفرنسيين الذين قاموا بالتنقيب بالأراضى المصرية خلال ثلاثة أجيال ، ولم يكن بينهم من له مثل عبقريته ، ولا كان بينهم من اكتشف كنوزاً عظيمة من الذهب ، وقد شك فى القدر الضئيل من معرفتهم لعلم الآثار ، وسمح لنفسه أن يفكر فى الاستمتاع ببعض التنقيب فى القطر المصرى .

وإذ كان عام ١٨٨٦ مشرفا على الختام ، قرر أن يقضى ثلاثة شهور فى سياحة مرهقة على النيل ، غير مصطحب سوى كاتم سره ومجموعة كبيرة من الكتب باليونانية والعربية ، وكانت مهمة كثيرة التكاليف ، فقد استأجر « دهبية » فخمة فسيحة مترفة التأثيث بكل وسائل الراحة المعروفة فى ذلك الوقت ، بأجر قدره نحو أربعين ألف ريال ، وأحياناً حين إبحاره إلى أعلى النيل بعد أطلال ضيبة ومعابد البطالمة ، كان يأمر بالتوقف ، ثم ينزل إلى الشاطىء ، ويروح يتجول بسوق إحدى القرى ،

www.ibtesama.com/vb

وكان يميل للتحدث بالعربية إلى القرويين ، وكان يحلو له أن يمدهم ببعض المراهم لعلاج أوجاعهم ، وأمر صبية مصرية : كانت تعانى من مرض الفالج ومن ورم بالكتف ، أن تستحم مرتين يوميا فى النيل ، ومعالجة الكتف ببذر الكيتان وبعض أعشاب ساخنة ، ولكن النتيجة لا يعرفها أحد ، وكان ينفر من بحارة السفينة لقذارتهم وخيانتهم ، وقد أحب النوبيين بوجوههم المنحوتة السمراء اللامعة ، وهم وحدهم ، من بين الأقوام التى قابلها ، يشبهون الأبطال .

وعزم على الإبحار حتى وادى حلفا ، وهذا المركز الصغير على الحدود الذى يبين التخوم الجنوبية لأملاك الخديوى ، وكان يقوم بالحفر أحيانا ، ويفكر كثيراً فى كايو بترا ، ويقيس أعماق النيل ، ويدرس تجمعات السحب ، ويستخدم اتجاه السحب العالية لمعرفة طقس اليوم التالى ، وكذلك كان يسجل درجة الحرارة فى كل يوم ، كما فعل دائما ، وينسخ كتابات تأتى عرضا ، ويذرع ظهر السفينة فى قلق مع هدوء غريب ، ولشد ما كان ابتهاجه حين يقرأ هوميروس ، وكل منغصات مصر ينساها إلى حين .

وضايقه أن السلطات العسكرية البريطانية بالقاهرة لم تبد أى اهتمام خاص بحضوره ، فمال لمشاركة المصريين الوطنيين فى مشاعرهم ضد غزاتهم ؛ وحين وصل إلى أسوان أرسل كاتم سره إلى الشاطىء ليخطر الموظفين الوطنيين بحضوره ولكنهم لم يكونوا قد سمعوا عنه قط ؛ ولم يكونوا مستعدين لأن يخصوه بأى لون من ألوان التكريم ؛ فعاد كاتم السر صفر اليدين ؛ فاستبدت الدهشة بشليمان إذ لم تخترق شهرته مكاتب رجال الحكم المصريين فى أسوان ؛ ومن ثمة راح يحرق الإرم وأقسم ألا ينزل إلى الشاطىء ما لم يحضر وفد لتحيته والترحيب به .

وكانت أسوان ؛ خلال ذلك الشتاء مكتظة بالسائحين ؛ الذين حلوا غداءهم

www.ibtesama.com/vb

من قوارب النيل التجارية ؛ وراحوا ينبشون الرمال بحثا عن الخرز وحبات المسابح ؛ وارتاد المكان آلاف من هواة علم الآثار ؛ ولكن كان هناك أيضا عدد من شباب علماء الآثار المكرسين ؛ ومن بينهم كان أ . والس بدج (Wallis Budge) ؛ الذى كان حينذاك غير معروف نسبيا ؛ وكان قائما ببعثته الأولى إلى مصر على حساب المتحف البريطانى ، وكان رجلا سمحا متوقداً مكتنز الجسم ! وكانت مهمته فى ذلك الوقت أن يحصل للمتحف على نواويس حقيبة بها كتابات بالخط الكوفى ؛ إذ كانت أسوان مكانا يحج إليها الناس فى السنوات الأولى التى تلت الهجرة .

وحالما سمع أن سليمان قد امتهنت كرامته ؛ قرر أن يفعل كل ما فى استطاعته ليرد إليه اعتباره ، فاصطحب اثنين من أصدقائه واستقلوا قاربا إلى « الدهبية » فحياهم كبير الخدم ، وتقدمهم إلى قاعة كبيرة للاستقبال فى مؤخر السفينة ، فقدمت القهوة ، وأشعلت السجائر ، وسرعان ما دعا الإنجليز الثلاثة سليمان لزيارة المقابر الإسلامية التى تم الكشف عنها حديثا ، وعندئذ حدث أمر غير عادى ، فقد وقف سليمان جامداً منتصباً ، وأظهر أنه غير راغب البتة فى مشاهدة عملهم .

ولقد خاطبهم قائلا : « إنه لكرم عظيم منكم أن تبدوا مثل هذا الوداد ، وإنى لأرغب فى أن أضع معرفتى بعلم الآثار تحت تصرفكم ، وأن أجلو لكم ما استغلق عليكم من المقابر ، ولكن ليس لدىّ وقت لأنى ذاهب إلى وادى حلفا . »

وساد الصمت برهة ، بعدها تناول سليمان ، دون أن يتفوه بكلمة أخرى ، نسخة الإلياذة المغلفة بالورق ، فى أصلها اليونانى ، التى كان يطالع فيها ، حتى قطع عليه الإنجليز حبل استرساله ، وكان قد كفأ الكتاب ببساطة فوق حشية حين تحدثه معهم ، وراح يستعد لتناوله ثانية عند أول فرصة ، فروع الإنجليز ، وطلب الماجور بانكت ، المرافق لوالس بدج ، « بصوت

www.ibtesama.com/vb

عذب شجى » الإذن بالانسحاب ، فأذن لهم وعادوا إلى أسوان ، وهم مبهورون لشعورهم أنهم قد أبصروا أشهر عالم آثار فى العالم ، وأزعجهم كل شىء أبصروه .

كان مثل هذا السلوك غير عادى ، ولعله يعود إلى الصداع الذى كان يلازمه ، والذى جعل الأعوام الأخيرة من حياته يائسة شقية ، ولدينا لمحة عن شليمان من عالم آثار إنجليزى فى العام التالى ، ومرة أخرى راح شليمان يشق بسفينته عباب النيل منحدرا ، وبرفقته رودلف فيرشو ، وكان معتدل المزاج « إذ زايله وجع الأذن ، فطاف ساعات بين أعمدة الكرنك ، وتفقد « اللابرنث » المترامى الأطراف الذى كان فلندرز بترى قد وضع له خريطة فى العام السابق .

وكان بترى شابا من علماء الآثار ، تأثر شليمان بأعمال التنقيب الشاقة التى قام بها على موقع اللابرنث ، الذى كان يوما ما أعظم بناية فى العالم ، بساحاته الاثنتى عشرة ، وحجراته الثلاثة آلاف ، نصفها تحت الأرض ، وعلى حد وصف بترى لها ، كان شليمان « قصير القامة ، كروى الرأس ، مستدير الوجه ، مسطوح القبعة ، له عينان جاحظتان مستديرتان ، يتطلع بهما من وراء نظارة كبيرة ، وكان موفور المرح متشبثا بالعقائد ، ولكنه كان على استعداد دائم للتسليم بالحقائق » ، أما فيرشو فكان أقل لطفا — « فهو رجل هادئ حلو الوجه له لحية رمادية ظريفة ، ولكنه على الرغم من ذلك حاول الإساءة إلى عملى »[1] وهذا آخر رسم تقريبى مصغر لدينا لشليمان ، ولاستكمال قصة السنين الباقية من حياته لابد من أن نعود إلى خطاباته وكلمات التأبين التى قيلت عند موته .

ولم يكن قد تبقى له سوى ثلاثة أعوام ، أعوام من الخيبة والإخفاق وعدم

---

(١) سير فلندرز بترى ، سبعون عاما فى عالم الآثار ، لندن ، وسمبسون لو ، مرستون ١٩٣١ ، صفحة ٨٣ .

www.ibtesama.com/vb

القيام بأى عمل مجيد يرضى تعطشه إلى الشهرة ، وفى عام ١٨٨٨ قام بالعمل فترة قصيرة على جزيرة سيثيرا ، حيث ظهرت أفروديتا لأول مرة بين البشر ، وكشف عن معبدها بكنيسة هجيوس كوسمس البيزنطية ، فأرسل برقية مطولة إلى صحيفة التيمس بلندن ، معلنا أنه وفق إلى كشف فى الدرجة الأولى من الأهمية ، يقف على قدم المساواة مع اكتشافاته فى هيسارليك وما يكناى ، ولكنه لابد قد فطن إلى أنه كان فى هذا بالغا حد السرف ، وقام فى نفس العام بالتنقيب فى بيلوس ، وعلى جزيرة سفكتيريا ، حيث كشف النقاب عن الحصون القديمة التى ذكر ثيوكيديديس أن الأسبرطيين اكتشفوها واستخدموها عام ٤٢٥ قبل الميلاد ، وما من شك أن هذه مكتشفات هامة ، ولكنها لا تقارن بأعظم مأثرتين له ، وهفت نفسه لتحقيق نصر آخر ، وراودته الأحلام فى الكشف عن مدينة كنوسس الملكية ، وقد كتب فى أول يناير عام ١٨٨٩ يقول : « أود أن أنهى أعمالى فى الحياة بمأثرة عظيمة واحدة — قصر ملوك كنوسس المشيد قبل التاريخ — ولكن يبدو أنه تكهن بعجزه عن تحقيق هذا النصر .

ومنذ مارس عام ١٨٨٣ ، حين طلب لأول مرة حق التنقيب فى كنوسس ، قوبل بالرفض المتكرر من ملاك الأرض ، وزار كريت ثم أرسل وكلاءه إلى هناك ، ولكن دون جدوى ، والآن فى ربيع عام ١٨٨٩ قرر أن يقوم بآخر محاولة لشراء الأرض ، فذهب مع دوربفلد وكان مستعداً أن يدفع ثمنا مرتفعا ، وطلب الرجل الذى ادعى ملكية الأرض مائة ألف فرنك ، بما فى ذلك ثمن ٢٥٠٠ شجرة زيتون مزروعة هناك ، فعرض شليمان أربعين ألف فرنك ، وأخيراً تم الاتفاق على شراء الأرض بمبلغ خمسين ألف فرنك ، وفى آخر لحظة ، قبل توقيع العقد ، قرر شليمان أن يعد أشجار الزيتون ، فإذا بعددها ٨٨٨ شجرة فقط ، فاستشاط غضبا وأعلن أنه لا يستطيع توقيع عقد مع رجل كذب فى ذكر عدد الأشجار التى يمتلكها .

ولكن الأمل فى نجاح المفاوضات كان لا يزال يداعب دوربفلد ، الذى

www.ibtesama.com/vb

لم يكن متأهبا للتسليم بالقضاء على المفاوضات بهذه السهولة ، فقام بالتحرى واكتشف أن (حاج واكس) الرجل الذى ادعى ملكية التل ، لا يملك فعلا سوى الثلث فقط ، فتجددت المفاوضات مع مالك الثلثين الباقيين ، وانتهت بنجاح ، وحرر عقد آخر ، وعد شليمان فيه أن يعطى المالكين ثلث ما يعثر عليه من كنوز ، ولم يبق سوى توقيع (حاج واكس) على العقد ، ولكن التركى رفض ذلك ، وتراشق الطرفان بالتهم والسباب ، وأخيراً وجد شليمان أنه لا جدوى من الاستمرار فى المفاوضات ، وكتب إلى فيرشو يقول : « كانت رحلة فظيعة ، لم نفد منها شيئا »[1] .

وإذ دهمته الشيخوخة ، عاد إلى ولعه الأول ، فعقد فى ذلك العام أول مؤتمر عالمى عن آثار طروادة القديمة ، دعا إليه العلماء من أنحاء العالم ، ليشاهدوا الأشياء التى كشف عنها الستار ، واصطحبهم داخل الأطلال ، وروى لهم قصصا عن تلك الأيام البعيدة الخالية ، التى سبقت حفر التل إلى أنفاق وشرفات عظيمة ، وكان لا يزال يتحدث بانفعال عن مزيد من أعمال التنقيب ، خاصة فى كريت ، ولكنه كان يتوغل فى الشيخوخة مسرعا ، وفى صورة فتوغرافية أخذت له هذا العام ، يظهر وعلى وجهه تعبير مسترحم عجيب ، فهو يبدو شقيا مهيض الجانب ، وفيه ما يوحى بكاتب معمر بعد خدمة شاقة طوال حياته ، مع قسمات متخاذلة معدومة الرجاء ، وقلما صانعته الصور الفتوغرافية ، ولكنه كان لا يزال متمتعا بنصيب من القوة ، وكذلك كان لا يزال يتسلق بين الخرائب كظبى صغير .

---

(١) لم يصف شليمان قط المفاوضات بإسهاب ، وقد نقلها عن الرواية التى ساقها سير أرثر إيفانس بهذا الخصوص ، فهو الذى اشترى العقار فى النهاية ، وقد لاقى إيفانس بعض المشقة فى اكتشاف ما قد حدث بالضبط ، وهو يروى القصة فى مدونته بتاريخ ٢٢ مارس عام ١٨٩٤ ، المطبوعة فى جون إيفانس « الزمن والفرصة » : (قصة آرثر إيفانس) لندن لونجمانز جرين وشركاه ؛ ١٩٤٣ ص ١١٣ .

www.ibtesama.com/vb

وفى العام التالى كان بطروادة يعقد مؤتمره الثانى ، وحضره العلماء ، فتحدث إليهم فى رفق ، ودون أن يبرق ويرعد كعادته ، ضد كلالهم وتخلفهم وغلهم ، وفى يوم ما قرر أن يقوم برحلة إلى جبل ايدا ، كى يستطيع أن يملى بصره بطروادة مرة ثانية ، ولكنه عدل عن الرحلة حين وصل مع صحبه فى المساء إلى قرية عند سفح التل ، وراح يشكو من الصمم ومن ألم مبرح بالأذن ، ففحص ڤيرشو الأذن ووجد ورما كبيرا بالقناة السمعية ، واقترح عودة سريعة إلى طروادة .

وذكر ڤيرشو أنه كانت هناك محاولة واحدة أخيرة لتسلق جبل ايدا ، وحينما أنهى المؤتمر أعماله عزم شليمان على القيام برحلة فى الوادى لمدة سبعة أيام ، فامتطوا الجياد ، وحين وصلوا إلى سفح جبل ايدا ، قرر شليمان ألا يدع الفرصة تفلت من يده ، فلابد أن يجلس مرة ثانية على عرش زيوس ، ويتطلع من عل إلى السهل المحبوب ، وكانوا على كثب من قمته حين هبت عاصفة ، وكانت عاصفة لم يلاق شليمان مثلها إلا نادرا ، امتلأت أركان السماء الأربعة خلالها بهزيم الرعد ولمعان البرق ، فتواروا تحت الصخور للنجاة من العاصفة ، ولكن المطر كان ينهمر أفقيا ، فنقمهم الماء كأنه الطوفان ، ثم انقشعت العاصفة ، وفى الضوء الذى نقاه المطر ، راح شليمان يتطلع للمرة الأخيرة إلى سهل طروادة ، والهلسبونت ، وجزائر بحر إيجة ، وساموثراكا ، ولمنوس وتينيدوس ، وساحل البحر الطويل الممتد إلى ساميرنا ، ومثل موسى ، حين رأى أرض الموعد من بعيد ، نزل من الجبل .

وانفض المؤتمر ، ولكن العمل سار فى مجراه ، دوربفلد يقوم بالنصيب الأكبر من الإشراف عليه ، وكان دوربفلد كعادته يصر على أن يأخذ صوراً فتوغرافية لكل شىء ، ويعنونه ، ويصنفه ، ويفحصه بدقة قبل أن يلقى به فوق تل القمامة ، وأحيانا كان شليمان يشكو متضررا من ضياع الوقت ، ولكن كان ثمة جزاء بين الحين والحين ، مثل شظايا خزف ما يكنى الرمادى ،

www.ibtesama.com/vb

برسومه من كئوس الفروسية المميزة ، التى عثر عليها خلال هذه الأيام الأخيرة ، وكشف النقاب عن مزيد من أسوار الحصون ، وسرعان ما وجدوا بناية مكونة من كتل هائلة من الأحجار مقامة واحدة فوق الأخرى ، وشابهت ترينس ثانية، وللمرة الثانية بدأ شليمان يؤمل أن ينكشف له رسم طروادة الهوميروسية بأكملها قبل موته ، وتحدث إلى ڤيرشو دور بفلد فى مرح كيف سيتم كشف طروادة الهوميروسية بأكملها فى الربيع التالى ، وكانت الرياح الحارة فى تلك الأثناء تعصف عبر السهل وأصيب بعض العمال بالحمى ، واستمر شليمان يشرف على أعمال التنقيب ، رجل أعجف ، يلبس خوذة شمس . يبتسم فى يسر واكتئاب .

وبغتة عند نهاية يوليو ، قرر التخلى عن أعمال التنقيب حتى العام التالى ، وفى أول أغسطس عام ١٨٩٠ عاد إلى أثينا : المنزل الحجرى العظيم ، والأطفال يشبون عن الطوق ، والمنضدة مكدسة بمذكرات عن عمل العام ، ووجود صوفيا الدائم الشفاء لتخفيف أعبائه ، ولم يعرف حينذاك أنه لن يرى طروادة ثانية .

وفى أثينا كان لا يزال قلقا . ولا يزال يسير فى ركاب أحلامه ، وكتب إلى فيرشو أنه فكر فى زيارة جزائر أطلنطس والقيام برحلة إلى مكسيكو — لعله يجد هناك فى مكان ما آثار أوديسيوس — وكان واثقا أنه يستطيع العثور على أطلنطس فى جزائر كناريا ، ألم يعلن هوميروس نفسه أن هذه الجزائر تستمتع بربيع دائم؟ ثم لابد من إتمام الكتاب عن أعمال التنقيب الحديثة بطروادة ، وسيعقد مؤتمر علمى آخر ، ويقضون كل الربيع والصيف فى طروادة .

ولم يعد يقاسى من وجع الأذن . فالورم قد زال ، وقد لا تكون ثمة حاجة لإجراء عملية جراحية ، ونصح ڤيرشو بإرجاء العملية أطول وقت ممكن ، وقدر شليمان النصيحة وحفظ الجميل ، وحين ذهبت صوفيا إلى ڤيينا لزيارتها ، حام كشبح حول المنزل ، وكان ذلك فى يوم ما من أواخر شهر سبتمبر تقريبا ، فتذكر أنهما لم يحتفلا قط بعيد زواجهما السنوى فى أثينا ، ومن ثمة كتب لها خطابا مطولا باليونانية القديمة ، يقرعها لغيابها :

www.ibtesama.com/vb

« إنى فخور بهذا اليوم ، ولهذا أدعو أقرباءك ، وأضرع إلى الآلهة أن تسمح لنا بالاحتفال سويا فى العام التالى ، فقد عشنا معاً فى صحةوسعادة مدة واحدوعشرين عاماً ، وحين أتطلع إلى الوراء نحو تلك السنين الكثيرة ، أجد أن الأقدار منحتنا الكثير من حلو الحياة ومرها ، ولا أستطيع قط أن أوفىزواجنا حقه من الاحتفاء به ، فأنت دائما زوجتى الحبيبة ، وأليفتى ومرشدتى فى الشدائد ، ورفيقة أمينة ودودة فى المسرات ، ودائما أم لانظير لها ، ولهذا تبهجنى دائماً فضائلك ، وبحق الإله زيوس ! سأتزوجك ثانية فى الآخرة ! » .

ونحو ذلك الوقت قرر الذهاب إلى عيادة فى هال (Halle) ، كان ڤيرشو قد امتدحها له ، وعادت صوفيا أدراجها إلى أثينا لمساعدته فى حزم حقائبه ، ويبدو أنه أحس بعض النذير بقرب منيته ، إذ احتواه هدوء مهيب غير مألوف ، وناقش وصيته مع مديرى المصرف ، ومرة حين كان يطوى ملابسه ويضمها فى حقيبة كبيرة ، سمعه البعض يقول : « بودى لو عرفت من سيرتدى هذه الملابس » وانقضت تلك الحالة النفسية الطارئة ، ولكنه أحيانا كان يكتب فى رسائله أن ثمة شعوراً غريباً من التبلد والقلق المكتئب كان يداهمه ، وأرادت صوفيا أن ترافقه فى رحلته ، ولكنه قال إنه لن يتغيب أكثر من ستةأسابيع ، وإن الأطفال فى حاجة إلى رعاية ، وفى اللحظة الأخيرة ، حين كان فى طريقه إلى القطار ، جذبته صوفيا إليها وهى تمسك بسلسلة ساعته ، فيبدو أنها أدركت أنها لن تراه قط مرة ثانية .

ووصل إلى هال فى أوائل نوفمبر ، وكان شتاء قارصا ، والجليد يتساقط خارج نوافذ العيادة ، وفحص الأطباء أذنيه ، ونصحوا بإجراء جراحة فيهما ، وفى اليوم التالى أجريت الجراحة وهو ممدد على منضدة مغطاة بمشمع أبيض ؛ كانت تشبه ، على حد ما ذكره لصديق له بعد ذلك ببضعة أيام « إحدى المناضد التى تستخدم لتشريح جثث الموتى » وقد استمرت الجراحة ساعة وثلاثة أرباع الساعة .

www.ibtesama.com/vb

وحققت الجراحة نجاحا كاملا ، كما ذكر الأطباء ، ولكن شليمان ساورته بعض الشكوك ، وشعر بالتعاسة ، فقد حرم عليه استقبال الزائرين ، وكان وهو معصوب الرأس ، محاطا بالكتب ، لا ينقطع عنه سيل المراسلات ، وكتب إلى دور بفلد يسأله العفو عن كل ما ارتكبه من آثام ، ويطلب منه أن يصارح أحدهما الآخر وجها لوجه ، فيما لو شجر بينهما خلاف أو شبه خلاف ، وعندما تسلم خطابا من زوجته كتب إليها يقول : « إلى أعقل النساء طرا — أطالع بجفن ندى ما سطرته يداك » .

وعلى الرغم من أن الأطباء أعلنوا أن الجراحة ناجحة ، فقد عاد الألم أشد فظاعة مما كان ، وبدا أن السمحاق أصابه العطب ، وأن الالتهاب انتشر بالأذن الداخلية ، وقرر مغادرة المستشفى ضاربا بنصيحة الأطباء عرض الحائط ، وتسلم صندوقين صغيرين بهما العظام التى انتزعت من أذنيه ، ثم ذهب إلى ليبزيج لزيارة ناشريه ، وإلى برلين لزيارة ڤيرشو ، الذى وجده معتدل المزاج على الرغم من صممته المطبق ، وذكر شليمان صديقه ڤيرشو بوعده للمجىء إلى جزائر كناريا فى أوائل الربيع ، ثم استقل القطار إلى باريس .

ووصل إلى باريس فى الخامس عشر من ديسمبر ؛ وهو من أبرد أيام فصل الشتاء ، فوجد ست رسائل تنتظره من صوفيا الوفية ، التى كادت أن تخرج عن اتزانها من فرط الاضطراب ، وقد قدر أن يصل إلى أثينا على عيد الميلاد ، ويتبقى لديه بعض الوقت لزيارة متحف نابولى حيث كانت أعمال التنقيب الحديثة فى بومبيا قائمة على قدم وساق ، وصرح لزوجته أن عودة الألم إليه كان نتيجة خطأه ، إذ نسى أن يضع فى أذنيه سدادتين من القطن ، وهو بعربة القطار المعرضة لتيار الهواء ، حين كان مستغرقا فى مطالعة كتاب « ألف ليلة وليلة » فى أصله العربى ، وفى آخر كتاب له إلى ڤيرشو كتب يقول : « فلتحى الإلاهة بالس أثينا ! فنى القليل أستطيع أن أسمع ثانية بالأذن اليمنى ، وستتحسن الأذن اليسرى » .

وكانت بالس أثينا وجميع آلهة اليونان قد حافظوا عليه طوال حياته ، أما الآن فستعود الآلهة أدراجها أخيرا إلى سحب أوليمبوس ، وصرحوا له أن يشاهد

www.ibtesama.com/vb

الكنز لآخر مرة ، ولكن لبرهة قصيرة ، بعد ظهر أحد أيام الشتاء ، وكان محموما يقاسى من حرارة مرتفعة ، والطبيب إلى جانبه وهو يتوجع .

وحين وصل إلى نابولى كان يحتضر فعلا ، فالألم مبرح ، وقد أنهكته رحلته من باريس التى استغرقت يومين ، وحين تفاقم الألم استدعى طبيبا وشفعه بآخر ، وثمة سفينة كانت فى انتظاره ، ولكنه كان من فرط مرضه عاجزا عن القيام بالرحلة البحرية ، وأبرق إلى أثينا يطلب من صوفيا إرجاء حفلات عيد الميلاد ، ثم ذهب لزيارة طبيب آخر ، عرفه وتحدث إليه فى اهتمام عن علم العاديات واقترح القيام بنزهة إلى بومبيبا .

واندس شليمان فى معطفه الكبير ، وانزوى فى ركن العربة خلال الرحلة الطويلة حول الخليج ، فى ظل بركان ڤيزوف ، وشاهد بومبيبا ، وبهو الأعمدة ، والطرق التى عبدتها المركبات الرومانية ، والساحات التى كان يقف فيها بائعو الخمر منذ ألفى عام — كانت جميعها كما توقع أن يجدها — ثم عاد إلى حجرته بالفندق وأرسل مزيدا من البرقيات ، معلنا أنه سرعان ماسيأخذ طريقه إلى أثينا ، وراح يقاتل الألم العنيف الذى دهم أذنيه .

وفى يوم عيد الميلاد كان يعبر ساحة (بياتزا ديللا سانتا كريتا) ، فى طريقه إلى مكتب البريد على الأرجح ، فتهاوى بغتة فوق الحصباء ، دون أن يفقد الوعى ، وعيناه مفتوحتان ، فأحاط به حشد من الناس ، راحوا يسألونه عما به ، ولكنه لم يستطع إلا أن يومىء برأسه ، إذ كان قد فقد قوة النطق .

وحمله رجال الشرطة إلى المستشفى ، ولكن إذ كان فى ظاهر الأمر صحيحا معافى ، غير مصاب إلا ببهر ، وخرس عجيب ، فقد رفض المستشفى قبوله ، وقر الرأى على حمله إلى مركز الشرطة ، وهناك قاموا يتفتيشه بحثا عن أوراق أو نقود فلم يجدوا معه شيئا ، ووجدوا عنوان طبيبه الذى استدعى وتعرف فورا

www.ibtesama.com/vb

على مريضه ، وقد تحير رجال الشرطة ، فالمريض ، من ملابسه ، يبدو رقيق الحال. فلم هذا الجزع الذى يبديه الطبيب ؟

فقال الطبيب : « كلا ، إنه ثرى ، فقد شاهدته ممسكا بكيس ملىء بقطع النقد الذهبية ! » .

ثم تحسس الطبيب ما تحت قميصه وانتزع كيسا ثقيلا مليئا بالذهب .

وحملوا شليمان إلا فندقه ، وهو لايزال فى وعيه ، محتفظا بكافة حواسه وملكاته العقلية ما عدا النطق ، وفى الفندق انفثأت الأذن ، ولكن المرض كان قد أصاب المخ ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله سوى القليل ، وقضى ليلة هادئة ، وفى اليوم التالى تبين أن جانبه الأيمن بأكمله قد شل ، ودار حديث حول القيام بعملية تربنة الرأس ، فاستدعوا ثمانية من الأخصائيين ، وبينما هم فى حجرة أخرى يناقشون الخطوات التى يستطيعون القيام بها ، مات هادئا فى فراشه ، وقد ظل بكامل وعيه حتى النهاية .

فأبرقوا إلى أثينا وبرلين ، وسرعان ما كان دور بفلد وشقيق صوفيا الأكبر فى طريقهما إلى نابولى لمرافقة الجثمان فى عودته إلى أثينا ، وفى يوم الأحد الموافق الرابع من يناير عام ١٨٩١ ، بعد وفاته بتسعة أيام ، وضع التابوت بالساحة الكبرى بقصره فى أثينا ، حيث كان الأربعة والعشرون إلها من الرخام ، يتسامقون نحو العلاء ، وحضر الملك جورج وولى عهده قسطنطين لتقديم تجلتهم ولوضع أكاليل الزهر بجانب التابوت ، وانهالت رسائل التعزية من كل أنحاء العالم .

وكان قد تخير منذ زمن طويل المكان الذى يدفن فيه ، فقد آثر أن يدفن بمقابر اليونانيين الذين أحبهم ، جنوبى اليسوس (Ilissus) فى مقبرة تليق بأحد الأبطال ، فمن هناك تستطيع روحه غير المستقرة أن تطلع إلى الأكروبول ومياه خليج سارون الزرقاء ، وتلال ارجوليس البعيدة ، وكان ملوك مايكناى

www.ibtesama.com/vb

وترينس قد ووروا التراب خلف تلك التلال ، وفى الختام بات على كثب من الأبطال الذين عبدهم ، وقد راحت أكثر الإلاهات فتنة ، أثينا ذات العينين الصافيتين ، تشخص إليه ببصرها من أطلال بارثينون فوق الشواطىء الصخرية الوعرة .

وبموته بدأت حياته الجديدة ، فالرجل الذى كان يتحسس الذهب ويستخرجه من باطن الأرض ، كان أسطورة وهوحى ، ولكنه حين مات زادت هذه الأسطورة تأصلا وغرابة ، فقد تناسى القوم ثوراته وتغطرسه وضروب شذوذه المحير . ولم يذكروا سوى إيمانه بهوميروس وإصراره الهائل على إزاحة النقاب عما فى باطن الأرض من خفايا ومعميات ، وأصبحت رذائله ضروباً من الفضائل — أنانيته لاتزيد على أن تكون كبرياء فطريا ، ومبالغاته تطرفا مقبولا من رجل نافد الصبر فى سبيل الاستكشاف — ونسى القوم أنه ظل حتى نهاية حياته محتفظا بالعادات التى جعلته كاتب مصرف موفقا ؛ وقال متى أرنولد إن هوميروس كان فائق السرعة ، فائق البساطة والاستواء ، فائق النبالة ، وشليمان على النقيض من كل هذا — فهو بطىء ، محاذر ، معقد ، ملتو ، دائم العجب وسوء الخلق ، معدوم النبالة الفطرية .

ولكن الأسطورة التى وصفته كرجل لا تقهر روحه ، واقفا فوق حصون طروادة ، معلنا حرباً لاهوادة فيها ضد أعدائه ، كان نصيبه من الصدق كافيا لوضع الثقة فيه ، وحين كان التابوت موضوعا على منصدة بساحة قصره ، كان تمثال نصفى لهوميروس موضوعا عند رأسه ، وفى هذه الإيماءة كان ثمة شىء يليق بالوضع إلى حد يثير العجب ، على الرغم من أن شليمان لم يستكشف ، طوال حياته ، أى شىء يعود فى تاريخه إلى عهد هوميروس .

وهكذا أصبح فى النهاية أحد الرواد العظام ، الرجل الذى شق الطريق ، أول علماء الآثار ، إذ كان عدواً لعلم الآثار النظرى القديم ، الخيالى المحض الذى فتح

www.ibtesama.com/vb

النوافذ على مصاريعها وأدخل الهواء طلقا ، وفى رحلته كان يسير على هدى من الأمل والأحلام ، ولم يكن قصى البعد عن أبطال هوميروس الذين افتتن بهم منذ أن كان طفلا ، وكان به من العظمة أكثر مما عرف عن نفسه ، ولم تكن هى العظمة التى كان يزاولها . ويصور هوميروس الآلهة ككائنات ترى كل شىء ، غريبة فى تباعدها عن الأرض ، تمارس ضربا من الحب الهازل ، وكانت حاسة السخرية هى الصفة الإلهية الوحيدة التى أعوزته .

وبعد وفاة شليمان بأيام قليلة كتب جلاد ستون ، الذى كان حينذاك فى الحادية والثمانين من عمره ، بيد مرتعشة كتاب تعزية إلى صوفيا ، ووصف مدى شعوره العميق بقوة عبقرية شليمان الخاصة ، ووصف فى فقرة واحدة طبيعة النصر الذى أحرزه شليمان فكتب يقول :

« لقد أعادت حماسته إلى الوجود روح الفروسية القديمة بصورة كاملة النقاء لا تخضبها نقطة واحدة من الدماء ، وكان لابد أن يلاقى فى المراحل المبكرة من عمله ضروبا من العبوس وعدم الاكتراث ، ولكن هذه وتلك كانتا تنقشعان حتما ، كلما تجلت قوة اكتشافاته ، كما تنقشع الغيوم عن وجه الشمس ، ولا يقل تاريخ صباه وشبابه روعة عن تاريخ الشطر الأخير من حياته ، وحقا لا يمكن الفصل بين الشطرين ، فثمة هدف واحد وغرض واحد كانا يحركانهما على السواء من البداية للنهاية ، وأى من مروءته دون نشاطه ، أو نشاطه دون مروءته كان حريا أن يكسبه ذيوع الاسم ونباهة الذكر ، فلما اتحدا كانا فى اتحادهما مثار العجب العجاب » .

* * *

« روح الفروسية بصورة كاملة النقاء ، لا تخضبها نقطة واحدة من الدماء » .. ما كان شليمان ليرضى بهذا التعبير ، ولكنه كان يؤثر أن يقول إنه كسا الأبطال

www.ibtesama.com/vb

القدماء باللحم وأمد شرايينهم بالدماء ، ألم يخرجهم من القبور ويبعثهم أحياء ينطقون ؟ فكساحر حرك عصاه السحرية فوق المدن المطمورة ، فبعث فيها الحياة، ونحن نعرف الآن أوائك القدماء لأنه استخدم كل طاقته للوصول إليهم والتشبث بهم ، فثمة أبطال كانوا يوما يذرعون الأرض وهم جسام ، عظام ، غامضون ، والآن لايزالون جساما عظاما ولكن أقل خفاء وغموضا ، فلقد خدم بأما أخيليس النحيل ، وأوديسيوس الماكر ، وهكتور صاحب ريشة الخوذة الراقصة ، ولم يفقد ثقته فيهم لحظة واحدة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

اللهب الدائم

وإذ راح شليمان ، ذلك الشيخ المفتون بالذهب ، ينشد لنفسه ملاذا فى منزل خياله الذى تسكنه الأشباح ، كان يبدو أحيانا كرجل اقتصرت الحقائق عنده على أبطال هوميروس فحسب ، أما ما عداهم من العالم وما فيه فباطل ملعون ، وظل خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته يكتب ويتخاطب باللغة اليونانية القديمة ، وبدا غريبا فى عدم اهتمامه بأى شىء لم تمسه عصا هوميروس السحرية ، وقد قال لصديق : « إن هوميروس وحده من يسترعى اهتمامى ، ولست أبالى قيد أنملة بأى شىء عداه » ولم يكن الأمر مقصوراً على أن هوميروس كان يخاطبه بقوة ألواح الشريعة ، ذلك لأن هوميروس كان بالنسبة له رمزا ، وكلمة سر ، وطريقا للحياة ، وتاريخا للأرض ، ونبوءة عن حياة مستقبلة أكثر نضارة وازدهارا ، ولم يكن شليمان بمجنون ، ولكن الجنون كان أقرب إليه من حبل الوريد ، فثمة ضرب من الخبل كان مستوليا عليه ، فقد كان يعتقد أن حضارة بالغة الإشراق ، عجيبة النقاء ، نشأت يوما ما ، وأنه لما يستحق الاهتمام ولوج هذه الحضارة ولو بمخاطرة التعرض للجنون .

وكان يشارك شليمان فى خبله كثيرون آخرون ، فكيتس ، هو الآخر ، كان يتفرس فى إناء إغريقى للزينة ، وفى لحظة إشراق شاهد القرابين القديمة تقدم أمام عينيه ، وصرح جوتيه وشللر بولائهما لحضارة زالت عن وجه الأرض منذ عهد طويل ، وابتهج الشاعر الشاب فردريك هولدرلن بآلهة اليونان ، كما لو كانت ثمة هياكل لعبادتهم لا تزال موجودة ، وهو كاهن وشماس ومتجول بين الجزر اليونانية التى لم يرها قط إلا فى ضوء مخيلته المتوهج .

وفى أعظم قصائده قام برحلته الخيالية عبر بلاد اليونان للمشاركة فى « العشاء

www.ibtesama.com/vb

الأخير » مع تلاميذ المسيح ، ثم الالتجاء إلى جزيرة بطمس مع القديس يوحنا ، ذلك لأن المسيح ، عند هولدرلن ، هو أعظم الآلهة ، وجميع أبطال اليونان أبناؤه :

الهدوء سمته

في السموات المرعدة ؛ واحد أحد من تحتها
يقف طوال حياته ؛ فالمسيح حي للأبد .
ذلك لأن الأبطال ، أبناءه ، والكتاب المقدس
انبثقت جميعها منه ؛ والبرق يعلن جليا
أن ما بالعالم من أفعال ؛ إنما هي للآن
صراع لا يخبو أواره ؛ ولكن المسيح هناك .
أعماله معروفة لديه منذ الأزل

* * *

وفي النهاية جن هولدرلن ؛ وهو يسعى لاهثا وراء المسيح وآلهة اليونان ؛ ولكنه كان قبل ذلك قد وضع قصائد غنية في موسيقى الإغريق القدامى ؛ وعاطفية في النزعة المسيحية ، حتى صار واحدا من أعظم الشعراء المسيحيين ؛ بينما كان يدين بالولاء للاغريق في الوقت ذاته .

أما عند شليمان فكان الأمر برمته أكثر بساطة ؛ فعلى الرغم من نشأته بدار كاهن أبروشية فقد تنكر لكنيسته المسيحية ؛ وابتعد عنها ؛ واعتبر التوراة من أساطير الأقدمين ؛ وضل طريقه في حنايا العهد الجديد ، لما فيه من ألفاظ يونانية كثيرة لا مرادف لها في اللغة اليونانية ؛ وحين ماتت أم صوفيا ؛ ودخل حجرة الجثمان المسيحي ؛ حيث كان الكهنة يرتلون صلوات الموتى ؛ سمعه البعض يغمغم قائلا : «أوه .. هذا كله هراء ! فليس ثمة بعث ـ هناك خلود فقط !» فالتقاليد الأوربية

www.ibtesama.com/vb

بأ كملها ، منذ وفاة هوميروس ؛ لاتعنى أى شىء عنده ؛ وموسى عبر صحراء سيناء والمسيح مات ؛ والإمبراطورية الرومانية قامت وسقطت ؛ وجاءت نهضة أوربا وازدهرت ؛ ثم تساقطت الأزهار من فوق أعوادها واحدة إثر أخرى ؛ وكل هذا كان فى نظره خاليا من المعنى ؛ فحتى النهاية لم يكن هناك سوى هوميروس : اللهب الدائم .

وبعد وفاة شليمان استمر حمل العمل المثمر الذى كان قد بدأه ؛ ومن كافة أنحاء أوربا تقاطر علماء الآثار المتحمسون على بلاد اليونان والشرق الأدنى ؛ للقيام بالحفر بين الخرائب ، وللمساهمة فى عملية بعث مجتمع بطولى قديم يكاد ألا يتفق فى شىء مع مجتمع عصرهم ، وقد ألقت الاكتشافات فى كريت ومصر العليا ضوءا على الحضارة الإيجية ، وفى سنة ١٨٨٩ ، العام السابق لوفاة شليمان ، اكتشف كريستوس تسونتاس ، ببلدة ڤافيو فى لكونيا ، قدحين بديعين من الذهب ، أحدهما عليه صورة ثور أطبق عليه الشرك ، والآخر عليه ثيران ترعى بين أشجار الزيتون فى منظر خلوى رائع ، ولا بد أن هذين أيضا كانا ضمن مجموعة فنية لأسرة ملكية ، وفى العام التالى اكتشف بمقبرة فى مايكناى جرتين ، تحمل كل منهما ثلاث علامات غريبة على أحد مقبضيها ، ومن ثمة بدأ البحث عن حروف الكتابة بمايكناى .

ولم يسدل على طروادة ستار النسيان ، فقد خصصت صوفيا مبلغا من المال لتيسير مواصلة أعمال التنقيب ، تحت إدارة ولهلم دوربفلد ، وانتهى التنقيب فى صيف عام ١٨٩٣ ، وبعض السبب فى هذا مبعثه الحرارة ،والبعض الآخر مبعثه استنفاد دوربفلد للاعانة المالية ، وفى أغسطس من ذلك العام هرول إلى بوتسدام ، حاملا صورا فتوغرافية وتخطيطات للخرائب أطلع عليها ولهلم الثانى إمبراطور ألمانيا ، وعندما حل فصل الشتاء وصله نبأ سار بأن رئيس وزراء إمبراطور ألمانيا قد تفضل بتخصيص منحة مالية قدرها ثلاثون ألف مارك لأعمال التنقيب ، واستؤنف العمل فى ربيع العام التالى .

www.ibtesama.com/vb

وتوصل دوربفلد إلى اكتشاف مدهش ، فبوساطة فحصه الرسوم ، وتعقبه عمل شليمان الأول ، وجد أن شليمان ضل تماما عن طروادة هوميروس ،التى سويت بالأرض ، فى النقطة التى كان يحفرشليمان عندها ، كى يفسح المجال لمدينة نوقم اليوم Novum Ilium الرومانية ، وكان كل ماتبقى من طروادة بريام ، ركن منزل وامتداد سور حصن ، ظنه شليمان أثرا مقدونيا إذ كان فى حالة ممتازة من الصيانة، ولقد مس طروادة ، ولكنه أخفق عن التعرف عليهاإذ كان يشتغل بسرعة مذهلة كما لو كان مسوقا لإزالة كل شيء غير هوميروس من طريقه .

وقد نشر دوربفلد بعد ذلك وصفا لما قام به من أعمال التنقيب ، فاستعرض بدقة مرهقة الأرض التى كشف عنها شليمان ، وأشار إلى الأخطاء التى وقع فيها، وكتب قائمة بمفردات الكنز المكتشف ، وهو سفر مطول ، له وزنه فى طريقته الألمانية ، ولكن إحدى نتائجه كان سيغتبط لها شليمان بصفة خاصة ، فبعدفحصه لبقايا طروادة هوميروس والمنشآت الأولى كتب يقول : « لم يكن أمراء طروادة متخلفين عن الأمراء الاخصائيين بأى حال ، فى اهتمام ببناء قلاع عظيمة وقصور فخمة : كانوا أندادا لحكام مايكناى وترنيس . »

وفى غضون ذلك كانت المدرسة الفرنسية بأثينا ، تحاول الشروع فى القيام بأعمال التنقيب فى كريت ، ولم تسفر هذه الجهود عن شيء حتى عام ١٨٩٨ حين طرد الأتراك من الجزيرة ، بعد ذلك لم يكن الفرنسيون بل ثرى انجليزى ، أمين متحف العالم اشمول باكسفورد هو الذى وفق إلى شراء الأرض ، والكشف عن الكنوز التى كان شليمان يؤمل فى العثور عليها ، باعتبارها «تاج حياتى العملية » ، وفى سلسلة من الحملات من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٠٥ نجح سير أرثر إيفانس فى كسب نصيب الأسد فى كنز من أطلال مدينة كنوسس ، وكان الذهب هناك قليلا ، ولكنه عثر على تصاوير فخمة بالجص وقصور كاملة وكميات هائلة من ألواح خزفية منقوش عليها علامات مكتوبة ، وكشف النقاب عن حضارة وجدت فى العهد الألفى السادس قبل الميلاد ، واستمرت فى الازدهار حتى دمرت

www.ibtesama.com/vb

المدينة ، بطريقة مغلقة على الأفهام ، لعلها نار أو زلزال ؛ وحين استقر الرماد بات من الممكن تعقب الصلة الوثيقة بين كنوسس ومايكناى .

ونحو الوقت الذى كان إيڤانس يقوم فيه بالكشف عن السجلات المدونة ، من مكتبة كنوسس المهجورة ، ظهر ببلاد اليونان مزيد من الكتابات التى تعود فى تاريخها إلى عصر الأبطال ، واكتشف كيرامو بللوس بمخزن فى « قصر كادموس » بطيبة ، ثلاثين إناء للزينة ، عليها كتابة منقوشة ، وهنا وهناك كانوا يكتشفون كتابات أخرى قليلة ، ولكن أحدا لم يستطع حل رموزها ، وواصل إيڤانس أعماله فى التنقيب ، دون انقطاع ، فيما عدا الفترة خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ولكنه قلما نشر شيئا عن اكتشافاته ، وكتابه الأثرى « قصر مينوس » لا يقدم سوى موجز تقريبى للقراطيس الثلاثة المرقومة التى عثر عليها بين أطلال القصر .

وكانت هذه القراطيس على ثلاثة أنواع : واحد بالهيروغليفية ، أو الكتابة المصورة ، وآخر بطريقة أقل أصالة ، تسمى « منوا لنيار . ا » ، والثالث اكتشف بكميات أوفر كثيرا ، وبطريقة تسمى « منوا لنيار . ب » ، وتبدو أنها مشتقة من « لنيار » كما أن هذه بدورها مشتقة من الهيروغليفية ، وظل إيڤانز حتى آخر حياته يؤمل أن يفك رموز هذه الحروف الغريبة المنقوشة على قوالب الآجر ، ولكنه أخفق ، وهو مسئول إلى حد كبير عن هذا الإخفاق الذى تم باختياره ، ذلك لأنه قام بتخزين الأشياء التى اكتشفها ، وقلما سمح لغيره من العلماء بفحصها ، معتبرا أية محاولة لفك رموزها اقتحاما لخلوته ، إذ كان مثل شليمان نزاعا لأن يحيط نفسه بالأسرار .

وأكملت كنوسس اللمسات الأخيرة فى ألوان عصر الأبطال ، فسقاة الخمر الشباب ، والصبايا ذوات عيون المها ، ورسوم الثيران اللطيفة وهى تتلاعب بها اكبيها الفوارس بين قرونها ، كل هذا دلل على رقة عصر الأبطال ، كما شرحت

www.ibtesama.com/vb

مقابر مايكناى حياة الملوك المقاتلين ، ولكن حين كشف النقاب عن كنوسس — تم معظم العمل فى صيف عام ١٩٠٥ — أعقب ذلك فترة طويلة من الحبوط ، بدا فيها كما لو أن الأرض قد كشفت عن كل أسرارها حتى لم يعد ثمة من مزيد ، وتم العثور على بعض أشياء تافهة ، وفى عام ١٩٢٦ فتح علماء سويديون مقبرة لم تنهب الملك وملكة وأميرة ، فى ميديا (Mideia) قرب مايكناى ، ووقفوا على ما لا يزيد على سابق علمهم إلا بقليل .

ومن عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٣٨ اشتغل كارل بليجن فى هيسارليك ، وكان حائزا على نزوع العلماء الخالص نحو الدقة ، كما كان يحمل احتقارا غريبا لشليمان ، وكتب يقول : « يبدو أنه من المرغوب فيه ، وما يستلزمه الزمن ، ويستحق الجهد ، أن نعود إلى طروادة للقيام بفحص جديد للموقع بأكمله ، مهما تكلفه هذا الفحص من عناء ومشقة » ووضع خطة للقيام ببحث واع متزن ، « دون اضطرار لاسترداد أشياء ذات طبيعة ، تبهر الأنظار ، وتلهب الحواس ، وتخدم النشر والدعاية » وكانت مجلداته المفصلة بطريقة تدعو للاعجاب . والمدعمة بالأسانيد ، تثبت فى قوائمها قطعا عديدة من الخزف الرمادى ، وقد تيسر له أن يصوب الكثير من أخطاء شليمان ودور بفلد ، ولكنه لم يجد أى كنز ، وأنه ليترك فى النفس أثرا بأنه كان سيتضايق بعض الشىء ، لو أن أى كنز وقع فى يديه .

وفى عام ١٩٣٨ توقفت أعمال التنقيب فى هيسارليك ، ووجه بليجن اهتمامه إلى قصر من طراز مايكناى ، فى أنو انجليانوس ، بمسينيا الغربية ، الموقع المحتمل لبيلوس فى عهد نسطور ، وهنا اكتشف بعض الأشياء التى بدت لأول وهلة أعظم قيمة من الكنوز ، ففى حجرة ضيقة من القصر اكتشف مجموعة من ألواح من الطين المجفف ، عددها ٦١٨ لوحا ، منها عشرون لوحا سليما ، والباقى شظايا ، وجميعها كانت منقوشة بطريقة « مينوا لنيار ب » مع تعديل طفيف ، وظهر أن الألواح كانت قوائم مفصلة ، لطلبات عن عبيد أو جنود أو أشياء ذات قيمة ،

www.ibtesama.com/vb

تتعلق بالقصر ، ولكن إذ كان مفتاح فك رموز القرطاس المرقوم لا يزال مغلقا على الفهم غير معروف ، فقد استحالت ترجمة الألواح ، ثم نشبت الحرب ، وتوقف كل عمل يتصل بعلم الآثار فى بلاد اليونان .

وهيأت الحرب مجالا يتنفس فيه الناس الصعداء ، ووفرت لهم وقتا يعكفون فيه على التفكير فى الأشياء المستكشفة ، ويتحركون فى حذر للموائمة بين أجزاء لغز الصور المقطوعة وتجميعها معا ، كذلك هيأت ، بصفة خاصة ، لميكل فنترس الشاب ، الذى أنصت يوما ما ، وهو مبهور الأنفاس ، لسير أرثر إيڤانس ، وهو يستعرض اكتشافاته فى كنوسس ، مفتاحا لفك رموز القرطاس المستغلق الغامض ، الذى فتن بليچن وإيفانز ، وجميع أولئك الذين نشئوا على صلة به ، وكانت عملية التسجيل الرمزى خلال الحرب هى التى هيأت الطريقة المطلوبة .

وقامت اليس كوبر ، وهى عالمة أمريكية ، لم تعش حتى ترى آخر مراحل فك رموز هذه الكتابة ، بدراسة الأشياء التى عثر عليها بليچن فى بيلوس ، وقد لاحظت بفحصها العلامات أنها ظهرت لتمثل مقاطع من لغة ذات صرف وإعراب ، وأن مجموعات المقاطع ذاتها تظهر ، ولكن متبوعة فى كل مرة بعلامة نهائية مختلفة ، وهكذا كلمة (Dominus) اللاتينية تصبح (Dominum) فى حالة المفعول به ، وتصبح (Domini) فى حالة الجر ، وتصبح (Domino) فى حالة ظرفى الزمان والمكان .

وفى أعقاب ذلك تتابعت سراعا مجموعة من الاكتشافات الهامة ، وفى عام ١٩٥٠ ، بينما كان ألن ويس (Alan Waco) وجورج ميلونس ، بقومان بالتنقيب عن منزل خارج القلعة بمايكناى ، عثر على ثمانية وثلاثين لوحا آخر على طريقة (منوا لنيار ب) ، وفى نوفمبر من العام التالى ، اكتشف جون بابا ديمتريو ، مقبرة جديدة فى مايكناى ، تحوى أربعة هياكل عظمية ، ومجموعة من السيوف والخناجر وأوانى الزينة والحلى الذهبية ، وأهم المكتشفات قناع من الكهرمان ، شديد الشبه فى شكله بأقدم قناع وجده شليمان ، وبالتدريج رفعت

www.ibtesama.com/vb

الركام عن دائرة مقبرة جديدة بأكملها فى مايكناى ، ولكن لم يعثر أحد هناك على ألواح أخرى .

وأخيرا فى فبراير عام ١٩٥٢ نشر مايرز محتويات الألواح التى اكتشفها إيڤانس ، بصورة كاملة معقولة ، فى كتابه « قرطاس منوا — ٢ » ، ومع الدليل من كنوسس ، ومايكناى ، وبيلوس ، أمامه ، تيسر لميكل ڤنتريس أن يذهب للعمل ، وبعد ذلك بشهرين حل اللغز على أحسن وجه .

واقتحم ڤنتريس المشكلة كما لو كانت تجربة فى المنطق ، ولم يضع أى فرض عن طبيعة اللغة ، على الرغم من أنه ظل حينا مامتشبثا بالاعتقاد بأنها وثيقة الصلة باللغة الأتروسكية ، وكل مافعله هو قيامه بجمع العلامات وتأسيس نموذج مركب من روابطها ، مثل « الشباك » المستخدمة فى « الشفرة » أو الكتابة الرمزية ، وإذ راح يلهو بشبكته فعل بالضبط ما سبق أن فعله شمبليون فى محاولته لفك رموز اللغة الهيروغليفية المصرية ، واستعاض ببساطة عن مقطع دائم التكرار بما بدا كصوت محتمل مناسب ، ومنذ اللحظة التى قرر فيها أهمية الصوت (Ko) لأول علامة من إحدى الثلاثيات النظمية ، بدأت كل القطع ، فى لغز الصور المقطوعة ، تواتم بعضها بعضا ، ولشد ما كانت دهشته حين استكشف أنه كان يطالع لغة تشبه اليونانية القديمة بشكل ملحوظ ، ولكنها غريبة فى خشونتها ، وأحيانا تكون غير واضحة ؛ حتى لكأن إنسانا مشقوق الحنك ينطقها خلال عاصفة رعدية ؛ ومن المسلم به أنها كانت لغة يونانية فى لهجة قديمة ؛ وعلى الرغم من خشونة حوافها وحواشيها ؛ فسقراط كان حريا أن يفهمها ، وقد ثبت أن اللغة اليونانية من أقدم اللغات فى الوجود ؛ وما زالت الألفاظ ؛ التى كانت تدور على الألسنة فى كنوسس عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ؛ تستخدم بشوارع أثينا فى الوقت الحاضر .

www.ibtesama.com/vb

وبينما كان ميكل ڤنتريس يدبج مقاله عن اكتشافه ، وجد بلچين ثلاثمائة لوح فى بيلوس ، وكان بينها لوح غريب بسيط حتى لقد قرر أن ينشر محتوياته فورا ، وكان واضحا جدا أنه يشمل قائمة جرد لأحد المخازن الملكية ، وعلى لوح واحد من الآجر ، على تسعة أعمدة ، نقشت سلسلة من المقاطع ، جميعها تقريبا متبوعة بصورة إناء للزينة له مقبض واحد أو مقبضين أو ثلاثة أو أربعة مقابض ، وكان من الواضح أن المقاطع تصف أوانى الزينة ، واستعاض ڤنتريس عن المقاطع بالأصوات التى سبق أن استنتجها وتوصل إليها ، وعلى هذا الأساس ، أمام صورة إناء الزينة ذى الأربعة مقابض ، توصل لقراءة المقاطع :

Di - pas me - zo - he que - to - ro - wes.

وفى لغة هوميروس اليونانية ، Depas ، معناها « إناء للزينة » وكلمة Meizon معناها « أكبر » وكلمة Tessares معناها « أربعة » وقد ترجم ڤنتريس العبارة كما يلى : « قدح واحد أكبر له أربعة مقابض » وهكذا استمر حتى فك رموز كل الفقر الباقية على اللوح وفسرها كما يلى : —

ثلاث جرار خمر

حاملان ثلاثيا القوائم أحضرهما ايجيوس الكريتى

حامل ثلاثى القوائم أحدها معطوب

حامل ثلاثى القوائم أحضره الكريتى متفحم حول قوائمه

قدحان أكبر حجما بثلاثة مقابض

قدح أصغر حجما بثلاثة مقابض

قدح أصغر حجما بدون مقبض

قدح أصغر حجما بثلاثة مقابض

قدح أكبر حجما بأربعة مقابض

www.ibtesama.com/vb

ومن سوء الطالع أن معظم هذه المستندات تتألف من قوائم جرد مماثلة ، فهناك قوائم بأسماء عبيد وحائكات وسقاة وجنود ، وثمة مستند وجد فى بيلوس ، يصف تجهيزات لدفاع ساحلى ، وتحوى قائمة طويلة بالوحدات العسكرية وقوادها ، أحدهم يدعى أورستيس ، وتظهر أسماء مألوفة ، فنجد أخيليس وهكتور بسجلات الأرض ، ويظهر اسم اينياس بلوح من طراز مايكناى ، كرجل تناول راتبا من الزيت ، ونجد إشارة إلى « كتابة من طروس » وقد تكون هى طروادة ؛ وعلى لوح من كريت نستطيع أن نفك رموز الكلمات : « إلى جميع الآلهة — قدر من الشهد » « إلى سيدة تيهنا - قدر من الشهد » وهناك إشارات إلى سيوف « بمثبتات ذهبية حول المقبض » ومركبات حربية « مطعمة بالعاج ، مطهمة مزودة بالأعنة ، وبرءوس اللجم العاجية ، والقراطيات القرنية » ولم يعثر على أشعار أو مراسيم ملكية أو خطابات على الرغم من الثغور الدائم على ألواح من الفخار ، ولكن علماء الآثار يقومون تدريجيا بملء الثغرات فى قصة هوميروس .

وللإعراب عن مشاعرهما ، أهدى ميكل ڤنتريس ، وچون شدويك ، كتابهما التذكارى ، « وثائق فى إغريقية مايكناى » إلى ذكرى شليمان ، وقد نشر الكتاب ، الذى يشبه قصة بوليسية ، عام ١٩٥٦ ، وفى نفس العام قتل ڤنتريس فى حادثة سيارة ، وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره .

وثمة أسماء كثيرة فى سجل العاملين الذين أعادوا عصر هوميروس للحياة : تسونتاس ، ويس ، بليچين ، ميلونس ، بابا ديمتريو ، ستاماتكيس ، ڤنتريس — وهناك آخرون كثيرون ، ولكنهم جميعا أقروا بأولوية شليمان ، فهو يقف من فوقهم جميعا منتصبا كعملاق ، لأنه كان أكثرهم إقداما ، وأبعدهم نظراً ، ولم يهن قط إيمانه بهوميروس .

www.ibtesama.com/vb

ضريبة عبور الشجعان الباهظة

لم تتبدد فى الظلام :

كذلك حساب النفقة

لم يبتلع حمية آمالهم .

فوق الأرض الخصبة

وعبر البحار

مرق ضوء الأعمال المجيدة

متألقا إلى الأبد —

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

محتويات الكتاب

صفحة

من الأساطير اليونانية ٥

طفولة أخاذة ٧

العاصفة ٢١

البحث عن الذهب ٣٨

كبير التجار ٦١

البحث عن طروادة ٩٠

ذهب طروادة ١٢٥

الأقنعة الذهبية ١٧٥

الأبطال ٢٠٦

الأعوام الأخيرة ٢٢٢

اللهب الدائم ٢٥٤

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

تصويب

صفحة	سطر	الصواب
٧	٣	معتمة
٧	٥	غليظ
٨	١٤	Slavs
٨	١٨	القلائل
٨	٢٣	Heinrich
١٣	٥	شيء
١٥	١٢	بخط
١٨	٥	عن
١٨	١٤	يسر
١٩	١٥	يذرفان
١٩	١٩	تفاقت
٢١	٣	يتقاضاها
٢١	٤	الأرضيات
٢١	١٦	العام
٢٥	٢٢	تأزمت
٣٠	١٦	بنزل
٣٣	٨	المركزة
٤٨	١٢	١٨٥٠
٥٢	٢٠	تغلغلت
٥٥	١٥	يقاوم
٦٠	٥	نيويورك
٦٤	١٦	مكانا
٧٢	١٧	يسلكه
٧٢	٢٢	فأبغض
٧٣	٧	قائما
٧٦	١٣	الرضوخ
٨١	٢٠	لكن
٨٨	٢	اللفظ
٩٠	٦	فأشد
٩٠	١٢	بيع
٩٠	١٥	للمستأجرين
٩٠	١٩	أثرا
٩٠	٢٢	أية
٩٢	١٠	يختفى
٩٢	١٣	بوعده
٩٤	١١	فبمعونة
٩٦	٦	الاستصباح
١١٢	١٥	لكنى
١١٥	٦	كتابا
١١٦	٣	الإغريقية
١١٦	٢٠	بمكنونات

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb